سلسلة أوراق من التاريخ

8

رجال وشياطين

شاكر مصطفى

ريع الدار

لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ـ برقياً طلاسدار

هاتف: ٦٦١٨٩٦١ ـ ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠ تلكس: ٤١٢٠٥٠

رجال وشياطين

الطبعة الأولى ١٩٩٦

سلسلة أوراق من التاريخ

٨

رجال وشياطين

شاكر مصطفى

كلمة أولى

... وقال آدم لحواء

ــ ولكن الرب قال . « لا تقربا هذه الشجرة ! » .

ــ ولماذا لا نقربها ؟ لقد أكلت من جميع ثمار الجنة حتى مللت ... مللت ! هل خلقها الرب عقوبة لنا ؟

ــ ويلي من إبليس ! كأني أراه وراءك يمد لي لسانه .

ــ أنت من صلصال من طين وذلك من نار !

ــ إنه رجيم !

ــ ولكنه وعد بعاصفة وأقواس قزح .

ــ إنه ملعون !

ــ ستصبح من قبيله . إن همود الملائكة يدمرني .

....

... وقال آدم لحواء وهما يصطدمان بصخر الأرض .

ــ أرأيت ما فعلت بنا ؟ حتى طفقنا نخصف على أنفسنا من ورق الجنة ؟ ثم طردنا منها ؟

ــ أفضل هذه الجنة الحية على تلك الجنة السكونية الميتة وزهرها الحجري وصمتها اللانهائي !

ــ الشيطان هو الذي يتحدث لا أنت .

ــ دع عنك المتحدث وخذ بالحديث. هنا نحلم بالقمح ونتوهج للجراح. وينسج القيثار رؤاه. ويتعرى النشيج والموت. وتبكـي العاصفـة مطـراً أسود ...

ــ ستبحثين عن الخبز بالأظافر فلا تجدين. ويفترس العمل أعصابك والجبين. وستتعبين تتعبين! وسياط الجحيم ستشرب من كل الشرايين!

ــ إنها الحياة!

....

ويأتي الإنسان أخيراً ليقول:

ــ احمل متاعك ياأبي والحقني. وأنت ياأمي إلحقي. أنا ملاك وشيطان. ﴿قضى الأمر الذي كنتم به تستفتيان!﴾.

شاكر

شعيب الدجال

في موكب من الخيل والأمراء نزل من قلعة القاهرة على جبل المقطم في آب /أغسطس/ من سنة ١٣٤٣ تخت ملكي فيه وراء الأستار سيدة مترفة ومن ورائها مجموعة من الجواري. في خدورهن. كانت السنابك في الموكب تصك الأرض فيما كان الأمراء بثيابهم المزركشة والمذهبة شاهري السيوف يخبون بالخيل وذيول عمائمهم تلوح في الفضاء. والناس يتراكضون من حول الموكب ليشهدوه زرافات ووحداناً. ويهمس واحد لرفيقه:

ـــ هي أم السلطان، ذاهبة إلى حفرة شعيب!

إنها مناسبة ليرى العالم نسائج الحرير أستاراً ولجم الخيل المذهبة وكوكبة الجند تحف بالمحفة الملكية... ولتنشده منهم العيون وتتمزق المرائر.

كان ذلك في عهد المماليك، وفي القاهرة بالذات. وفي سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م. والسلطان هناك هو حفيد السلطان قلاوون.. ولكن الناس كانوا ينسون هذا الاسم أمام اسم آخر شاع بينهم وانتشر انتشار الحبر في الماء. كل الناس صاروا يتحدثون عنه عن شعيب... شعيب... ومن هو شعيب هذا؟ الذي تتحدث بخبره حتى نساء البلاط السلطاني وكبار الأعيان والأمراء؟ إنه مجرد مشعوذ! ولكن الضجة التي أثارها في القاهرة لم يكن للسلاطين أن يثيروها...

والعامة هم العامة في كل مكان وزمان في العهود السابقة. عجينة سائحة من سيطر على قبضة منها شكلها كما يشاء. كان لديهم قسط كبير من

التدين لا يعدله إلا قسطهم الكبير من السذاجة وسرعة التصديق. ومظاهر الغفلة والبساطة وحتى الجنون كان من الممكن أن تنفذ إلى أعماقهم الإيمانية على أنها آيات من الله لأولياء الله وهم يعتقدون فيهم الرفعة الروحانية. فالمجاذيب أولياء تلتمس منهم البركة الإلهية والكرامات. وتقبل أيديهم والأرجل أيضاً. ومن هذه الفرجة يتسلل الدجالون. يذهبون ويرجعون بمشاعر الناس يزدادون بهم إيماناً كلما ازدادوا شعوذة وبهللة!!

وقصة شعيب بدأت بعملية أثرية. يقول المؤرخ المقريزي: في ناحية باب اللوق بظاهر القاهرة القديمة كان هناك كوم من النفايات يعرف بكوم الزبل. كان وكراً لأهل التشرد والفسوق من أوباش العامة. فأخذ بعضهم موضعاً منه ليبني فيه بيتاً. وشرع في نقل التراب منه. ففيما هو يحفر إذ ظهر له بعض الفخار وفيه مكاتيب دار كانت في هذه البقعة وتدل على أنه كان به أيضاً مسجد. ورأى آثار البنيان فيه.

حتى هنا والقصة عادية وقعت، وقد تقع للكثيرين. ولكن أحد شياطين العامة وكان يقال له شعيب أشاع أنه رأى في منامه أن هذا البنيان المردوم يقوم على قبر بعض صحابة الرسول الأعظم! ولم يكتف بذلك بل أضاف أن من كرامات هذا الصحابي الجليل أنه يقيم المقعد ويرد بصر الأعمى! وأقبل يطوف في الطرق ويصيح ويهلل ويظهر اختلال عقله وانجذابه... فاجتمعت عليه الغوغاء. وتكاثروا ولم يعدم مساعداً له يدعى العجوي كان يؤكد للناس أن شعيباً من الأولياء المجذوبين. وأنه الوسيط لدى هذا الصحابي. ألم يزره في النوم ويبلغه عن كراماته ويحدد مكان القبر؟

وتكاثرت الجموع حول المكان وأكثروا الصياح والتهليل. مع شعيب وصاحبه. وأخذت الفؤوس تلك الأرض بالحفر حتى نزلوا فيها نحو قامتين. فإذا مسجد له محراب. فزاد نشاطهم وتصديقهم لشعيب وفرحوا فرحاً كبيراً. وباتوا في ذكر وتسبيح وأصبحوا نحو ألف إنسان فشالوا ذلك الكوم من أساسه.

وساعدهم النساء حتى أن المرأة كانت تشيل التراب في مقنعها . وأتاهم الناس من كل أوب ورفعوا معهم التراب في أقبيتهم وعمائمهم وألقوه في الكيمان بحيث تهيأ لهم في يوم واحد من نقل التراب ما لا تفي مدة شهر بنقله .

وحدد شعيب حفرة احتفرها كبيرة وزعم أنها موضع قبر الصحابي ...

وخرج إليه أهل القاهرة ومصر أفواجاً ليشهدوا الموضع ويلتمسوا البركة . وشاع الخبر . دخل كل البيوت والقصور وركب إليه نساء الأمراء والأعيان . فكان شعيب يأخذهن وينزلهن تلك الحفرة لزيارتها وما منهن إلا من تدفع له الدنانير والدراهم .

وأشاع شعيب أنه أقام الزمنى المقعدين ، وعافى المرضى ، ورد أبصار العميان في هذه الحفرة وصار يأخذ جماعة ممن يظهر أنه من أهل هذه العاهات وينزل بهم إلى الحفرة . ثم يخرجهم وهم يسبحون : الله أكبر . الله أكبر . ويزعمون أنهم قد زال ما كان بهم . وما كانت سوى تمثيليات بائسة ولكن الناس افتتنوا بتلك الحفرة حتى نزلت أم السلطان لزيارتها . ولم تبق امرأة مشهورة إلا أتتها . وتبرعت بالمال لشعيب بوساطة صاحبه العجوي .

وصار للناس هناك مجتمع عظيم بحيث يسرج به كل ليلة نحو مائتي قنديل ومن الشموع الموكبية شيء كثير . ولم يكن يخلو الجمع من أهل التقى الذين يهللون ويكبرون ولا من أهل الفساد الذين ينتهزون الفرص لمختلف أنواع الفساد . صار المكان مرتاداً للناس ومصدر رزق للباعة والفقراء المتسكعين .

على أن العلماء والقضاة تحركوا أخيراً وتحدثوا في الأمر مع بعض أمراء المماليك وقبحوا هذا الفعل وخوفوا عاقبته . ثم بلغت مخاوفهم إلى السلطان وأقنعوه بضرورة تحري الحقيقة في هذا الأمر الذي رابهم انتشاره الواسع . فأصدر أمره لوالي القاهرة أن يتوجه إلى مكان الحفرة ويكشف أمرها . فإن كان فيها مقبور يحمل إلى مقابر المسلمين ويدفن به سراً ثم يعفى الموضع .

غير أنه لما مضى الوالي إلى الحفرة ثارت به العامة تريد رجمه . وصاحوا

عليه بالانكار الشديد وتجمهروا يتشبثون بالحفرة وما فيها . ولم يجد الوالي سوى قتالهم . فرماهم الجند بالنشاب حتى تفرقوا وأخذ الحفارون يعملون في ذلك المكان حفراً إلى أن انتهوا إلى سراب حمام ولم يجدوا قبراً ولا مقبوراً فطموه بالتراب وانصرفوا . وقد انحلت عزائم الناس عنه بعدما فتنوا به ...

أما شعيب وصاحبه العجوي فقد اختفيا . ضاعا عن الناس بعد أن اجتمع لهما من المال والثياب والهبات الكثير الطائل ... وفتش عنهما الجند عبثاً كأن لم يكن لهما وجود ولكن بقي في العامة طويلاً من ظل يعتقد أن الصحابي اختفى من ظلم المماليك ومن ظل يتمنى أن يزور موضع القبر لولا الخوف من نشاب الجند الذين ظلوا يحرسون الموضع طويلاً !

كانت جولة دجل . وكم ذا من جولات الدجل عرف الناس ولا يزالون يعرفون ... والسذاجة مراكب الشيطان ، تقودهم من الأنوف .

قصة النشو

لا تدري من أين نبت هذا الرجل المسمى بالنشو ولكنه نبت ، من غمار الناس . من هذه الجموع التي تلتقي بالألوف منها في الطريق والسوق وبين الملاحين أو بين البطالين في المقهى . فقد تكون كلمة النشو لقباً شعبياً لحقه لأمر من الأمور ولكنه شخصية تاريخية شغل صفحات كثيرة من تاريخ المماليك في مصر وأفرد له المؤرخون مكاناً وأحاديث جعلته قرين الشيطان !

اسمه الكامل شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله النشو . وعمله هو ناظم الخاص . وهذه الوظيفة في سلسلة المراتب الحكومية المملوكية تعدل وزير المالية وإذا كان مثل هذا العمل يقتضي أن يكون صاحبه ممسكاً قاسي القلب صداعاً ، فقد بلغ النشو الغاية التي ما بعدها غاية في الصفات الثلاث وأضاف إليها صفة رابعة هي أن يبتكر فنون الأساليب لإرغام الناس على دفع ما يبتدعه من طرق استخراج الأموال منهم !

تسلط النشو على الدولة المملوكية ثماني سنوات فبين سنة ٧٣٣ وسنة ٧٤٠ / ١٣٣٢ ـــ ١٣٣٩م . كان السلطان في ذلك الوقت هو الناصر محمد بن قلاوون الذي ولى السلطنة ثلاث مرات حتى استقر العرش له في المرة الثالثة ثلاثاً وثلاثين سنة . بدأت بنوع من عطف الشعب عليه ثم بحبه والدعاء له وانتهت باعتياد الناس على وجوده . سلطاناً لا سلطان غيره .

ويبدو أن اعتياده السلطنة جعله في أواخر حياته قليل الاهتمام بالأمراء وبالناس ، كثير البذخ والإسراف . ولما لم يكن هناك من يحاسبه فقد كان أحسن

الأعوان عنده من يصب الأكثر من الأموال في خزانته . ومن هذه الفرجة دخل عليه عبد الوهاب النشو . ولعل هذا الرجل كان من صغار العمال في الجباية ولكنه كان بارعاً لدرجة الرعب في ابتكار الطرق للوصول إلى جيوب الأمراء والتجار وحتى العامة . همه كله في إرضاء السلطان وفكره كله في جمع المال له ... وشيئاً فشيئاً نال ثقة السلطان . المطلقة . صار نبع مال له . وحين كان بعضهم يشير إلى الرجل وأساليبه مجرد الإشارة كانت الكلمة المسكنة من السلطان : إنه يفيدني !

لم يكن النشو في أول ظهوره يقارب أموال الأمراء والكبراء . جعل كيده ودهاءه في ابتزاز المال من العامة . من هذه الكتلة الخرساء من الشعب التي لا يسأل أحد عن شكواها . دكاكين الأسواق صغار الباعة . أصحاب السفن على النيل . عمال الصناعات الصغار كانوا ضحاياه ... ولم تكن مصادرة أموال الناس إلا كشربة الماء عنده .

في سنة ٧٣٣ ، في أوائل أيام بروزه ، سمع أن المكين ترجمان الدولة أودع قبل الوفاة عند كبير من كبراء التجار في الصعيد صندوقاً فيه ذهب وزمرد وجوهر مثمن . وتوفي الرجل فأصدر قراراً لأحد أعوانه بعقوبة ابن التاجر وتعذيبه حتى يحضر الصندوق . وأرسل النشو أخاه لكشف الدواليب (الصناديق) في الصعيد وتتبع حواشي التاجر ومن يلوذ به . وجاء بوالي البهنسا ووالي الغربية ومتولي المنوفية وعدة من المباشرين الذين شاركوا في اقتسام ما في الصندوق واستخلص منهم الأموال . لمصلحة سيده السلطان .

وطلب النشو تجار القاهرة ومصر وطرح عليهم عدة أصناف من الأخشاب والجوخ والقماش بثلاثة أمثال قيمتها واشتروها مرغمين . وركب إلى دار السكر وسجل أوزان السكر الواصل إلى الأمراء من معاصرهم من قصب السكر وألزمهم دفع المبالغ عنها . لسيده السلطان .

وانبسطت يد النشو في السنة التالية على الأمراء ودبر على الأمير ابن هلال الدولة أنه أخذ من أموال السلطان جملة وأهمل في المحافظة على حقوقه فأضاع عليه المال الكثير. وأتى النشو بالمحققين فطلب هذا الأمير ومن يلوذ به وصودروا جميعاً ودفعوا أموالهم في ذلك ... للسلطان!

وذات يوم أراد السلطان أن يبني جامعاً لأحد غلمانه الأثيرين واسمه الطونبغا فكلف النشو في ذلك بعد أن اختار المكان خارج باب زويلة واشترى عدة دور من مالكيها برضاهم. ولكن النشو عاد على هؤلاء المالكين فقال: الأرض للسلطان ولكم قيمة البناء فقط وما زال بهم حتى ابتاعها منهم بنصف ما في عقودهم من الثمن!

لم يكن للناس من وسيلة لكشف النشو وظلمه أمام السلطان سوى دس الكتب المغفلة التي تكشف ظلمه. واتفق أن تاجراً للقماش رفض شراء ثياب من النشو بضعف ثمنها وشكا ذلك للسلطان فجاء بالتاجر بحضور النشو وقال له: كم يشكو الناس منك: اسمع ما يقول هذا التاجر عنك من طرح القماش عليه بأغلى الأثمان فقال: يا خوند! هذا ما يشتكي من أمر القماش لكن عليه للسلطان مبلغ ثلاثين ألف دينار وقد هرب مني وأنا أطلبه. وهذا المبلغ إرث من جارية تزوجها هذا الرجل كانت عند الأشرف خليل أخيكم وماتت عنده وخلفت نحو مائة ألف دينار ما بين جواهر وغيرها فأخذ الجميع ولم يظهر السلطان على شيء. ثم التفت النشو إلى التاجر وقال: بحياة رأس السلطان ما كنت متزوجاً بفلانة؟ قال نعم! فأمر السلطان النشو بتسليم التاجر إلى صاحب الشرطة ليستخلص من الأموال. فأخذه وشهره في القاهرة وعاقبه بقيسارية التجار مرات حتى أخذ منه خمسين ألف درهم.

وابتكر النشو مظلمة لم يسبق إليها وهي أنه ألزم أهل الصاغة ودار

الضرب ألا يبتاع أحد منهم ذهباً بل يحمل الذهب جميعه إلى دار الضرب ويصك بصكه السلطان ويضرب دنانير هرجة ثم تصرف بالدراهم. فجمع من ذلك الأموال الكثيرة للديوان. ثم تتبع النشو الذهب المضروب في دار الضرب فأخذ منه ما كان للتجار والعامة وعوضهم عنه بضائع. وحمل ذلك كله للسلطان... واحتاج السلطان إلى عشرة آلاف دينار فطلبها من النشو ولم يكن عنده ذهب فلم يقبل عذره ونهره فنزل النشو إلى دار الأيتام فأخذ منها ٤٠٠ ألف درهم وعوض الدار بضائع وذهب إلى القاضي وكان تحت يده من أموال بعض الوارثين ستة آلاف دينار فامتنع. وقال: السلطان لا يحل أخذ مال الأيتام فقال النشو إنما يطلب السلطان المال الذي سرقه أخوك من خزانة الخاص (المالية) حين كان ناظراً لها. والحساب يشهد بذلك. وذهب النشو إلى السلطان فاستحضر القاضي... الذي دفع المال عن يد وهو صاغر... وكان السلطان يحب الجواري المولدات فكان النشو يطلبهن من أصحابهن ويرضخون له مرغمين!

هذا إلى تمكن النشو من نفي بعض معارضيه عن مصر واحتكار بعض البضائع وحجز المواد الغذائية عند الضائقات وبيعها بالثمن الغالي. وأخذ كسوة المماليك غصباً عن التجار بالمجان. ومنع بيع الفول إلا للسلطان ليتحكم بسعره. وبيع أبقار السواقي في القلعة للجزارين بأضعاف ثمنها وهي ضعيفة هزيلة ليحل محلها ثيراناً قوية. واحتاج السلطان إلى فرو السنجاب وكان مما يفاخر المماليك بلبسه ولم يكن في السوق منه شيء. فكبس الفرائين فلم يجد لديهم بغيته فجعل يأخذ ما على أقبية الناس منه وما على كسوتهم. وثياب نسائهم. وبلغه وقوع التجار فيه ودعوتهم عليه فاستأذن السلطان في أن يبيع ما تجمع عنده من الخشب والحديد. فأذن له فطلب النشو تجار القاهرة ومصر ووزع عليهم من بضائعه ما بين ألف وثلاثة آلاف دينار وهي لا تساوي نصف المبلغ... واستخرج بذلك خمسين ألف دينار عوقب على دفعها غير

واحد بضرب المقارع حتى أخذها ... هذا إلى ما فرضه على الناس يوم حج السلطان ويوم ولادة زوجته !

وضجت الناس جميعاً كبيرهم وصغيرهم بالشكوى وكثرت الرقاع التي تصل السلطان وتكشف العسف والظلم الذي يلاقونه من هذا الرجل ومن أعوانه وأهله . يقولون إنه كان يجتمع بهم كل ليلة ويتدبر مظالم اليوم التالي . على أن كثرة الشكاوى أجبرت على أن يفتح أذنه لسماعها مرغماً . كبار الأمراء في الشام اشتركوا فيها فخاف السلطان عاقبة كل أعماله حين قرأ ببعض الرقاع :

ترى من الظالم فيكم لنا فلعنة الله على الظالم !

وحين وصل رسول من نائب الشام لشكواه اجتمع حول القلعة جمع مخيف فيه أرباب الرواتب والصدقات وفيه الأرامل والأيتام والزمنى والعميان وصاروا في بكاء ونحيب يقطع القلوب حسرات ورحمة . وكان النشو مريضاً بالقولنج فشغل بنفسه فأمر السلطان الناس بالانصراف فتفرقوا في الجوامع للدعاء . وكان فيضان النيل ناقصاً فصار دعاؤهم نصف للفيضان ونصف على النشو . وأشار بعض الأمراء بتوقيف النشو فأمر السلطان بذلك وهو غير راض . ولكنه أمر صاحب الشرطة بأن يقف بجماعة على باب القلعة فلا يسمح للنشو ولا لجماعته وأهله بالنزول وأرسل أميرين للقبض عليه ... وقبض على أهله وجواريه يعصرون العنب في البساتين وسار الخبر في القاهرة فخرج الناس كالجراد المنتشر وغلقت أسواق القاهرة ومصر واجتمع الناس مع النساء والأطفال . وقد أشعلوا الشموع ورفعوا على رؤوسهم المصاحف ونشروا الاعلام وهم يضجون ويصيحون استبشاراً ...

وأخرج النشو لينقل إلى قاعة المحاكمة فتكاثرت العامة تريد رجمه وهو في جنزير بعنقه والعامة في هجمة بعد هجمة عليه والشرط تطردهم . وقد تجمع الناس في كل موضع ومعهم الطبول والشموع وأنواع الملاهي وأرباب الخيال ،

بحيث لم يبق حانوت مفتوح نهارهم كله . في حين كان النشو يقاسي شتى أنواع العذاب حتى هلك . ودفن في مقابر اليهود بكفن قيمته أربع دراهم . ووكل بقبره من يحرسه مدة أسبوع خوفاً من العامة أن تخرجه وتحرقه . وأما أخوه رزق الله فأخرج في تابوت امرأة ودفن في مقابر النصارى ...

أكانت خاتمة النشو نتيجة الثقة بالملوك أم نتيجة النفاق لهم ؟

أبو حيـان

كثيرون في التاريخ الإسلامي حملوا اسم حيان وأبي حيان. ولكنك إذا قلت أبا حيان وأمسكت فإنك لا شك تعني أبا حيان التوحيدي، أحد البلغاء البلغاء في العربية والكاتب الذي ليس يضاهي بياناً وغزارة... ومع ذلك فقد كان الرجل من سوء الحظ بحيث غمر ثم غمر فليس يذكره غير المتخصصين وغير المنقبين عن المغمورين! ولم يكن يعدل بلاغته الرائعة سوى رقة حاله وبؤس ما يلقى من العيش ومن الناس.

بلى! عاش التوحيدي في القرن الرابع الهجري وتوفي بعد انتهائه بقليل عن أكثر من تسعين سنة. والقرن الرابع كان مهرجان الحضارة العربية الإسلامية وأزهى عصورها على الإطلاق. وعاش التوحيدي في بغداد وبغداد يومذاك أم الدنيا وعاصمة الخلافة والثروة والعلم. تهفو إليها العيون من المشرق والمغرب. ويتمنى كل ذي حظ من علم أو طمع في جاه ومنزلة أن ينزلها... وكان التوحيدي يرتاد مجالس كبار الوزراء وشيوخ العلماء ويرى ما يتقلبون به، مع حاشيتهم، من المنافقين من الرياش والمال وزهو الخيلاء. ومع ذلك فقد كانت أمطار السخاء تسح سحاً في أطباقهم وأبنيتهم. أما طبقه فكان يبقى فارغاً لا يكاد تبله قطرة. وأما اليدان فأفرغ من فؤاد أم موسى! لو أتيح له لقال ما قاله الزهاوي ذات يوم بعده:

أنا قد لاقيت في بغداد ضنكاً أي ضنكاً
طالما كنت بها أعتزل الناس وأبكي

أن لا يسأل عنـــي أحـد حين أغـــيب
أنا كـالرحـمـة منبوذ وكـالـحــق غـريـــب

ما مأساة أبي حيان؟ وما ذنبه ليعيش أكثر دهره كالمتعلق على خشبة في البحر بين زبد الأمواج السوداء. موجة ترميه وأخرى تتلقفه؟

كان متقناً ثقافة عصره جميعاً. في اللغة هو المرجع. وفي النحو هو السيد. وفي رواية الشعر لا يضاهى. وفي الفقه هو الضليع. وفي الصوفية هو الشيخ لا أشياخ مثله. وفي الفلسفة لا يشق له غبار. وفي المنطق أول المجلين. وفي علم الكلام حجة. وفي البلاغة أبلغ من عليها.. وفي الذكاء والحفظ والاطلاع لا تسل... كان مجموع مواهب تلتمع!... وأمثال التوحيدي كانت تتخاطفهم البلاطات كالطواويس. تتزين بهم مجالس الحكام والأمراء ويتراكض الخدم لتقديم فعالهم. فما بال التوحيدي وحده بينهم محيداً منكوراً، كالجمل الأجرب؟

لقد صحب عدداً من الوزراء وكبار القوم. ثم كان يهجرهم إلى غيرهم كأنما شيطان شرير يلحقه بالسياط وينكد عليه نعمة الاستقرار. فإذا هو لا يكاد يهدأ في مكان من العراق أو من فارس حتى يرتاد سواه. وكان دواماً يجد من ورائه عصبة من الحمقى تودعه بالاتهام والشتيمة وفيهم من لا يساوي شراك نعله!

مشكلة هذا الرجل كانت أولاً علمه الغزير. بلى! علمه. فقد كان محسداً في قومه. ونار الحسد لهب يشوي القلوب. ودخان يعمي العيون. وكان التوحيدي من جهته أيضاً شديد الاعتداد بعلمه ومواهبه يشمخ على الناس سجية فيه وزهو كبر: أحد الشعراء يقول وكأنما يتحدث بلسان التوحيدي:

أمـوت فلا تدري بموتي حمامـــة ولا سائل في الحي يسأل عن قبري
تعاليت عن قومـي وأهلي سجيـة كما شمخت شم الجبال ولا تدري!

بل كان يجزي الآخرين حسداً بحسد. كان يرى إلى الدنيا مقبلة ترقص لذوي الحظوظ لا لذوي العقول والأفهام. ويرى إلى النعيم يتقلبون فيه وهو يستجدي البخيل واللئيم. فتثور فيه عزة العالم على القدر وعلى الحرمان ولكنها ثورة مهيضة الجناح. يتهاوى بعضها على بعض كبناء من الخشب تمضغه النيران. ويتحسر والحسرة ثروة المفلسين.

ويشكو زمانه غاضباً. ويصب غضبه في قلمه وتصانيفه حقداً وحسداً. يرى في علمه ومواهبه ديناً وحقاً واجباً على الناس وهم يمطلون به. فلو ناله من ذوي الحظوظ شيء لم ير أن يشكره. لقد استرد بعض حقه. ويقول:

غير اختيار قبلت برك بي ... والجوع يرضي الأسود بالجيف

فإذا عاتبه أحد على كفران النعمة وسوء العرفان بالجميل قال:

ما كنت إلا كلحم ميت ... دعا إلي أكله اضطرار

أو قال:

وإذا رأيت فتى بأعلى رتبة ... في شامخ من عزه المترفع

قالت لي النفس العروف بقدرها ... ما كان أولاني بهذا الموضع!

وما كان أبو حيان يخفي على الناس خبيئة صدره. كان اعتداده بعلمه يحجب ما بينه وبين الناس. وفيما كان يزيد في غربته عنهم كان يزيدهم حقداً عليه واتهاماً له وحتى وصل الاتهام إلى الدين وقالوا إنه كان يتعرض لأمور جسام في الشريعة وإنه قليل الورع سيىء الاعتقاد. وغير ذلك من التهم التي تحل دمه. والتي لحقته قروناً بعد وفاته وأخملت ذكره حتى تحامى أصحاب التراجم ذكره لسوء ما يذكر فيه... دفع الثمن غالياً جداً... من سمعته. وإذا كان ندا الجاحظ في الترسل والموسوعية فأين اسم الجاحظ من التراث وأين اسمه؟

هل كان هذا هو السبب الوحيد لخموله؟ الواقع أن الحسد والحسد

المقابل لا يكفي لتعليل هذا الخمول . المسألة أن التوحيدي اتصل حبله بوزيرين كانا أبرز الوزراء في عصره وأكثرهم دعاة . كان الأول أبا الفضل بن العميد وزير ركن الدولة البويهي في الري وكان الثاني هو الصاحب بن عباد . وهما من أشهر كتاب العربية ونبا به المقام عند الأول فارتحل إلى الثاني فكانت أول مهمة عهد به إليها الوزير نسخ رسائله . وجاءه الخادم بالرسائل فإذا هي في ثلاثين مجلدة . وارتاع التوحيدي وقال لو كنت نساخاً لما ضاقت بغداد بمهنتي . ولكني أختصرها إذا شاء الوزير وخرجت منها فقراً كالغرر وشذوراً كالدرر ... فرفع ذلك إلى الوزير فقال يطعن في رسائلي ويعيبها ؟ والله لينكرن مني ما عرف . يقول التوحيدي فكأني طعنت في القرآن ... ما ذنبي يا قوم إذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلدة من هذا الذي يستحسن هذا الكلب حتى أعذره في لومي على الامتناع ؟ أينسخ إنسان هذا القدر وهو يرجو بعدها أن يمتعه الله ببصره أو ينفعه في بدنه ؟ ويقول مبغضو التوحيدي إن الصاحب وقف على ما يخفيه من سوء الاعتقاد فطلبه ليقتله فهرب والتجأ إلى أعدائه . ونفق عليهم بزخرفه وإفكه ثم عثروا منه على قبيح دخلته وسوء عقيدته وإلحاده وما يضيفه إلى الصحابة والسلف الصالح من الفضائح فطلبه الوزير المهلبي « فاستتر منه ومات في الاستتار وأراح الله منه ولم يؤثر عنه أي مثلبة أو مخزية ... »

الواقع أن التوحيدي لم يكن ملحداً ولا تتبع فضائح الصحابة والسلف ولا سلح كما يقول في زمزم ولكنه كتب كتاباً سماه « مثالب الوزيرين » فضح فيه رياءهما وضحالة ما يعرفون . وزيف الكرم الذي به يتجملون . ونفاق الحواشي والعلماء حولهما . وكان هذا الكتاب غلطته الكبرى . سلط عليه الوزيران كل الألسنة وأجابوه على « مثالبهما » باختراع أشنع المثالب عليه . وتشويه سمعته بما كان وما لم يكن حتى استتر في الحياة ونسيه الناس أو تحاموا ذكره حتى قبل أن يدركه الممات .

ولم يمت إلا بعد أن أحرق جميع كتبه . ضناً بها على من لا يفهمها !

ابن الزيات

قصص الوزراء في العصر العباسي كثيرة. ومع أنها كانت تنتهي بالنكبات في الغالب فقد كان الكبراء والكتاب والأغنياء يتهافتون عليها تهافت الذباب على الحلوى ــ مع أنها مسمومة ــ وقد يشترونها شراء وكأنما كانوا يشترون بها الموت... ذلك أن هذا المنصب كان أعلى منصب في الدولة. وكان منصباً واحداً لا تعدد فيه للوزراء. وكان الوزير يتحكم في الدولة أكثر مما يتحكم الخليفة لأنه الصلة بين الخليفة والناس... وهكذا هلك جعفر البرمكي والفضل بن سهل وهلك بعض آل الجراح وبعض آل الفرات... ومن هؤلاء الهالكين أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان المعروف بابن الزيات وزير المعتصم والواثق والمتوكل.

كان جده أبان رجلاً من أهل جَبُّل يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد وكذلك كان أبوه واجتمع للأسرة من هذه التجارة مال كثير. لكن محمداً سمت همته عن التجارة واتخذ سبيل العلم وأهل الأدب. وبرع في النحو براعة واضحة ودخل في سلك كتاب الدولة في بغداد وانتقل منها إلى سامراء حين بنى المعتصم هذه المدينة. واتفق ذات يوم أن ورد على الخليفة كتاب من الجبال حول تبريز يصف خصب السنة وكثرة الكلأ للأغنام فقال المعتصم لوزيره ابن عمار ما الكلأ؟ قال لا أعلم وكان قليل المعرفة بالأدب واللغة فقال المعتصم: خليفة أمي ووزير عامي؟ وكان المعتصم نفسه ضعيف الكتابة والعلم ثم قال: أبصروا من بالباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك فأدخلوه عليه فقال

له : ما الكلأ فقال : الكلأ العشب على الإطلاق فإن كان رطباً فهو الخلا فإذا يبس فهو الحشيش . وشرع في تقسيم أنواع النبات . فعلم المعتصم فضله . وقـدَّمه بين الكتاب ثم ما لبث أن استوزره .

ولما مات المعتصم وقام بالأمر ولده الواثق هارون (وقد سمي على اسم جده الرشيد) قال ابن الزيات :

قد قلت إذ غيبوك . وانصرفوا   في خير قبر لخير مدفـــون
لن يجبر الله أمـة فقـدت   مثـلك إلا بمثـــل هارون !

وأقره الواثق على ما كان عليه في أيام المعتصم بعد أن كان متسخطاً عليه في أيام أبيه وحلف يميناً مغلظة أن ينكبه إذا صار الأمر إليه . فلما تولى الخلافة أمر الكتاب أن يكتبوا ما يتعلق بأمر البيعة إلى الآفاق . فكتبوا . فلم يرض ما كتبوه فكتب ابن الزيات نسخة رضيها وأمر بتحرير المكاتبات عليها . فكفر عن يمينه وقال : عن المال والفدية عن اليمين عوض وليس عن الملك وابن الزيات عوض . فلما مات بعد خمس سنوات وتولى أخوه المتوكل الخلافة كان في نفسه من ابن الزيات شيء كثير لأنه أشار بتوليه ولد الواثق . في حين أشار القاضي ابن أبي دواد بتوليته المتوكل وقام في ذلك وقعد حتى عممه بيده وألبسه البردة وقبله بين عينيه . وكان المتوكل أيام الواثق يدخل على ابن الزيات فيتجهمه ويغلظ عليه في الكلام ، يتقرب بذلك إلى قلب الواثق . فحقد المتوكل ذلك عليه فلما ولى الخلافة خشي إن نكبه عاجلاً أن يستر أمواله فيفوته . فاستوزره ليطمئن ... وجعل القاضي ابن أبي دواد يغريه به ويجد لذلك عنده موقعاً فانتظر عليه المتوكل أربعين يوماً ثم قبض عليه وألقاه في السجن وصادر أمواله ثم قتله فلم يجد من جميع أملاكه وضياعه وذخائره إلا ما كانت قيمته مائة ألف دينار وكان ينتظر أن يجد الملايين . فيقال : إنه ندم على قتله وقال للقاضي أحمد : أطمعتني في باطل وحملتني على شخص لم أجد عنه عوضاً !

وكان ابن الزيات شديد القسوة. صعب العريكة لا يرق لأحد ولا يرحم إنساناً. وقد وقع يوماً على رقعة رجل توسل إليه بقرب الجوار منه: الجوار للحيطان والتعطف للنسوان. وكان قد اتخذ أيام وزارته تنوراً من حديد وأطراف مساميره المحددة إلى داخل وهي قائمة مثل رؤوس المسال. وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطالبين بالأموال فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمه فيجدون لذلك أشد الألم ولم يسبقه أحد إلى مثل هذه العقوبة وكان إذا قال له أحد منهم أيها الوزير ارحمني يقول له: الرحمة خور في الطبيعة.

فلما اعتقله المتوكل أمر بإدخاله في التنور نفسه وقيده بخمسة عشر رطلاً من الحديد فقال ياأمير المؤمنين ارحمني فقال له: الرحمة خور في الطبيعة... كما كان يقول للناس. ويقولون إنه طلب دواة وبطاقة فأحضرت إليه وهو في التنور فكتب:

هي السبيل فمن يوم إلى يوم … كأنه ماتريك العين في النوم
لا تجزعن رويداً إنها دول … دنيا تنقل من قوم إلى قوم

وسيرها إلى المتوكل وكان في شغل عنها ولم يقف عليها إلا في الغد فلما قرأها أمر بإخراجه فجاؤوا إليه فوجدوه ميتاً. وذلك سنة ٢٣٣ وكانت مدة إقامته في التنور أربعين يوماً. ولما مات وجدوا بخطه في التنور. وقد كتب بالفحم على جانب منه:

من له عهد بنوم … يرشد الصب إليه
رحم الله رحيماً … دل عيني عليه
سهرت عيني ونامت … عين من هنت عليه!

ودفن ولم يعمق قبره فنبشته الكلاب وأكلته. وكان الجاحظ منقطعاً إليه فخاف أن يؤخذ مع أسبابه فاختفى. ولكنهم عثروا عليه وجيء به مقيداً إلى

المتوكل وعنده قاضي فارس فقال له القاضي : ما تأويل هذه الآية وكذلك أَخْـذُ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ؟ قال : تلاوتها تأويلها أعز الله القاضي . فقال : جيئوا بحداد فقال الجاحظ ليفك عني أو ليزيدني قال : بل ليفك عنك . فجيء بالحداد وغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ويطيل أسره قليلاً ففعل . فلطمه الجاحظ وقال اعمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة فإن الغرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة . فضحك أهل المجلس وقال ابن أبي دواد أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه !

أيوب والد صلاح الدين

الدنيا حظوظ ...

نقول في التاريخ الدول الأيوبية ونحسب أن صفة الأيوبية، إنما هي نسبة لقبيلة أو قوم عرفوا بهذا اللقب. بل نقول صلاح الدين الأيوبي وليس اسمه بصلاح الدين ولا الأيوبي، فاسمه هو يوسف واسم أبيه أيوب والي أيوب هذا نسب الصلاح ونسب الأيوبيون جميعاً من بعده. وهو رجل فرد من أكراد الهكارية، من أهل دوين. ويعرف بأيوب بن شاذي ... وإذا شئنا المزيد من التعريف به قلنا إنه من أبناء الوجهاء في تلك البلدة الصغيرة لا أكثر. وأبوه شاذي لم يفكر مرة في أن سلالته ستملك مصر والشام والجزيرة والحرمين واليمن فقد كان متواضع الأحلام فيما يبدو وكان له صاحب يقال له جمال الدولة بهروز من أظرف الناس وألطفهم وأخبرهم بتدبير الأمور وكان بينهما من الاتحاد والمحبة كما بين الأخوين. ثم كانت لبهروز قضية في دوين فخرج منها حياء وحشمة. وذلك أنه اتهم بزوجته بعض الأمراء بدوين فأخذه أمير المدينة فخصاه. فلما مثل به لم يقدر على الإقامة بالبلد وخرج بقصد خدمة أحد ملوك السلاجقة. واتصل باللالا (أي المربي) لأولاده فوجده اللالا لطيفاً كافياً في جميع الأمور فتقدم عنده بهروز وتميز وفوض أحواله إليه وجعله يركب مع أولاد السلطان إذا كان له ما يشغله. فرأه السلطان يوماً مع أولاده فأنكر على اللالا فقال له: إنه خادم وأثنى عليه وشكر دينه وعفافه ومعرفته. ثم صار يسيره إلى السلطان في الأشغال فخف على قلبه. ولعب معه الشطرنج والنرد فحظي

عنده. واتفق موت اللالا فجعله السلطان مكانه وأرصده لمهامه وسلم إليه أولاده وسار ذكره في تلك النواحي فسير إلى شاذي من يستدعيه من بلده دوين ليشاهد ما صار إليه من النعمة وليقاسمه فيما خوله الله تعالى وليعلم أنه ما نسيه فلما وصل إليه بالغ في إكرامه والانعام عليه.

ورأى السلطان أن يوجه بهروز إلى بغداد والياً عليها ونائباً عنه بها فاستصحب معه شاذي وأولاده. وأعطى السلطان لبهروز قلعة تكريت فلم يجد من يثق إليه في أمرها سوى شاذي فأرسله إليها فأقام بها مدة وتوفى. وكان له ولدان: نجم الدين أيوب أكبرهما فولاه ونهض بأمرها وشكره بهروز وأحسن إليه. وهناك لجأ عماد الدين زنكي إلى أيوب حين لوحق. ثم صار زنكي صاحب الموصل فتوثقت عرى المودة بينه وبين نجم الدين وأخيه أسد الدين شيركوه.

ثم اتفق أن بعض الحرم خرجت من قلعة تكريت لقضاء حاجة وعادت فعبرت على نجم الدين وأخيه وهي تبكي فسألاها عن سبب بكائها. فقالت: كنت داخلة من باب القلعة فتعرض إلى الاسفهسلار (أي قائد القلعة) فقام شيركوه وتناول الحربة التي تكون للاسفهسلار وضربه بها فقتله فأمسكه أخوه أيوب واعتقله وكتب إلى بهروز وعرفه صورة الحال ليفعل فيه ما يراه فوصل إليه جوابه: لأبيكما على حق وبيني وبينه مودة متأكدة وما يمكنني أن أكافئكما بحالة سيئة تصدر مني بحقكما. ولكني أشتهي منكما أن تتركا خدمتي وتخرجا من بلدي وتطلبا الرزق حيث شئتما.

فلما وصلهما الجواب ما أمكنهما المقام بتكريت فخرجا منها ويوسف بن أيوب صغير. وتحملا إلى الموصل. فأحسن إليهما الأتابك زنكي (والد نور الدين محمود) لما تقدم لهما عنده وزاد في إكرامهما والانعام عليهما وأقطعهما إقطاعاً حسناً. حتى إذا ملك زنكي شمال الشام ووصل بعلبك استخلف في

قلعتها نجم الدين أيوب ... فأحسن السيرة في أهلها وبنى فيها خانقاه للصوفية عرفت بالنجمية لأنه كان كثير الصلاح حسن الطوية والعمل . ثم آلت بعلبك إلى ملك دمشق فلم يحاربه أيوب . ولكن قبل تسليم البلد إليه مقابل إقطاع واسع أخذه في غوطة دمشق. فانتقل إليها مع أهله وفيهم بالطبع الشاب يوسف صلاح الدين بن أيوب .

على أن نجم الدين لم ينس جميل زنكي فلما علم بمقتله في قلعة جعبر صار عيناً لابنه نور الدين في دمشق. يعطيه أخبارها ويمهد له حتى أخذها . فصار في خدمته . وأعجب نور الدين بصلاح الدين يوسف الشاب اللاهي وصار يلاعبه البولو (الكرة والصوالجة على الخيل) في مرج بجانب القلعة ولما أرسل نور الدين حملته الأولى على مصر أرسل صلاح الدين معها ، ثم لما أرسل حملته الثانية أجبره أيضاً على أن يكون معها .. تحت قيادة عمه أسد الدين شيركوه . وهناك استوزره الخليفة العاضد الفاطمي بعد موت عمه . وبدأ نجمه في الصعود ... وحين استقر الأمر بصلاح الدين في مصر بعث يطلب من أبيه وأهله المجيء إليه فجهزهم نور الدين وأرسلهم إليه سنة ٥٦٥ وخرج الخليفة العاضد بنفسه للقائهم إكراماً لصلاح الدين .

وسلك صلاح الدين مع أبيه من البر والعناية ومن الأدب ما هو لائق بمثله . وعرض عليه الأمر كله وأن يتسلم الوزارة بدله ــ فقال نجم الدين يا ولدي ما اختارك الله تعالى لهذا الأمر ، إلا وأنت أهل له . ولا ينبغي أن تغير موضع السعادة ... » .

ويبدو أنه كان في نجم الدين أيوب بعض التصوف وبعض المسالمة ويدرك أنه لا يقوم مقام ابنه الشاب سواء في الحكم أو الحروب فاختار السلامة . وعاش في القاهرة كما في دمشق مكتفياً بما أنعم الله عليه به ثلاث سنوات . ولما خرج صلاح الدين إلى الكرك في جنوب الأردن يحاصرها وفيها الفارس الفرنجي

الشيطان أرناط علم بالخبر الفاجع. علم أن أباه في القاهرة ركب يوماً ليسير على عادة الجند فخرج من باب النصر، أحد أبواب القاهرة. فشب به فرسه مجفلاً فألقاه في وسط المحجة أواخر سنة ٥٦٨ فحمل إلى داره وبقي يتألم أياماً إلى أن توفى. ودفن بجانب أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية. وشق الخبر على صلاح الدين وعظمت عليه اللوعة أنه لم يره فبكى!

بعد سنين نقل الرفاتان إلى المدينة المنورة ودفنا فيها.

وتستعرض حياة أيوب نجم الدين فتجد أنه لم يفعل شيئاً ذا مجد ولا فتح فتحاً صغيراً ومع ذلك فاسمه صار علماً على صلاح الدين وعلى عدد من الممالك بعده...

أليست الدنيا حظوظاً؟

بثينة وجميل

في التراث العربي ارتبطت بعض الأسماء بأسماء أخرى معها، فما تذكر أحدها إلا وتردفه بالآخر كأنهما اسم واحد أو اسمان متلازمان. فما تقول قيس إلا وتقول ليلى وما يتذكر المجنون إلا وتذكر بعده ليلى وما تهمس بكثير إلا وتأتي معه عزة ولا جميل إلا ومعه بثينة ولا القيس إلا تبعته سلامة. إذا لم نذكر جريراً والفرزدق والرشيد مع البرامكة. هي شهرة قصص الحب أو التناقض أو... حتى النكبات...

على أن الناس مع الأيام نسوا القصص بتفاصيلها وبقي لهم العنوان يرددونه. فماذا لو جربنا الحديث عن واحد من هؤلاء. وليكن جميل بثينة؟

ينسبه النسابون فيقولون هو أبو عمرو جميل بن عبد الله بن معمر بن صُباح. القصاعي من بني عذرة والحب العذري صار في العربية مثلاً ونموذجاً للحب الطاهر البريء. وما تدري كيف تصفه أو تحلله إلا أن يكون حباً فنياً كحبك لآنية جميلة أو إعجابك بلوحة رائعة، تخاف عليها مس الأيدي وخطرات النسيم. إنه نوع من التصعيد لعاطفة الحب ومن التجاوز بها صورة الجسد إلى صورة الروح والمثل. فكأن الحب يمشي بخط مستقيم إلى غير لقاء مع الحظ الآخر.. وقد يمكن تحليله بأنه أشبه بالحب الأخوي العميق وإن لم يكن هو نفسه. فالنفس الإنسانية أغوار وكهوف وألوان من التيه يضل فيها الجن...

نشأ جميل في البادية، في وادي القرى، منزل قبيلته، ونشأت معه بثينة

ونشأ معهما الحب الذي اشتهر . كان بعد غلاماً وكانت هي مثله ، وتحولت الإلفة حباً فغراماً فهوى فهياماً . وكبرا وخطب جميل بثينة إلى أبيها فرده ولست تدري السبب . فقال الشعر فيها . وكان يزورها سراً أو يلمُّ بالحي التي هي فيه . واشتهر الشعر لحلاوته فاشتهر معه الحب واشتهرت بثينة . ولولا جميل ما عرف بها أحد ... ويبدو أنها تزوجت بعده فإنها تكنى بأم عبد الملك . أما جميل فظل وفياً على حبها الذي صعده في العاطفة حتى صارت بالنسبة إليه رمزاً يدور حوله شعره كله . والحب والعشق في بني عذرة كثير . وقد قيل لأعرابي من العذريين : ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تذوب كما يذوب الملح في الماء ؟ أما تتجلدون ؟ فقال : إننا ننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها ! وقيل لآخر : ممن أنت ؟ قال أنا من قوم إذا أحبوا ماتوا فقالت جارية سمعته : هذا عذري ورب الكعبة ! ولقد غلبته بثينة على نسبه فليس يعرف إلا بها . وقد تغنى المغنون بشعر جميل لعذوبته ورقة العاطفة فيه : من مثل قوله :

وما زلتم يا بثن حتى لو أنني ... من الشوق استبكى الحمام بكى ليا
وما زادني الواشون إلا صبابة ... ولا كثرة الناهين إلا تماديا ...

ولقد نصحه الناصحون بالكف عن بثينة والشعر وقيل له : لو قرأت القرآن كان أعود عليك من الشعر فقال : هذا أنس بن مالك رضي الله عنه أخبرني أن رسول الله ﷺ قال : إن من الشعر لحكمة ! ومن أرق شعره وأنبله قوله :

وإني لراضٍ من بثينة بالذي ... لو استيقن الواشي لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي ... أواخره لا نلتقي وأوائله !

وذكروا أن كثير عزة كان راوية جميل وقد ابتلى بمثل بلواه في حب عزة . يقول كثير : لقيني جميل بثينة مرة فقال : من أين أقبلت فقلت من عند أبي

الحبيبة (يعني بثينة) فقال وإلى أين تمضي ؟ قلت إلى الحبيبة (يعني عزة) فقال جميل : لا بد أن ترجع عودك على بدئك فتتخذ لي موعداً من بثينة فقلت : عهدي بها الساعة وأنا أستحي أن أرجع فقال : لا بد من ذلك فقلت متى عهدك ببثينة فقال : من أول الصيف . وقعت سحابة بأسفل وادي الدوم (أي أمطرت) فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثياباً فلما أبصرتني أنكرتني فضربت يدها إلى الثوب من الماء فالتحفت به وعرفتني الجارية فأعادت الثوب إلى الماء . وتحدثنا ساعة حتى غابت الشمس فسألتها الموعد فقالت أهلي سائرون ! ولا لقيتها بعد ذلك . ولا وجدت أحداً أمنه فأرسله إليها . فقال كثير : فهل لك أن آتي الحي فأتعرض بأبيات شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة بها ؟ قال جميل وذلك الصواب . فخرج كثير حتى أناخ بهم فقال له أبوها ما ردك يا ابن أخي ؟ قال : قلت أبياتاً عرضت فأحببت أن أعرضها عليك قال هاتها فأنشدته وبثينة تسمع :

فقلت لها يا عز أرسل صاحبي	إليك رسولاً والرسول موكل
بأن تجعلي بيني وبينك موعداً	وأن تأمريني بالذي فيه أفعل
وآخر عهدي منك يوم لقيتني	بأسفل وادي الدوم والثوب يغسل !!

قال فضربت بثينة جانب خدرها وقالت : اخسأ اخسأ . فقال لها أبوها : ماذا بك يا بثينة قالت : كلب يأتينا إذا نوم الناس من وراء الرابية ثم قالت للجارية : ابغينا من الدومات حطباً لنذبح لكثير شاة ونشويها له فقال كثير : أنا أعجل من ذلك . وراح إلى جميل فأخبره فقال جميل الموعد الدومات !! وخرجت بثينة وصواحبها إلى الدومات وجاء جميل وكثير إليهن فما برحوا حتى برق الصبح . فكان كثير يقول ما رأيت مجلساً قط أحسن من ذلك المجلس ولا مثل علم أحدهما بضمير الآخر . ما أدري أيهما كان أفهم ؟

توفي جميل في مصر . وفي مرض الموت زاره صديقان فنظر إلى أحدهما وقال يا ابن سهل ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط ولم يزن ولم يقتل النفس ولم يسرق ويشهد أن لا إله إلا الله قال صاحبه أظنه قد نجا وأرجو له الجنة فمن هذا الرجل قال جميل أنا فقال ابن سهل والله ما أحسبك سلمت وأنت تشبب منذ عشرين سنة ببثينة قال : لا نالتني شفاعة محمد ﷺ وإني لفي آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة إن كنت وضعت يدي عليها لريبة ! ويقال إنه أعطى بعض أصحابه كل ما خلفه على أن يرتحل إلى حي بثينة وينشد :

صرخ النعي وما كنا بجميل   وثوى بمصر ثواء غير قفول

قال الرجل ففعلت ما طلب . وما استتمت البيت حتى برزت بثينة كأنها بدر في وجنة . فلما تأكدت من الخبر أعولت . واجتمع نساء الحي يبكين معها حتى صعقت فمكثت مغشياً عليها ساعة ثم أفاقت فقالت :

وإن سلوى عن جميلٍ لساعةٌ   من الدهر ما حانت ولا حان حينها

سواء علينا يا جميل ابن معمر   إذا مت بأساء الحياة ولينها !!

ابن منقذ

في أواسط القرن السادس الهجري ، كان المار من باب البريد بدمشق يتحامى المرور فيه حتى آخره فقد كان ثم فهدان من الفهود مربوطان إلى باب إحدى الدور ويعرف الناس أنها دار أسامة بن مرشد بن منقذ الشيزري الكناني ويعرفون أنه من أمراء قلعة شيزر شمالي حماة وأنه مقرب من مجموعة الحكام في دمشق وهم يسكنون بالقرب منه في القلعة وأن هذين الفهدين من صيده الكثير فهو أمير موسر جليل الهيئة . وقد ترك أهله في شيزر خوفاً على نفسه . كان يرجو أن يكون أمير تلك المنطقة مع قلعتها الهامة . رباه عمه على ذلك وقد دخل مرة إليها يجر وراءه أسداً تصيده في أحراش الغاب القريبة . فأتته أمه تقول : ترحل عن البلد . لقد يغري مثل هذا العمل عمك الأمير بقتلك لا سيما بعد أن كبر ابنه وبلغ مبلغ الشباب ... وهو يخاف عليه منك ...

وترحل أسامة إلى دمشق يعيش فيها عيش المترفين اللاهين ويقضي فراغ وقته بين الصيد وكتب الأدب فهو شاعر أيضاً وأديب لامع ومقاتل شجاع وسفير سياسي بارع . وذات يوم كانت إمارة دمشق المسلمة على عهد أتابكها أنر على علاقة حسنة وطيدة مع مملكة القدس الفرنجية الصليبية فدعى أنر لزيارة المملكة فاصطحب معه أسامة وطافا بالقدس ونابلس وبيت لحم والناصرة ويافا . وكان أسامة يذكر من نوادر ما شهد هناك قسيساً يدعوه لأنه يرى الله وهو صغير ... ويضحك أسامة ملء صدره من هذا الكفر العجيب . كما يذكر أنهم دعوه ليشهد محاكمة لص فوضعوا حلة كبيرة مملوءة بالماء وأوقدوا تحتها

النار حتى غلا الماء وربطوا اللص بحبل ودلوه فيها : قالوا إن كان بريئاً فالله برحمته ينقذه أما إن كان قد سرق حقاً فإنه يغرق ويموت ... ولعل تعليق أسامة كان أنه ما من أحد تعرض لهذا الامتحان سارقاً أو غير سارق إلا ظهر أنه سارق حقاً ... فالجميع يغرقون ويموتون ! ...

ويبدو أن بعض أمراء دمشق وقادتها حسدوا أسامة على مكانته وأثاروا مخاوف الأمراء الآخرين وحتى أتابك دمشق (والأتابك هو الحاكم الفعلي دون الأمير) من مطامح أسامة وأنه قد يلعب لعبة سياسية لا قبل لهم بها . وشعر أسامة بهذه الوساوس ولم تكن فيما يظهر غير حقيقية فنبا به المقام وترحل إلى مصر سنة ٥٤١ واستقر فيها أيام الوزير العادل بن السلار ، وجد أن جوها السياسي المضطرب وتحاسد الوزراء وضعف الخليفة الفاطمي فيها يومذاك خير مرتع له . فتدخل فيها مؤمراً مشاراً إليه بالتعظيم أيام الوزير العادل الذي أحسن إليه وأكرمه . لكنه دخل في مؤامرة ضده انتهت بقتل الوزير ابن السلار فلما تسلم الوزير الصالح بن رزيك . أوعزوا إليه أن يرحل . فعاد إلى الشام وضاعت في الطريق إليها في البحر مكتبته التي تركت جرحاً في صدره بضياعها وبما فيها من كل غال ثمين . وسكن دمشق فترة أيام نور الدين محمود بن زنكي ... يكتب ويؤلف فداره مجمع أدبي لا يخلو من اللهو والقصف .

وجاء زلزال مدمر قطع أمله في العودة إلى بلده شيزر . ذلك أن الزلزال دمرها تدميراً فقتل أهله جميعاً تحت أنقاضها وقتل السكان سنة ٥٥٢ فلم تقم لها قائمة بعد ذلك أبداً . وعادت الدسائس تطوق أسامة بدمشق وتنتصر عليه فنصحوه بالترحل . فاختار حصن كيفا في الجزيرة قرب ميافارقين وديار بكر يقضي به أيامه الأخيرة . فلما ملك صلاح الدين الأيوبي دمشق استدعاه وهو شيخ في الثمانين أو قد تجاوزها وأنزله في دمشق وأكرمه وأجرى له راتباً حسناً . وحين توفى وهو ابن ست وتسعين سنة كانت يده لا تكاد تحمل قلماً بعد

حملها السيوف والرماح فقال :

فأعجب لضعف يدي عن حملها قلماً		من بعد حطم القنا في لبة الأُسْد !

ودفن في دمشق ، في سفح جبل قاسيون في قبر ضاعت اليوم معالمه وآثاره ...

ترك أسامة ثلاثة عشر كتاباً في الأدب والشعر لعل أجملها وأكثرها سلاسة كتاب مذكراته : كتاب الاعتبار الذي كتبه آخر حياته لا على أنه مذكرات ولكن على أنه ذكريات شيخ عن أيام شبابه . وتقرأ فيه قصص صيده ورحلاته كما تقرأ بعض القصص عن الفرنجة وهزئه بطبهم وعلومهم ومن ذلك أن رسولاً من الصليبيين أتى شيزر يطلب طبيباً لمداواة بعض المرضى في طرابلس فأرسل أمير البلد طبيبه برفقة الرسول . ولم تمض فترة قصيرة حتى عاد الطبيب . فلما سألوه ما أسرع ما عدت قال : أخذوني إلى فارس قد أصيب بطعنة في رجله فسدت جراحه فقلت لا بد من قطعها . ووافقوا فلما أخذت في الاستعداد جاءهم فارس منهم فقال : لا حاجة لهذا الطبيب وأنا أنهي الأمر بقطعها . نادوا لي فارساً قوياً وأعطوه سيفاً قاطعاً ففعلوا . ثم قال للفارس الجريح : أيما أحسن لك أن تعيش برجل واحدة أو أن تموت على يد هذا الكافر ، وكان طبيعياً أن يفضل الحياة على الموت وقال مدوا رجله وجاؤوا بفارسين جلسا عليها لئلا تتحرك وقال لحامل السيف : اضرب ضربة واحدة قوية فاقطعها وأطاع الرجل وضرب ولكنها لم تنقطع فثنى عليها بضربة أخرى فانتثرت العظام والنخاع ومات الفارس ...

قال الطبيب ، ثم جاؤوني بسيدة معها نشاف فداويتها حتى شفيت ولكنها عادت إلى أكل مآكلهم بالثوم وغيره فعاد إليها النشاف وجاء طبيبهم فقال : هذا الطبيب لا يفهم شيئاً هذه السيدة دخل رأسها الشيطان وأنا أخرجه . احلقوا الرأس فحلقوه وعمد إلى جلدة الرأس فشقها بالسكين على هيئة الصليب وكشطها فماتت المرأة ...

ويضيف الطبيب : قلت هل لكم إلى حاجة قالوا لا .. فركبت ورجعت !

يروي أسامة ذلك ويروي الكثير غيره في الكتاب ويعجب من جهل هؤلاء الفرنجة الأوروبيين وقلة عقلهم ويضحك .

ترى لو بعث أسامة مرة أخرى أتراه يقول : إنهم صاروا هم الذين يعجبون من بعض فعالنا ويضحكون ؟

ابن القرية

أرأيت لو قدم عليك أعرابي مشعث الشعر مهلهل الثياب، وأنت حاجب بقصر أمير من الأمراء وطلب مقابلة الأمير فكيف يكون موقفك؟ قد تحسب أنه من لا يأبه الله ولا الناس بهم فترده. وقد يخطر في البال أنه ذو حاجة مادية فتصرفه ببعض المال أو أن عدواناً جرى على بعض جماله فتستأذن الأمر له وأنت كاره أما أن يكون هذا الأعرابي المنكور يحمل ثروة من الفكر والبيان فذلك آخر ما يخطر في البال... ومن أين يأتي بها؟ وهو في القفر مع الرمال والأباعر والخباء الذي تلعب به الرياح؟

مع ذلك فهذا الذي كان ذات يوم في باب عامل بلدة عين التمر أيام الحجاج بن يوسف الثقفي صاحب العراق والمشرق في عهد عبد الملك بن مروان. ورد أعرابي أمي تقتحمه العين إذا بدا ولا تقيم له وزناً. وكان هذا العامل في عين التمر أعجمياً، يعرف أن السَّنَة كانت سنة قحط ومجاعة في البادية فكان يغذي الناس ويعشيهم كل يوم، فوقف هذا الأعرابي ببابه وانتسب للحرس: أنا أبو سلمان أيوب بن زيد بن قيس ابن القرية الهلالي والقرية (أي الحوصلة) لقب جدتي واسمها جماعة بنت جشم... ولم يلق إليه الحرس بالاً. ولكنه رأى الناس يدخلون دار الأمير دون استئذان. فقال: اين يدخل هؤلاء؟ قالوا إلي طعام الأمير فدخل فتغدى. وقال: أكلَّ يوم يصنع الأمير ما أرى. قيل نعم فكان ابن القرية يأتي كل يوم بابه للغداء والعشاء إلى أن وصل ذات يوم فوجد الباب مغلقاً فسأل ما بال الأمير اليوم لا يأكل ولا يطعم؟ قالوا إنه اغتم

لكتاب ورد عليه من الحجاج عربي غريب لا يدري ما هو ؟ فقال : قولوا للأمير ليقرئني الكتاب وأنا أفسره له إن شاء الله تعالى . فلما قرئ عليه الكتاب عرف الكلام وفسره للوالي حتى عرفه جميع ما فيه فقال له : أفتقدر على جوابه قال : لست أقرأ ولا أكتب ولكن أقعد عند كاتب يكتب ما أمليه . ففعل . فكتب جواب الكتاب . فلما قرئ على الحجاج رأى كلاماً عربياً غريباً فعلم أنه ليس من كلام كتاب الخراج ومعظمهم أعاجم يومذاك فدعا برسائل عين التمر فنظر فيها فإذا هي ليست كالكتاب فكتب الحجاج إلى العامل أما بعد فقد أتاني كتابك بعيداً من جوابك بمنطق غيرك . فإذا نظرت في كتابي فلا تضعه من يدك حتى تبعث إلي بالرجل الذي صدر لك الكتاب والسلام . فقرأ العامل الكتاب على ابن القرية وقال له : تتوجه نحوه؟ فقال : أقلني قال : لا بأس عليك وأمر له بكسوة ونفقة وحمله إلى الحجاج . فلما دخل عليه قال : ما اسمك ؟ قال أيوب قال : اسم نبي وأظنك أمياً تحاول البلاغة ولا يستصعب عليك المقال . وأمر له بنزل ومنزل فلم يزل يزداد به عجباً من بلاغته ولسنه ودقة فكره حتى أوفده على عبد الملك بن مروان . . .

فلما ثار عبد الرحمن بن الأشعث الكندي وخلع الطاعة بسجستان بعثه الحجاج إليه رسولاً فلما دخل عليه قال عبد الرحمن : لتقومن خطيباً ولتخلعن عبد الملك ولتسبن الحجاج أو لأضربن عنقك ! فقال أيها الأمير إنما أنا رسول قال : هو ما أقول لك . فقام ابن القرية وخطب وخلع عبد الملك وشتم الحجاج وأقام لدى ابن الأشعث . حتى كانت معركة دير الجماجم بينه وبين الحجاج وابن القرية مع ابن الأشعث وهزم جيش الثائر بعد أن كاد ينتصر وتفرقت كتائبه بدداً . فكتب الحجاج إلى عماله بالري وأصبهان وما يليهما يأمرهم ألا يمر بهم أحد من فلول ابن الأشعث إلا بعثوا به أسيراً إليه . واتفق لسوء حظ ابن القرية أنه أخذ فيمن أخذ فلما أدخل على الحجاج قال ثكلتك

أملك يا ابن القرية . لولا أتباعك لأهل العراق وقد كنت أنهاك عنهم أن تتبعهم فتأخذ من نفاقهم . ثم دعا بالسيف وأومأ إلى السياف أن أمسك . فقال ابن القرية : ثلاث كلمات أصلح الله الأمير عندي ثلاث كلمات كأنهن ركب وقوف يكن مثلاً بعدي . قال : هات : قال لكل جواد كبوة ، ولكل صارم نبوة ، ولكل حليم هفوة . قال الحجاج : ليس هذا وقت المزاح . يا غلام أوجب جرحه . فضرب عنقه !! كان ذلك سنة ٨٤ للهجرة ...

على أن هذا الأعرابي الأمي ، الغريب البلاغة صار فيما بعد ظاهرة وضع عليها العلماء الكثير مما كانوا يزينون سبكه وقوله . يزعمون أن الحجاج قال له حين أدخل عليه : أخبرني عما أسألك عنه . قال سلني عما شئت قال أخبرني عن أهل العراق قال : أعلم الناس بحق وباطل . قال فأهل الحجاز قال أسرع الناس إلى فتنة وأعجزهم فيها .قال . فأهل الشام قال : أطوع الناس لخلفائهم . قال فأهل مصر قال عدة من غلب قال فأهل اليمن قال : أهل سمع وطاعة ولزوم الجماعة . وهكذا استمر يسأله عن أهل البحرين واليمامة وفارس ! فيقول حملاً هي من جوامع الكلم وسأله عن العرب وقريش وثقيف وبني سليم وقضاعة وبني بكر بن وائل والقبائل قبيلة قبيلة وعن البلاد بلداً بلداً في صفحات طويلة تشعر معها بأنها موضوعة وضعاً على لسانه .

وزعموا أيضاً أن الحجاج سأله قبل قتله فقال : العرب تزعم أن لكل شيء آفة قال صدقت العرب . أصلح الله الأمير قال الحجاج فما آفة الحلم قال : الغضب . فما آفة العقل قال العُجب قال : فما آفة العلم قال النسيان واستمر يعدد آفات السخاء والكرام والشجاعة والعبادة والمال وإلى أن سأله الحجاج : فما آفة الحجاج بن يوسف قال : أصلح الله الأمير . لا آفة لمن كرم حسبه وطاب نسبه وزكا فرعه قال امتلأت شقاقاً وأظهرت نفاقاً . اضربوا عنقه ... فلما رآه قتيلاً ندم ولات مندم !

هذه السلاسل من الكلم الموضوع على لسانه جعلت الكثيرين يشكون في وجوده أصلاً لدرجة أن أبا الفرج الأصبهاني كتب في ترجمة مجنون ليلى بعد أن استوفى أخباره «وقد قيل إن ثلاثة أشخاص شاعت أخبارهم واشتهرت أسماؤهم ولا حقيقة لهم ولا وجود في الدنيا وهم مجنون ليلى، وابن القرية وابن أبي العقب الذي تنسب إليه الملاحم ويسمونه يحيى بن عبد الله» . . .

ترى هل وجد ابن القرية فعلاً وهذه قصته أم هو خيال من اختراع العلماء لا حقيقة له . الله أعلم !

ابن المشطوب

يبدو أن النجوم على أكتاف العسكريين والأوسمة ومهنة القتال تجعلهم في مختلف العصور وفي مختلف المجتمعات نجوماً ذوي مكانة خاصة على الدوام . وإذ كان الكثير منهم لا يزدهيه ذلك . فبعضهم يسلك الطريق المختصر إلى السياسة والرئاسات . والطموح دوار في رؤوس الرجال . فمنهم من يقفز السلم إلى آخره فهو الحاكم والرئيس المطاع . ومنهم من تزل به القدم فإذا هو في السجن أو القبر ... وفي أحسن الأحوال في بيته يتحسر ! ...

وإذا كان تاريخ العصر الحديث يضج بهؤلاء العسكريين بكل مكان فإني محدثكم عن اثنين من القدماء هما أب وابنه . والمشطوب هو الأب بشطب غائر في رأسه أصابه في القتال . وابن المشطوب هو الابن وكلاهما كانا من أمراء الأكراد ومن جند بني أيوب . كان الأب سيف الدين أبو الحسن علي الهكاري في جند صلاح الدين الأيوبي . وكان الابن عماد الدين أحمد في جند الأيوبيين بعده . ولكن الجد أبا الهيجاء كان في الأصل صاحب بلدة العمادية وعدة قلاع حولها . فهما من أمراء الأكراد الهكارية .

كان الأب من الصنف الأول من العسكريين همه في عمله وكان القائد الأثير عند صلاح الدين . وحين أراد السلطان الدفاع عن عكا ، قلعة الصمود الإسلامي ضد حملة الفرنجة الثالثة لم يجد أجدر منه ومن القائد الآخر قراقوش بالقيادة فجعلهما فيها . فلم يكن في أمراء الدولة الصلاحية أحد يضاهي المشطوب ولا يدانيه في المنزلة وعلو المرتبة . وكانوا يسمونه الأمير الكبير وكان هذا

علماً عليه عندهم لا يشاركه فيه غيره، وكان وافر الحرمة عند الملوك معدوداً كواحد منهم. وعلى هذا الأمير وأمثاله قامت سمعة صلاح الدين الكبرى وفتوحاته ...

وحاصر الفرنجة في حملتهم الثالثة عكا وفيها سيف الديـن وشددوا الحصار وصلاح الدين لا يستطيع لهم إنجاداً لقلة جنده وماله وتباطؤ النجدات عليه. وضاقت نفسه وقلق أشد القلق على قائديه المحاصرين. ولم تنفع كل محاولاته في فك الحصار عنهما فسقطت بأيدي الصليبيين وانكفأ صلاح الدين إلى القدس وهو يتساءل عن مصير قائديه المفضلين؟ .. وبغتة دخل المشطوب على السلطان وعنده أخوه العادل فنهض إليه صلاح الدين وعانقه وسر سروراً عظيماً بنجاته وأخلى مجلسه وتحدث معه ساعات!

ظل ابن المشطوب الأمير الأول لدى صلاح الدين حتى توفي بنابلس ثم دفن في داره بالقدس وكان خبزه (وخبزه في مصطلح العصر هو مرتبه السنوي) ثلاثمائة ألف دينار. وكان بين خلاصه من الأسر وبين حضور أجله أقل من مائة يوم! ويذكرون أنه بكى قبل موته لأنه يموت على فراشه وليس بين القنـا والسيوف!

وخدم ابنه عماد الدين ملوك الأيوبيين بعد أبيه. وحضر المعركة مع الحملة الصليبية الخامسة التي نزلت مصر وحاصرت دمياط. وكان فيه من شجاعة أبيه ومنزلته من الدهاء والفكر والجرأة الكثير حتى جعله الملك الكامل الأيوبي في منزلة أبيه ... من أكابر الأمراء والقواد. ولكن الطموح لعب برأسه فاجتذب إليه بعض الأمراء الآخرين فاتفقوا مع أخي الملك الكامل ابراهيم على تفويض السلطنة إليه. بل لقبوا هذا الأخ بالملك الفائز سابق الدين!! وظهر للملك الكامل أنهم عازمون على ذلك. وكان يداريهم لأنهم في مواجهة العدو، كان في قلب المعركة ضد الحملة الخامسة التي احتلت دمياط وبدأت تستعد

للمسير إلى القاهرة... ووقع الكامل بين نارين كلاهما مر ولا يمكنه المغامرة. وأطال نفسه معهم. حتى وصل أخوه المعظم من دمشق نجدة له سنة ٦١٥. فأطلعه الملك الكامل في السر على صورة الحال. وأن رأس الطائفة هو ابن المشطوب!

فجاء المعظم يوماً على غفلة إلى خيمة هذا الأمير واستدعاه فخرج إليه فقال له: أريد أن أتحدث معك سراً في خلوة فركب فرسه وسار معه جريدة أي مسرعين وقد اختار المعظم جماعة من جنده ممن يثق بهم ويعتمد عليهم وقال لهم اتبعونا. ولم يزل المعظم يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيء إلى شيء حتى ابتعدا عن المخيمات ثم قال له: يا عماد الدين. هذه البلاد لك ونشتهي أن تهبها لنا! ثم أعطاه شيئاً من النفقة وقال لأصحابه الذين يتبعونهما: تسلموه حتى تخرجوه من الرمل. فلم يسعه إلا الامتثال للأمر لانفراده وعدم القدرة على الممانعة ولا جند معه ولا الأمراء المتآمرون حوله...

وعاد المعظم إلى أخيه الكامل وعرفه ما جرى. فجهز الكامل أخاه الفائز إلى الموصل بحجة إحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق. وكان ذلك خديعة لإخراجه من مصر. فمات بسنجار بأعالي العراق. فلما خرج هذان الاثنان من العسكر تحللت عزائم من بقي من الأمراء الموافقين لهما ودخلوا في طاعة الكامل كرهاً لا طوعاً، ولكنهم صدقوا القتال للفرنجة ولما خرج هؤلاء من دمياط بقضهم وقضيضهم يريدون القاهرة فتح الجيش الأيوبي جميع الترع على الأرضين فأغرقها بالماء وغرق معها الجند الصليبي وكانت هزيمته التي سجلها الملك الكامل ببناء مدينة المنصورة!

حين استراح الملك الكامل من المعركة تفرغ للأمراء المتآمرين فنفاهم عن البلاد وشردهم. أما عماد الدين فعاد إلى أملاك جده واختلف مع صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ الذي حاصره. وما زال يخدعه ويطمنه إلى أن أذعن

للانقياد وحلف له على ذلك... فانتقل إلى الموصل وأقام قليلاً ريثما ظن أنه آمن مطمئن وعند ذلك قبض عليه لؤلؤ سنة ٦١٧ وسلمه للملك الأشرف الأيوبي الذي سجنه في قلعة حران وضيق عليه تضييقاً شديداً من الحديد الثقيل في رجليه والخشب في يديه. وحصل في رأسه ولحيته وثيابه من الحشرات شيء كثير...

مكث على تلك الحال المهينة حتى توفي في الاعتقال سنة ٦١٩ وعمره أربع وأربعون سنة. ودفن في حران ثم نقلته ابنته إلى رأس العين. كانت زلته في التآمر على الكامل غلطة العمر!

وكم من زلة أطاحت بالعمر!

جوهر الصقلي

في زاوية من الجامع الأزهري في مصر قبران يذكر إليك الشيخ الذي يدل عليهما أنهما لبعض القادة فإن كان على شيء من العلم قال عن أحدهما : هذا قبر جوهر الصقلي ؟ ولكن إن شئت أن تعلم من جوهر ومن أتى به من صقلية ! وما شأنه في هذا الجامع . كان الجواب الله أعلم !

نسي جوهر ونسي أنه كان جوهرة العصر الفاطمي وأنه هو باني القاهرة والجامع الأزهر نفسه وأنه ... وأنه ... لماذا لا نبدأ قصته من أولها ؟

هو أبو الحسن جوهر بن عبد الله وليس اسمه الأصلي جوهر كما ليس اسم والده عبد الله ولكنه أتى به عبداً من صقلية فأعطى اسم جوهر . ولما كانوا يتعمدون تجهيل العبد باسم أبيه وأسرته كانوا يدعونه بابن عبد الله . وكلنا عبيد الله . ونشأ جوهر على ما يبدو في القصر الفاطمي كاتباً وصار من موالي الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في أفريقية (أي تونس) ثم صار من جنده وقواده وبرز بين القواد بشجاعة ويمن طلعته . وقد أرسله المعز ففتح له المغرب كله حتى أقصاه . ولما كانت عين المعز دوماً على المشرق أكثر من المغرب فقد اختاره لفتح مصر وما وراءها وإخراج العباسيين من تلك الديار سنة ٣٥٨ .

كان الفاطميون قد حاولوا أكثر من مرة فتح مصر واحتلالها وتفشل حملاتهم لبعد الشقة بخاصة ما بين مصر وتونس وصحراوية الطريق . ولكن المعز حين قويت دولته بحكم المغرب كله واجتمعت له العدة اللازمة لتلك المغامرة البعيدة ووجد في جوهر القائد الملائم قرر المسير إلى المشرق ...

كانت مصر قد أتت عليها حوالي سنة ٣٥٦ ــ ٣٥٨ سنوات من القحط أفقرتها بهبوط منسوب النيل. وقد مات حاكمها البارز الداهية كافور الأخشيدي واضطرب أمر مصر بين شغب الجند السودان والمغاربة وصراع الوزراء وقلة الأموال للجند وحداثة سن الوالي الأخشيدي أحمد بن علي فكانت الفرصة سانحة لتدخل الفاطميين وفتح البلاد لا سيما حين كتب جماعة من وجوهها يستدعون المعز لإنقاذها.

كان جوهر مريضاً المرض الشديد ولكن هذا لم يمنع المعز من أن يجهز كل ما تحتاجه الحملة من المال والسلاح والرجال فلما أبل جوهر من مرضه أسرع المعز فأبرز الجيش في موضع يقال له الرقادة قرب القيروان فإذا به يحوي ــ كما ذكروا ــ أكثر من مائة ألف فارس، ومعه أكثر من ألف ومائتي صندوق من المال. وكان المعز يخرج إلى جوهر كل يوم ويخلو به ويوصيه. ثم تقدم إليه بالسير وخرج لوداعه فوقف جوهر بين يديه والمعز متكىء على فرسه يحدثه سراً زماناً ثم قال لأولاده انزلوا لوداعه فنزلوا عن خيولهم ونزل أهل الدولة بنزولهم. ثم قبل جوهر يد المعز وحافر فرسه فقال له اركب فركب. وسار بالعساكر ولما رجع المعز إلى قصره أنفذ لجوهر ملبوسه وكل ما كان عليه سوى خاتمه وسراويله وكتب المعز إلى واليه صاحب برقه أن يترجل للقائد جوهر ويقبل يده عند لقائه فبذل الوالي مائة ألف دينار على أن يعفى من ذلك فلم يعف وفعل ما أمر به!

ووصل الخبر إلى مصر بوصولهم. فاضطرب أهلها واتفقوا على طلب الأمان وأرسلوا سفيراً أحد الأشراف عنهم مع وفد إلى قرب الاسكندرية فأجابه جوهر إلى ما طلب. وكتب له عهداً به. لكن الأخشيدية والكافورية وهم جند الأخشيديين وجند كافور رفضوا وأخذوا الأهبة للقتال وستروا ما في دورهم. وبلغ ذلك جوهراً فرحل إليهم ووصل الوفد بالأمان وبتوزيع المال والإقطاع. فاصطدم أهل البلد بالجند وجرى فصل طويل من المشاجرة والامتناع. ونصب

الجند أميراً عليهم يتولى الحرب وساروا نحو الجيزة يتلقون الجيش الفاطمي في الصحراء غربي الفسطاط . وكان قتال وأسرت رجال وأخذت خيل وغرق من غرق في النيل وعلى المعابر . وقتل خلق كثير من الأخشيدية وأتباعهم ... فانهزم الناجون ورجعوا إلى دورهم في الفسطاط فأخذوا ما قدروا عليه وهربوا . وخرج حرمهم مشاة إلى الشريف السفير يرجونه الستر والأمان . فكتب الشريف إلى جعفر يرجوه إعادة الأمان . وجلس الناس عنده ينتظرون الجواب فحضر رسول من عنده يحمل بنداً أبيض وطاف على الناس يؤمنهم ويمنع النهب . فهدأ البلد وفتحت الأسواق وسكن الناس كأن لم تكن فتنة ... فقد تكفل ذهب المعز الكثير الذي وزع بسخاء في إسكات جميع الأفواه !

فلما كان آخر النهار ورد طلب من جوهر أن يلقاه جماعة الأشراف والعلماء ووجوه البلد بعد أسبوع . فلما صاروا إليه نادى مناد ينزل كل الناس عن مراكبهم إلا الشريف والوزير فيكونان على جانبي القائد جوهر . فلما فرغوا من تحيته بدأ دخول البلد بالسلاح والعدة ظهراً ودخل جوهر بعد العصر وبين يديه طبوله وبنوده والألوية والصنجات تدق وعليه ثوب ديباجٍ مثقل وتحته فرس أصفر وشق البلد من الجنوب إلى الشمال ثم قطعها خارجاً إلى شمالها حيث أقام معسكره .

في صباح اليوم التالي حين وفد الناس لتهنئته بالفتح وجدوه قد حفر أساس قصر ضخم للخليفة الفاطمي في الليل . وكان فيه اعوجاج لم يعجبه فقال : حفر في ساعة سعيدة فلا أغيره . وبدأ البناؤون البناء فيه في وقت واحد من كل جانب فكان هذا البناء هو : القاهرة ! سمى القصر الضخم بذلك لأنه قهر العباسيين ! وصار جنده يدخل الفسطاط سبعة أيام ثم كفهم عن ذلك . بنيت القاهرة ضمن سور واسع فكانت كالحصن . وبنيت ضمن السور قصور الفاطميين ولها بوابة لا يدخلها إلا من يؤذن له . وظلت كذلك أكثر من مائتي

سنة فللمصريين الفسطاط في الجنوب. وللفاطميين ومن والاهم القاهرة في شمالها. حتى أتى صلاح الدين ففتح أبوابها للناس وكان البنيان بينها وبين الفسطاط قد اتصل ...

كتب جوهر إلى مولاه المعز يبشره بالفتح وأنفذ إليه رؤوس القتلى في المعركة. فوصله الخبر بعد عشرين يوماً.

ففرح بذلك الفرح الشديد وقام الشعراء يهنئونه وقال شاعره ابن هانىء:

يقول بنو العباس هل فتحت مصر ... فقل لبني العباس قد قضي الأمر
وقد جاوز الاسكندرية جوهر ... تطالعه البشرى ويقدمه النصر

فيما كانت امرأة طبالة في مصر تجمع الناس في الساحات وتنشد:

يا بني العباس ردوا ... ملك الأمر معد (أي المعز)
ملككم كان معاراً ... والعواري تسترد ...:

ونالت على ذلك أجرها أرضاً ظلت طويلاً تعرف بأرض الطبالة.

وقطع جوهر خطبة بني العباس عن منابر الديار المصرية ومحا اسمهم عن السكة وجعلها باسم مولاه. وأزال السواد شعار العباسيين وألبس الخطباء الثياب البيض. وجعل يجلس بنفسه للمظالم مع أكابر الفقهاء. وشيئاً فشيئاً خلال سبعة أشهر زاد في خطبة الجمعة الصلوات على آل البيت وطلب الأذان بحي على خير العمل وهي من سمة الفاطميين وشرع في عمارة المسجد الجامع من القاهرة وهو الجامع الأزهر فانتهى منه بعد ثلاث سنوات ...

بقي جوهر مستقلاً بتدبير مملكة مصر أربع سنوات ونيف. فتح خلالها بلاد الشام وبلاد الحرمين الشريفين. وكان يستدعي المعز لاستلام ملكه. فلما وصل المعز بموكبه من الألوية والطبول والحرس والخيل والسيوف اللامعة وغابة الرماح من حوله، خرج جوهر من القصر للقائه ولم يخرج معه شيئاً من أثاث القصر سوى ما كان عليه من الثياب ونزل في داره في القاهرة... حتى توفى سنة ٣٨١.

صاحب القبر في الجامع الأزهر هو هذا الرجل... الذي فتح للفاطميين ما بين أقصى المغرب حتى دمشق وهو على حصان!!

القاضي بكار

الزمان قبل ألف ومائة وخمسين سنة والمكان أمام السجن بمصر . والمنظر منظر طريف . جموع من الطلبة والناس يستمعون ويكتبون والذي يملي عليهم الحديث النبوي ويفسره ويشرح سجين يطل من طاق في السجن فيتحدث ويعظ الناس بصوت يجهد الناس آذانهم لسماعه فهو ضعيف متقطع . وتسأل :

ــ من الرجل ؟ فيقولون هو القاضي بكار بن قتيبة .

وتسأل عن حكايته وسجنه فترى الناس يلوون شفاههم ويتسللون لا يريدون الحديث . وقد تضج بك الظنون وتظن به الريبة أو سوء الخلق فتسأل ويجيبونك بأنه من أتقى الناس وأكثرهم عبادة ، بل كان أحد البكائين لكتاب الله عز وجل ... إذن فما حكايته ؟ وفيم سجن ؟ إذا خلا بك بعضهم تلفت يمنة ويسرة قبل أن يقول لك :

ــ لقد اصطدم مع الأمير وخالفه .

وأمير مصر والشام كان في ذلك الوقت أحمد بن طولون . وأما القاضي فهو أبو بكرة بكار بن قتيبة بن أبي بردعة الثقفي سليل الصحابي الحارث بن كلدة . وقد ولاه القضاء بمصر الخليفة المتوكل سنة ٢٤٦ فجاءها سنة ٢٤٨ وظهر من حسن سيرته وجميل طريقته ما هو مشهور ... إلى أن كانت له تلك القصة مع أحمد بن طولون .

وابن طولون ، صاحب الدولة الطولونية بمصر ما بين سنتي

٢٥٤ ــ ٢٧٠ . كان تركياً ذا حزم وصلابة جعلته يقتل ذات مرة ابنه . وكانت له سياسته وأهواؤه التي لا يبالي معها بأمر لا سيما إن كان هذا الأمر يتعلق بحكمه . وصار صاحب الديار الشامية والمصرية والثغور في أيامه وامتد ملكه ما بين ليبيا إلى طرسوس إلى الحرمين . على أنه وهو العادل الشجاع المتواضع الجواد ، كان سفاكاً . بلغت عدة من قتلهم صبراً ومن ماتوا في حبسه ثمانية عشر ألف إنسان ... ولست تدري كيف يتسق هذا مع أوصافه السابقة ولا كيف يتسق مع حفظه للقرآن الكريم وحسن دراسته له وجميل ترتيله فيما يذكرون ؟ ... ومع بنائه للجامع الذي لا يزال مشهوراً في القاهرة باسمه إلى اليوم منفقاً عليه مائة وعشرين ألف دينار ؟ ... ويذكرون عنه أنه كان يباشر الأمور بنفسه ويعمر البلاد ويتفقد أحوال الرعايا ويحب أهل العلم . وكانت له مائدة يحضرها كل يوم الخاص والعام . وكان له ألف دينار في كل شهر للصدقة فأتاه وكيله يوماً فقال إني تأتيني المرأة وعليها الازار وفي يدها خاتم الذهب وتطلب مني . أفأعطيها ؟ فقال من مد يده إليك فأعطه ... وكان مع ذلك طائش السيف !! إنها شهوة الانفراد بالملك !!

كان ابن طولون يحترم قاضيه بكار ويدفع له كل سنة ألف دينار خارجاً عن المقرر له . وكان القاضي يتركها بختمها ولا يتصرف فيها واتفق أن الخليفة المعتمد على الله ابن المتوكل ، لما ولى الخلافة عقد لأخيه أبي أحمد الملقب بالموفق أن يتصرف بالأمور . وانصرف هو إلى لذاته واشتغل عن الرعية ، فغلب الموفق على الحكم حتى ضاق به المعتمد وهرب يريد مصر . وابن طولون ، يغريه بذلك . فعلم الموفق وكان يقاتل ثورة الزنج في جنوب العراق . فرد المعتمد وحجر عليه فكتب ابن طولون إلى الآفاق أن الموفق نكث بيعة المعتمد . وأمر بجمع القضاة والفقهاء والأشراف وسيرهم إلى دمشق .. فاجتمعوا بها وخلعوا الموفق وأفتوا بخلعه . إلا القاضي بكار بن قتيبة الذي قال : أنت أوردت كتاباً

من المعتمد بأن الموفق ولي عهده فأورد عليَّ كتاباً منه نفسه بخلعه. فقال: هو الآن مغلوب مقهور وأنا أسجنك حتى يرد كتابه. فقيده وسجنه وطلب منه على سبيل التعجيز أن يرد إليه جوائزه التي كان يجزيه فردها القاضي بأختامها ثمانية عشر كيساً. ولم يزل بكار محبوساً في إحدى الدور الحصينة بمصر إلى أن اعتل ابن طولون علته التي مات بها سنة ٢٧٠. فلما مات قيل لبكار: انصرف إلى منزلك فقال: الدار بأجرة وقد صلحت لي فأقام بها وجاء أصحاب الدار يطلبون أجرة ما مضى فقال بكار: على مذهبي الغاصب لا أجرة عليه ولكن أدفع لكم في المستقبل وليس على فيما مضى أجرة. لكن ابن بكار توفي وشيكاً بعد ذلك وليس بينه وبين وفاة ابن طولون سوى أربعين يوماً...

كان القاضي بكار من أكثر القضاة نزاهة وخوفاً من الله وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها قصص جميع من تقدم إليه وما حكم وبكى. وكان يخاطب نفسه ويقول: يا بكار تقدم إليك رجلان في كذا وتقدم إليك خصمان في كذا وحكمت بكذا فما يكون جوابك عند الله غداً؟ وكان يكثر الوعظ للخصوم إذا أراد اليمين ويتلو عليهم قوله تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾. يقول هذا لكل حالف يمين فمنهم من يرجع عن يمينه. وكان يحاسب أمناءه في كل شهر. ويسأل عن الشهود. ورفض ذات يوم شهادة رفيق كان معه في المكتب والدراسة ولو أنه أكرمه. فعاتبه ابنه في ذلك فقال: كنا صغاراً وكنا على مائدة عليها أرز وفيه حلوى فنقبت الأرز بإصبعي فقال لي: أخرقتها لتغرق أهلها فقلت: أتهزأ بكتاب الله تعالى على الطعام؟ ثم أمسكت عن كلامه مدة وما أقدر على قبوله شاهداً وأنا أذكر ذلك منه...

وحين كان في السجن أوقفه ابن طولون للناس مراراً . واشتكى أصحاب الحديث النبوي ودارسوه انقطاع سماعهم للحديث من بكار . وأبلغوا ذلك إلى ابن طولون وسألوه أن يأذن له في الحديث ففعل . وهكذا جعله في طاق من السجن يحدث ويكتب الناس عنه ...

وهذا هو المنظر العجيب الطريف الذي كان على باب السجن في مصر قبل ألف ومائة وخمسين سنة .

ترى ألم يكن ابن طولون يخجل من أن يجمع العلم والسجن معاً في هذا القاضي الصلب ؟

العرس الأسطوري

في التاريخ الإسلامي عدة أعراس واحتفالات كانت حديث الناس زمناً . كعرس الملكة الحرة في اليمن وعرس قطر الندى ابنة خمارويه والأعذار الذنوني في الأندلس . أما العرس الأسطوري منها فكان واحداً لم يتكرر . ألهب الأخيلة وكان قطعة من ألف ليلة وليلة قبل أن تكتب ألف ليلة بآلاف الليالي ... دارت رؤوس الناس بما كان فيه وما انفق وما بذل . وكان البذخ فيه تعبيراً عن الثروة الضخمة التي تجمعت في أيدي الطبقة العليا من الناس ... وإن كانت الطبقة الدنيا تعض الشفاه جوعاً وتتمرغ في الوحل . هذا العرس هو عرس بوران من المأمون .

دعك من القصة الخرافية التي تتحدث عن صلة الخليفة المأمون ببوران قبل الزواج فإنما ذكرت تبريراً لما كان في العرس من المبالغة في الحفاوة وفي الثراء والعطاء وكان فيه من الولائم والأفراح والأعطيات ما لم يعهد مثله في عصر من الأعصار قبله ولا بعده : لم يذكر أحد شيئاً عن جمال بوران أو عن نشأتها أو علمها أو ثقافتها . انصبت الأعين فقط على ما ملأ الأيدي من الهبات أيام عرسها ثم صمتت ... كانت بوران في حوالي الخامسة عشرة أو السادسة عشرة يوم زفت . وكان المأمون يقارب السادسة والثلاثين أو يزيد قليلاً . ولكن من الذي اهتم بذلك ؟ ما اهتم أحد بعمر الزوجين ولا بمكانتهما ولا بأصلهما ولا ذكروا ذلك ولكن بلى ! تحدثوا عما قدم أبوها وجدتها وعما كان من الذهب والعنبر والدر في إطار العرس .

قالوا تزوجها المأمون لمكان أبيها منه . واسمها خديجة وليس بوران أو كان لها الاسمان العربي والفارسي، وأبوها هو الحسن بن سهل شقيق الفضل بن سهل الذي كان وزير المأمون أيام خصومته مع أخيه الأمين وهو في مرو وثم اتهام للمأمون بأنه في سبيل إرضاء بغداد والعودة إليها ضحى بوزيره في الطريق. فالزواج زواج سياسي. وزواج استرضاء لأخيه.. ولم يكن يحلم الحسن بن سهل أن يزوج ابنته من خليفة المسلمين فقد كانت هذه أول مرة تزف فيها فتاة فارسية واضحة إلى خليفة. ولهذا احتفل أبوها احتفالاً لم يعرف مثله التاريخ الإسلامي بهذا الزواج الذي قد تكون ثمرته خليفة يجمع المجد من أطرافه سؤدد الفرس ودين العرب! من المؤكد أن هذا الحلم هو الذي كان يديره برأسه يوم قبل الزواج واحتفل به. فهل يتحقق الحلم؟

لم يتم العرس في بغداد ولكن في قصر بعيد عنها إلى الجنوب قرب واسط في بلد يعرف بفم الصلح صارت إقطاعاً بعد الزواج للحسن بن سهل. جاءها المأمون من بغداد في موكب ضخم: وأقام فيها تسعة عشر يوماً يُعَدُّ لَهُ في كل يوم وللجميع من معه ما يحتاج إليه. وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين مليون درهم ... في زمن كان أجر العامل اليومي درهم ونصف الدرهم أو درهمين وأجر معلم البناء ثلاثة إلى أربعة دراهم وثمن الخروف ستة إلى سبعة دراهم! ..

يوم الزفاف كان عجباً من البذخ. فرش للمأمون حصير منسوج بالذهب فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلىء كثيرة. فلما رأى تساقط اللآلىء المختلفة على الحصير الذهبي قال: قاتل الله أبا نواس كأنه شاهد هذه الحال حين قال في صفة الخمر والحباب الذي يعلوها عند المزاج.

كأنه صغرى وكبرى من فواقعها   حصباء در على أرض من الذهب!

ثم أمر الحسن بن سهل فنثر على الهاشميين المدعوين وعلى القواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات

دواب وغير ذلك فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ في الرقعة فإذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها سواء كان ضيعة أو ملكاً آخر أو فرساً أو جارية أو مملوكاً .

ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر . وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه وكانوا خلقاً لا يحصى ، حتى على الحمالين والمكارية والملاحين وكل من ضم عسكره . فلم يكن في العسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه ولا يكشف هذا مبلغ ثروة الحسن بن سهل فقط ولكن يكشف أيضاً مدى ما يمكن لأرستقراطي فارسي أن يدفعه في ذلك الوقت للتقرب من العرب .

ودخل المأمون على بوران في الليلة الثالثة من وصوله إلى فم الصلح فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية من الذهب . فأمر المأمون أن تجمع وسألها عن عدد الدرّ كم هو ؟ فقالت ألف حبة فوضعها في حجرها وقال لها هذه نحلتك وسلي حوائجك ؟ فأمسكت فقالت لها جدتها : كلمي سيدك فقد أمرك فسألته الرضى عن عمه ابراهيم بن المهدي فقال قد فعلت !

وأوقدوا في تلك الليلة شمعة من العنبر وزنها أربعون مناً (والمن مقدار رطلين) في ثور (أي في قاعدة من ذهب) حتى أنكر المأمون نفسه ذلك عليهم وقال : هذا سرف !!

وحين انتهى العرس أمر المأمون قبل منصرفه للحسن بن سهل بعشرة ملايين درهم وأقطعه منطقة فم الصلح فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه : وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة . وقالت الشعراء والخطباء في ذلك الاحتفال الكثير فأطنبوا كأنهم في خيال لا حقيقة وتزاحموا على الجوائز . ومما يستطرف أن أحدهم ويسمى محمد بن حازم الباهلي : قال

بـــارك الله للـحســــن ولـبــوران فــي الختـــن
يا ابـن هارون قد ظفـرت ولـكــن ببـنــت مـــن؟

فلما نُمي هذا الشعر إلى المأمون قال: والله ما ندري خيراً أراد أم شراً؟

ولم يتحقق حلم الحسن بن سهل فلم تحمل بوران من المأمون. وقد بقيت عنده حتى مات بعد قرابة عشر سنوات سنة ٢١٨ أما هي فقد دال بها العمر بعده حوالي ثلاث وخمسين سنة حتى توفيت سنة ٢٧١ ...

وتبخر قبل ذلك بكثير حلم أبيها بخليفة عربي فارسي يرث عرش بغداد وطارت مع الحلم الملايين التي أنفق!

إيــاس

جاءني صاحبي يقول : أتذكر قول أبي تمام :

إقدام عمرو في سماحـــة حاتم   في حلم أحنف في ذكاء إيـاس ؟

قلت أذكره . قال : أما عمرو فعرفناه هو عمرو بن معد يكرب اليماني الفارس المعروف وأما حاتم فليس أشهر من حاتم الطائي في الكرم وأما الأحنف فهو ابن قيس وقد جاءه مرة نعي ابنه فما حل حبوته (أي ما أزال يديه عن شد ركبتيه وهو جالس) . وأما إياس ... فمن إياس ؟ لقد سألت عدداً ممن أعرف . فلم يزيدوا على أن قالوا بعض أذكياء العرب قلت :

وإياه عني الحريري في المقامات في المقامة السابعة بقوله : « فإذا ألمعيتي ألمعيته ابن عباس وفراستي فراسة إياس » . وكان يضرب به المثل في الذكاء والفراسة . والحكايات عنه منثورة في كتب الأدب العامة كالبيان والتبيين وكتاب الحيوان للجاحظ والكامل للمبرد والعقد الفريد لابن عبد ربه وكتاب الأذكياء لابن الجوزي والمعارف لابن قتيبة ... وقال صاحبي حسبك حسبك . أعطني فكرة فقط وكفى الله المؤمنين . قلت : هو قاض من قضاة أواخر المائة الأولى للهجرة وأوائل المائة الثانية . واسمه أبو واثلة إياس بن معاوية بن قرة المزني من قبيلة مزينة . يذكرون عنه أنه كان اللسن البليغ والألمعي المصيب ويعدونه مثلاً في الفطنة وصدق الظن في الأمور ورأساً في أهل الفصاحة والرجاحة . وكان لجد أبيه صحبة مع رسول الله ﷺ .

وقد حُـمل على إياس الكثير من القصص لما اشتهر به من الذكاء كما

حملت قصص الكرم على حاتم الطائي . وهي إلا تكن صحيحة كلها فإن بعضها صحيح . ويذكرون أنه كان منفتح الذهن منذ الصغر قالوا : دخل الشام وهو غلام وتقدم خصمه وكان شيخاً إلى قاض لعبد الملك بن مروان فقال له القاضي : أتتقدم شيخاً كبيراً قال إياس الغلام : الحق أكبر منه قال اسكت قال فمن ينطق بحجتي ؟ قال : لا أظنك تقول حقاً حتى تقوم . قال : لا إله إلا الله . فقام القاضي ودخل على عبد الملك فخبره الخبر فقال : اقض حاجته وأخرجه عن الشام لا يفسد علينا الناس !

وقال إياس لأبيه وهو طفل وكان أبوه يؤثر أخاه عليه يا أبي تعلم ؟ ما مثلي ومثل أخي معك إلا كفرخ الحمام فأنا مثله أقبح ما يكون أصغر ما يكون . فكلما كبر ازداد ملاحة وحسناً فتبنى له العلالي وتتخذ له المربعات ويستحسنه الملوك . ومثل أخي مثل الجحش الصغير فأملح ما يكون أصغر ما يكون . وكلما كبر صار القهقهري إنما يصلح لحمل الزبل والتراب !

على أن إياساً حين كبر تشذب قوله وقويت فصاحته . وقد جعله عمر بن عبد العزيز قاضياً في البصرة فظل سنة في هذا العمل ثم هرب منه لخلاف كان بينه وبين بعض المتقاضين . وكان قبل ولاية القضاء ، قد أجبر على القضاء إجباراً وكانت الفقهاء تهرب من القضاء وتخاف منه . فأمر عمر بن عبد العزيز واليه في العراق عدي بن أرطأة أن يجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الحرشي ليولي قضاء البصرة أنفذهما . فجمع بينهما فقال له إياس أيها الأمير سل عني وعن القاسم فقيهي المصر الحسن البصري ومحمد بن سيرين . وكان القاسم يأتيهما زائراً وإياس لا يأتي . فانتبه القاسم أنه إن سألهما الوالي أشارا به . فقال له : لا تسأل عني ولا عنه فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه مني . وأعلم بالقضاء . فإن كنت كاذباً فما يحل لك أن توليني وأنا كاذب . وإن كنت صادقاً فينبغي لك أن تقبل قولي . فقال له إياس : إنك جئت

برجل أوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله وينجو مما يخاف فقال عدي : أما إذ فهمتها فأنت لها . واستقضاه ...

وروى عن إياس أنه قال : ما غلبني أحد قط سوى رجل واحد ذلك أني كنت في مجلس القضاء من البصرة فدخل على رجل شهد عندي أن البستان الفلاني وذكر حدوده هو ملك فلان . فقلت له : كم عدد شجره فسكت ثم قال : منذ كم يحكم سيدنا القاضي في هذا المجلس فقلت كذا فقال كم عدد الخشب في سقفه ، فقلت له : الحق معك وأجزت شهادته !

وذكروا من ذكاء إياس في القضاء أن رجلاً استودع عند رجل من أمناء إياس مالاً وخرج إلى الحج . فلما رجع طلبه منه فجحده وأنكر . فأتى إياساً فأخبره فقال له إياس : أَعَلِمَ بك أنك أتيت إلي؟ قال : لا قال فنازعته عند أحد ؟ قال : لا لم يعلم بهذا أحد . قال إياس : انصرف واكتم أمرك . ثم عد إلي بعد يومين . فمضى الرجل فدعا إياس أمينه ذلك وقال : قد اجتمع عندي مال كثير أريد أن أسلمه إليك . أفحصين منزلك؟ قال : نعم قال فأعد موضعاً للمال وقوماً يحملونه .. وعاد الرجل إلى إياس فقال له : انطلق إلى صاحبك فاطلب مالك فإن أعطاك فذاك وإن جحدك فقل له إني أخبر القاضي . فأتى الرجل صاحبه . فقال مالي وإلا أتيت القاضي وشكوت إليه وأخبرته بأمري . فدفع إليه ماله فرجع الرجل إلى إياس يخبره بأنه أخذ المال وجاء الأمين إلى إياس على وعده فانتهره وأقصاه وقال : لا تقربني يا خائن الأمانة بعد اليوم !

وفي خصومة أخرى جحد رجل مالاً استودعه عنده بعض القوم وقال : إني دفعت إليك المال الذي استودعته . فتخاصما إلى إياس فقال القاضي : ومن حضرك قال : دفعته إليه في مكان كذا وكذا ولم يحضر أحد . قال فأي شيء كان في ذلك الموضع قال : شجرة . فقال إياس للمستودع : انطلق إلى ذلك الموضع وانظر إلى الشجرة فلعل الله تعالى يوضح لك هناك ما يبين به

حقك تتذكر إن رأيت الشجرة. فمضى الرجل وقال إياس للمطلوب: اجلس حتى يرجع خصمك. فجلس وإياس يقضي بين الناس وينظر إليه ساعة. ثم قال: يا هذا. أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التي تذكر؟ قال: لا قال إياس يا عدو الله إنك لخائن. قال: أقلني أقالك الله. فأمر من يحتفظ به حتى رجع صاحب المال فقال له القاضي: قد أقر بحقك فخذه منه!

وقالوا: إن إياساً رأى في العام الذي توفى فيه مناماً كأنه مع أبيه على فرسين فجريا معاً فلم يسبق أحدهما الآخر. قال إياس: عاش أبي ستاً وسبعين سنة وأنا فيها ... فأصبح ميتاً!

أتممت حديثي وسكت فقال: صاحبي:

ألست ترى معي أن في بعض من نعرف اليوم من هو أكثر ذكاءً ألف مرة من إياس ...

قلت: فلو ردوا إلى عهده فهل كانوا على مثل ذلك الذكاء؟

أمير شعراء روسيا ... لم يعش أربعين سنة

كان لافتاً للنظر أن يشاهد في البلاط الروسي في أواخر القرن السابع عشر بين ذوي الوجوه الحمر والشعر الأشقر فتى يتحول كواحد من الحاشية أسمر . ولكنه أسمر ذو ملامح حبشية بشفتين كبيرتين وحدود بارزة وشعر أسود أجعد... وسرعان ما تناقلت الحاشية ثم الناس السر : إنه ابن أمير حبشي اصطاده القرصان من سواحل الحبشة وباعوه بالمزاد في استامبول فكان من نصيب السفير الروسي الذي أهداه إلى القيصر بطرس الأكبر ...

وأحب القيصر فتاة فتبناه وعمده وسماه ابراهيم بتروفيتش هانيبال . وأرسله في الثامنة عشرة إلى مدرسة سان سير بفرنسا فتخرج بعد ثماني سنوات قائداً في المدفعية . فلما عاد زوجه من ابنة وجيه روسي . وحين مات بطرس الأكبر عرف البغض خلال حكم أنا إيفا نوفنا فاختفى في بعض القرى حتى اعتلت العرش أختها إليزابيت بتروفنا فعاد إلى الرعاية والعطف ... وقد مات في الثانية والتسعين تاركاً أسرة من الأولاد . وتزوج أحد نبلاء روسيا بفتاة من أحفاده ولدت له فتى يحمل الملامح الحبشية هو أيضاً هو ألكسندر بوشكين ... قيض له أن يكون أمير شعراء روسيا على الإطلاق !

ولد في السنة الأخيرة من القرن الثامن عشر وحبا مع القرن التاسع عشر في عائلة نبيلة لا تعرف غير اللهو والإسراف فيه . وإقامة الحفلات الصاخبة . فما نال من عناية أمه وأبيه إلا القليل فهو متروك للمربين وللمربيات وكانوا حسب التقاليد الروسية يومذاك من الفرنسيين . فنشأ ألكسندر على إجادة

الفرنسية بجانب الروسية. وأولع بالقراءة فلا تراه إلا في المكتبة يقرأ وهو لما يزل في الثانية عشرة. ابتلع كل ما وصلت إليه يداه من الكتب لكنه في الوقت نفسه كان يحب حديث مربيته الروسية الفلاحة وما ترويه له من القصص الشعبي وتحفظه من الأغاني والأهازيج الروسية... وكان مجتمع موسكو هادئاً يومذاك. فالصخب كان قد انتقل مع القياصرة إلى بطرسبورغ في الشمال على البحر الفنلندي. وقد انتقل بوشكين وهو في الثانية عشرة إلى قرب بطرسبورغ فقد اختير مع ثلاثين طالباً ليكون في المعهد الذي أنشأه القيصر لتخريج أبناء الأسر الأرستقراطية وتهيئتهم لاستلام مناصب الدولة. مصيبة بوشكين لم تكن في أن مدة الدراسة في المعهد ست سنوات ولكن في أنه معهد داخلي لا يسمح للطلاب خلال هذه السنوات حتى بزيارة أهله! وسرعان ما وجد بوشكين نفسه في سجن تحشى في دماغه قشور المعلومات. وقد تعود من قبل الحياة الحرة وشدا الكثير من الأدب والخيال... وانفصل بروحه عن الدراسة والمدرسة. وكانت تقارير أساتذته أنه كسول جداً ومتكبر وعربيد... وإن كان ذكياً لكن كان بين أساتذته واحد كان يذكي فيه الآراء الحرة ومقت الاستبداد...

في فترة دراسته هذه غزا نابليون روسيا وهزم ثم سقطت باريس مرة بعد مرة ونفى نابليون إلى جزيرة القديسة هيلانة ولم يكن طلاب المدرسة الفتيان في معزل عن هذه الأحداث وأصدائها ولما كان نظم الشعر من جملة المقررات المدرسية فقد نشر بوشكين أول قصيدة له ولما يزل في الخامسة عشرة! ثم توالت منظوماته. وفي حفل التخرج قدم قصيدة إلى شيخ شعراء روسيا درغافين فبرقت عينا الشيخ من الفرح وقال هذا هو خلف درغافين!.

وتخرج بوشكين ليدخل في الجمعيات الأدبية والسياسية ذات الرأي الحر والسخط على الأوضاع الراهنة. ومنها حركة الديسمبريين! وجمعية

القنديل الأخضر . وعرف في أوساطها بأنه من أنصار الملكية الدستورية ويمقت كل استبداد حتى لو جاء من القيصر .

وتفتق على لسانه سيل الشعر . كان يكتبه كما يتنفس وتتناقله الأيدي نقلاً فمن ذا الذي يجرؤ على طبعه ؟ ومع أنه كان يهاجم أباطرة الرومان ونابليون إلا أن الجميع كانوا يعرفون من يعني ؟ ووضع أول رواية شعرية له فتخطفتها الأيدي واتسع جمهوره جداً وإن حنق عليه الرجعيون وعابوا عليه أنه جمع فيها الأقاصيص والأساطير الروسية القديمة ! وبلغ الأمر القيصر فإذا بالويلات تثور في وجهه . واستدعاه حاكم بطرسبورغ العسكري وهدده باسم القيصر بعدم نشر قصائد مخلة بالأمن ... ونفاه إلى جنوب روسيا !! كان يومها في الحادية والعشرين !!

والتقطه هناك جنرال في الجيش عرف بخبره وكان يعاني حمى الملاريا على سرير خشبي في زريبة فضمه إلى أسرته وذهب به إلى جبال القفقاس ... كانت تلك أسعد أيام حياتي . كذلك قال وقد كانت له هناك قصص ومغامرات شتى . لكن اهتماماته الأدبية ظلت هي التي تشغله . وكان يعتقد أنه بالشعر يستطيع تحرير الشعب الروسي ، هذه الكتلة الصماء من الفلاحين ! ولكنه أصيب بخيبة أمل حين أدرك أن الأمر أصعب بكثير مما تصور وأنه « زارع الحرية في الصحراء » .

ونقل بوشكين موظفاً لدى حاكم أوديسا الأرستقراطي المعتد بنبالته فاصطدم بوشكين النبيل بدوره بهذا الكونت المتغطرس لا سيما حين حسب أنه يغازل زوجته الحسناء . فأرسله لمكافحة الجراد !! وكتب يطلب نقله وصدر أمر القيصر بإخراجه من الخدمة ونفيه إلى إحدى القرى تحت إشراف الكنيسة ! على أن هذا التنقل والغضب والرضى لم يكن ليوقف ريشة الشاعر ولا سيل قصائده ... كان كالنبع الغزير يتدفق على الحصى والصخر والرمل ولقد

تعرف بوشكين إلى شاعر إنكلترا اللورد بيرون وتأثر به وقد أمر بالإقامة الجبرية في قريته الأولى تحت إشراف أبيه والقسيس معاً فلم يتغير أدبه ولا رأيه كان إذا لاحق القافية وصل معها حيث تصل . أما القرية التي نفي فيها فهي للزحافات الثلجية ورنين أجراس الكنيسة للصلاة . فماذا يصنع غير الشعر والمزيد من الشعر ! يتابع به رواياته وقصصه ومسرحياته .

واتفق أن مات القيصر سنة ١٨٢٥ وانتظر بوشكين من خلفه بعض الانفراج لكن الديسمبريين قاموا بالثورة فوراً وأخفقوا وحكم على عدد منهم بالإعدام وعلى آخرين بالنفي إلى ثلوج سيبيريا . فبعث رسالة إلى القيصر استقبله على إثرها . وأمر بنقله إلى موسكو وفي عزمه أن يروض هذا الشاعر الجامح . وكلفه كتابة بحث عن كيفية التقدم زاد من ثقة القيصر بجموحه لكن أعداء الشاعر اعتبروه قد باع نفسه للقيصر ورفض هذه التهمة ونشر قصيدة اعتبرتها السلطات كافية لنفيه إلى سيبيريا . لكنه لم ينف لأنه تقدم يخطب فتاة من أجمل فتيات الأرستقراطية الروسية . وقبلوا به بعد لأي . ولكن الصحافة ومن ورائها القيصر كانت تهاجمه بمرارة ... وتصادف أن انقطع في بلدته لعدة شهور بسبب الثلوج والوحول والطاعون فصرف وقته كله في المزيد من الإنتاج الخصب . صار الشعر مهنته !

وفوجىء بوشكين ذات يوم بمنحه لقب : ضابط البلاط وهو من أتفه الألقاب يمنحه القيصر لمن يسمح له بارتياد البلاط من الفتيان . وما كان قصد القيصر بوشكين ولكن زوجته الحسناء . وطلب الاستقالة من المنصب فرفض طلبه ...

واتفق أن قدم البلاط ضابط فرنسي شاب لمح السيدة بوشكين وعقد الصداقة معها . فراجت الشائعات حول علاقة الطرفين يؤججها الحساد والنقاد . وكان بوشكين يغار على زوجته جداً فلم يجد من سبيل سوى طلب هذا الضابط للبراز رغم انشغاله الكلي بمشاريعه الأدبية وبديونه وبأولاده الأربعة !

وقبل الضابط التحدي . وفي بقعة مثلجة خارج بطرسبورغ التقى الخصمان وسبق الضابط بالطلق الناري فوقع بوشكين مضرجاً بدمه ... كان فقط في التاسعة والثلاثين ! وبعد يومين كانت زحافته تسير بالجثة نحو الجنوب من ورائها أربعة أشباح وثلة من الدرك ... وصمت عميق عميق !

كان أمير شعراء روسيا هو الذي يشيع !

الظاهر بيبرس البندقداري

هل يمكن أن يجتمع في شخص واحد الشيطان والرحمن معاً ؟ صاحب هذا الاسم الرنان اجتمع فيه الشيطان والرحمن ! نصف حياته الأول كان فيه الشيطان الرجيم أما النصف الثاني فكان فيه بطل الإسلام والقائد الذي ندر مثله في التاريخ البشري ! صار أسطورة تحكى ونسجت في المخيلة الشعبية حول اسمه قصة طويلة جداً كانت تقرأ ثم تقرأ في ليالي المقاهي للشعب يتمتعون بسماعها ويتعلمون ما كان وما لم يكن من حديث الحروب والمؤامرات والشجاعة والحيل والفروسية ... وينتظر الناس القصاصين من الليل إلى الليل ليتموا لهم الحديث ...

أصل هذا الرجل من ترك القفجاق ، القاطنين وراء جبال القفقاس ، أسر أو تصيده النخاسون وجلبوه إلى الشام فيما جلبوا من هذه البضاعة الحرام . وباعوه في سوق العبيد في بلدة حماة بثمانمائة درهم . ولكن المشتري رده لأنه رأى في عينه بياضاً كما ترد البضاعة المعيبة . فاشتراه لبنيته المتينة ، بعض من كانوا من المماليك يتسوقون العبيد للملك الصالح نجم الدين الأيوبي . فصار مملوكاً له وأدخله في الجيش فقد كان اعتماد الجيوش الأيوبية والسلجوقية قبلها وكثير من الدول الأخرى في المشرق على هؤلاء العبيد المماليك يستخدمونهم أدوات حرب بعد أن يلقنوا مبادئ الإسلام وأساليب الجهاد .

في الجندية ظهرت طلائع شيطنته وشجاعته البارعة فترقى ثم ترقى . كان مقاتلاً ممتازاً بارع المخادعة والرمي بالسهام والضرب بالسيف ، فما مرت فترة

طويلة حتى صار قائد فرقته. وظهرت شجاعته وبلاؤه في القتال مع الحملة الصليبية التاسعة التي احتلت دمياط بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع الذي يدعونه في فرنسا بالقديس لويس. وقد انتهت المعركة بأسر هذا القديس وفشل الحملة كلها... ولمعان نجم بيبرس فيها. صار من وجوه القواد...

بهذه الصفة تدخل بيبرس في سياسة الدولة. فقد توفى الملك الصالح أثناء المعركة فاشترك بيبرس في المؤامرة على ابنه طوران شاه وكان بين من رموه في السهام وهو في النيل منتصراً في ذلك لمملوكة الملك الصالح: شجر الدر التي أوعزت بقتله. وتسلطنت شجر الدر بين دهشة الناس وعجبهم. وكتب الخليفة العباسي إلى مصر مستنكراً سلطنتها قائلاً: إن لم يكن عندكم رجل فأخبرونا لنرسل إليكم رجلاً. وتخبطت شجر الدر في أنوثتها لا تريد أن تترك السلطنة وأقنعوها أخيراً، أو لنقل اضطروها اضطراراً إلى أن تتزوج من مملوك قائد في الجيش هو عز الدين أيبك، نزلت له عن العرش على أن يكون شركة وبيبرس فيها أحد الشركاء! وكان فترة حكم هذه الشركة عهد رشوة وفساد وظلم حتى إن المقريزي قال عنه: إنه لو ملك الفرنج البلد ما زادوا على هذا الفساد!!

واختلف الشركاء حتى عرفت شجر الدر بخطبة زوجها أيبك لغيرها فتآمرت عليه وقتلته. فما كان من مماليكه إلا أن دبروا مقتلها بالقباقيب؟ ورموا جثتها في الخندق للكلاب! أين كان بيبرس من هذه التطورات. كان مع قادة المماليك يتآمر! واتفق رأيهم على توليه واحد منهم اسمه قطز... ولم يكن أحد ليحسده على هذه الولاية فقد كان المغول قد اخترقوا بلاد الشام من حلب إلى حمص إلى دمشق وبيت المقدس ووصلوا أبواب مصر عند غزة. وبعثوا يهددونها ويطلبون من قادتها الاستسلام! واضطربت البلد وخاف معظم المماليك وتلاوموا... لولا أن الشيوخ أثاروا النخوة فيهم وشددوا عليهم النكير وقام شيخ

دمشقي هو العز بن عبد السلام فأثار حماسة الناس وروح الإيمان ... وأخيرا خرج الجيش من مصر لا يريد أن يلقى المغول فيها لئلا تكون الكسرة عليه فلا يجد من مصر مفراً ... أما إذا خرج إلى فلسطين فإن مصر وراءه تسانده ...

بيبرس كان أحد القادة في هذه الحملة التي سحقت المغول لأول مرة في تاريخهم عند عين جالوت قرب بيسان وردتهم على أعقابهم خاسرين . في طريق العودة تآمر بيبرس ضد قطز وكاد له . ولكن مؤامرته فشلت فراح يطلب العفو من قطز ويسترحمه . وعفا عنه قطز وطلب منه العودة إلى مصر غير أن بيبرس أسرها في نفسه وما ترك قطز يصل بموكب النصر إلى مصر . قتله غدراً على الطريق ونصب نفسه بدلاً منه ودخل القاهرة ... منصوراً ودم قطز على كفيه !

هنا ينتهي الشيطان ليحل الرحمن محله في نفس بيبرس الذي لقب نفسه بالظاهر ... وبدأ عهداً في الحكم من أعظم العهود مجداً وحسن إدارة وطيب مآثر . انقلب بطلاً من نوادر ما عرف الإسلام من الأبطال المؤمنين . وجد نفسه على رأس دولة مسلمة مؤمنة فأراد أن يكون لها البطل القائد ... وكان ويبدو أن صنف المشاكل التي يواجهها . وما كان أكثرها وأعقدها . أو لها أن يرضى به قادة المماليك الباقون فقد نصب نفسه وكلهم مثله في الطمع بالحكم . فترك لهم أن يجتمعوا ويمدوا ألسنتهم حتى إذا استضعفوه وأعلنوا الثورة عليه أخذهم أخذ عزيز مقتدر متلبسين بالتآمر فسحقهم سحقاً . ثم جمع القادة الآخرين وأكرمهم ورتب لهم الأرزاق وحرم عليهم أن تمتد أيديهم إلى أرزاق الناس . في الوقت الذي أبطل فيه المكوس الزائدة ورفع المظالم وجعل الضرائب قانوناً معتدلاً وأصلح القضاء بجعله في أيدي أربعة قضاة للمذاهب الأربعة وبهذا أرضى الجميع . وأعاد فتح الجامع الأزهر للتدريس وعمل على فتح المدارس وأقام لها المدرسين والأوقاف الدارة . وأصلح الطرق والجسور والترع وحرم على الجند إتلاف الزرع أو نهب المحاصيل وأخذهم بالتدريب وترك الخمر والفحشاء ... تحت طائلة العقوبات الشديدة ...

وبعد أن استقر له الأمر ورضي به الجيش والناس عقد المعاهدات مع الدول المجاورة: بيزنطة، صقلية. سلاجقة الروم. المغول في العراق خشية أن يقوم أي تحالف يهدده. وصل إلى الذروة فيما يريد سوى شيء واحد هو: شرعية الحكم فمن أين ينالها؟ لقد هدم المغول تلك القبة الضخمة المقدسة في نظر الناس قبة الخلافة العباسية في بغداد ولم يعد هناك من مرجع شرعي فكيف يفعل؟ ولم تعوزه الحيلة. أتى ببعض أولاد الخلفاء الهاربين من بغداد فنصبه خليفة في مصر. وبدا كأنما الخلافة العباسية عادت ولكن في القاهرة بدل بغداد لكنه لم يعط هذا الخليفة المستجد أي سلطة. أبقاه رمزاً وسنداً للشرعية. نال منه شرعية السلطنة وتركه في قلعة القاهرة. إنه ما وصل السلطنة لكي يعطي عنانها لغيره.

رأى بيبرس في النهاية أن الناس لا يسلمون بشرعية حكمه إلا إذا قهر الفرنجة الصليبيين والمغول. وكان هؤلاء وأولئك العدوين الغولين. فأنشأ أسطولاً من أربعين سفينة حربية ولسوء الحظ احترق هذا الأسطول فأعاد بناءه من جديد وأرسله في البحر. وخرج إلى الفرنجي صاحب يافا فما هي إلا جولة حتى بدد قواه ودخل يافا منتصراً وأسرع يلقى صاحب طرابلس فطرده منها ومضى صعداً إلى أنطاكية في الشمال. وكان بيمند صاحبها كبير القوم وأقواهم فدحره ودخل عليه أنطاكية... كانت هذه الجولة الساحلية جولة سريعة جعلت اسم بيبرس على كل لسان. من كان يحلم بطرد الإمارات الثلاث في مدى أشهر من جميع الساحل الشامي؟ وتصدى له فرسان الأسبتارية، أعاجيب الحرب، فظل يحاربهم عشر سنين حتى ذلوا. وتحالف المغول مرة مع امبراطور القسطنطينية فلم يبال بالتحالف. وصنع مراكب نقلها على ظهور الجمال من بحيرة حمص إلى الفرات وحارب المتحالفين معاً حتى استكانا لسيفه...

يوم توفي بيبرس بعد ثماني عشر سنة من الحكم سنة ٦٧٦ لم تبق عين في مصر والشام لم تبك عليه كانوا يبكون البطل!

إليزابيت الأولى

الكثيرات يحملن اسم إليزابيت أما حين تقول إليزابيت الأولى فأنت تقصد بالذات الملكة من أسرة تيودور التي كانت من أبرز إن لم تكن أبرز من حكم بريطانيا عبر التاريخ وحكمتها في عصرها الذهبي يوم لم يكن ملوك بريطانيا مجرد حكام صوريين وكان بيدهم الحل والعقد. كانوا ملوكاً يحكمون في أواخر القرن السادس عشر.

بدأت إليزابيت حياتها بداية سيئة ولو أنها كانت ابنة الملك نفسه هنري الثامن. كانت ابنة زوجته الثانية آن بولين. وقد قطع رأس والدتها وهي في الثالثة من العمر بتهمة الخيانة. وأتبع البرلمان ذلك بإعلان أن إليزابيت ابنة غير شرعية! لأنهم لم يعتبروا طلاق هنري الثامن من زوجته الأولى شرعياً... وهكذا واجهت الدنيا مواجهة سوداء متجهمة. ومع أن البرلمان عاد عن قراره هذا وأعاد إليها حقها في وراثة العرش إن أتاها الدور فإنها كسبت من هذه التجربة التي أتتها وهي طفلة فتية سمة الكتمان والحذر. ثم توفى والدها وهي في الثالثة عشرة فزادها ذلك حذراً لا سيما حين تولى أخوها إدوار السادس. وكان حذر إليزابيت في محله فقد توفى إدوار وشيكاً. وورثته أخته ماري وكانا من مؤيدي الكاثوليكية وسيادة البابا فقبضت عليها الملكة وسجنتها خشية أن يلتف حولها البروتستانت الذين اضطهدوا كل الاضطهاد في عهد ماري وقتل منهم حوالي ٣٠٠ بروتستاني. وعداء المذاهب المتقاربة هو في العادة أشد وأقسى من عداء المذاهب المتباعدة بعضها لبعض. ثم ما لبثت ماري أن توفيت بدورها. وهكذا

خلال اثنتي عشرة سنة ذهب المرشحان للعرش قبل إليزابيت ووصل الدور في الملك إليها وعمرها خمس وعشرون سنة .

لقد استطاعت بتحفظها الشديد في جميع تصرفاتها وأقوالها وبتظاهرها باتباع الطقوس الكاثوليكية أن تحفظ رأسها فلا يقطع بل أمكنها أن تستعيد حريتها وأن تصبح صديقة لأختها غير الشقيقة الملكة بالرياء والمداهنة !

على أنها ما أن وصلت العرش حتى كشفت عن عقيدتها . وتبين أن وصولها كان نكسة للكاثوليكية . وكانت إنكلترا في ذلك الوقت في أسوأ حالاتها من الشقاق الديني المرير ومن الديون ومن الفشل الحربي ضد فرنسا وإن كانت من الناحية الثقافية والفكرية في أزهى عصورها . ففي ذلك الوقت عاش شكسبير وسبنسر وباكون وولتر رالي ...

توجهت إليزابيت إلى المشكلة الدينية فعالجتها بحزم وشدة . أعلنت أن الأنكليكانية هي العقيدة الرسمية لبريطانيا وقد أرضى ذلك البروتستانت المعتدلين وإن لم يرض المتطهرين (البورتيان) الذين رغبوا في إصلاح أكثر جذرية وشمولاً والذين هاجر الكثير منهم إلى أمريكا ، البلاد الجديدة في ذلك الوقت وكونوا مع غيرهم نواة الولايات المتحدة .

أما البابا والكاثوليك فكانوا ناقمين أشد النقمة لدرجة أن البابا أعلن حرمان إليزابيت وعزلها عن العرش ثم أهدر دمها ... نسي أن هذا السلاح الذي كان يشهره الباباوات في العصور السابقة أضحى سلاحاً مفلولاً وقد مضى عهد التبعية للبابوية وانقضى إلى غير رجعة ... وهكذا لم تبال إليزابيت حتى بإهدار دمها ولم تتراجع عن الأنكليكانية التي ما تزال هي العقيدة الرسمية لبريطانيا حتى اليوم لأنها كانت تعرف أن الأكثرية بجانب هذا المذهب في الوقت الذي اتخذت فيه تدابير صارمة ضد الكثلكة جواباً على تدخل البابا وقطعاً لنفوذه وسنت عدة قوانين أعادت الاستقرار والهدوء للبلاد . وكانت من

الذكاء والحذر بحيث حافظت على التوازن بينها وبين البرلمان. وكانت تحكم بواسطته أكثر مما تقاتل ضده.

في عهد إليزابيت هذه بدأت إنكلترا عهدها الاستعماري في أنحاء العالم فقد بنت أسطولاً قوياً تولاه عدد من المغامرين على البحار. وهكذا خاضوا به المحيطات يلتقطون النقاط الضعيفة على شواطئها ويقيمون مستعمرات ما تلبث أن تمتد لتكتسح بلاداً كاملة. واصطدمت في توسعها الاستعماري مع فرنسا فأضعفت مركزها الدولي لدرجة أن صارت فرنسا تلاحق إنكلترا في تصيد المستعمرات...

واتفق أن قامت ثورة في هولندا ضد اسبانيا التي تحكمها. وكان الهولنديون على البروتستانية فبذلت إليزابيت جهدها في معونة الهولنديين ضد اسبانيا الكاثوليكية. وأغضب ذلك الملك فيليب الاسباني الذي كانت امبراطوريته في ذلك الوقت لا تغيب عنها الشمس وتشمل أمريكا الجنوبية والوسطى كما تشمل الفيليبين وما بين ذلك وعرض عليها الزواج أملاً في ضم إنكلترا لأملاكه ولكن إليزابيت رفضته. ولجأ فيليب إلى القوة وبنى أسطولاً قوياً ضخماً سماه الآرمادا أي الذي لا يغلب. وساقه من لشبونه ليهاجم بريطانيا نفسها سنة ١٥٨٨ وكان يتكون من ١٣٠ سفينة عليها ٣٠ ألف رجل. تحت إمرة دوق سيدونيا.

ولكن البحارة الإنكليز كانوا أكثر كفاية من الملاحين الاسبان وكانت السفن البريطانية أفضل تسليحاً وقدرة على القتال. وكان على الأسطول الاسباني أن يذهب إلى هولندا ليحمل قطعة من الجيش من هناك فقابل في طريقه الأسطول الإنكليزي في بليموث بقيادة إيرل أوف توتنغهام وكان من قباطنة فرنسيس دريك وجون هوبكنز. واخترق الأرماد بحر المانش ومني بخسائر في مواقع عدة ولكنه هرب شمالاً بفضل الرياح المواتية لكن... لم يرجع إلى

اسبانيا إلا نصفه . وشتتت النصف الآخر قرب إيرلندا وقتل ملاحوه أو وقعوا أسرى لدى الإيرلنديين ! وكان من نتائج هذه الحملة أن تحطم النفوذ الاسباني البحري ، وبرزت قوة بريطانيا كأول دولة بحرية في أوروبا ... إنه الحظ !

وعقدت إليزابيت مع اسكوتلندا في الشمال معاهدة إدنبره التي قوت مركز اللوردات البروتستانت فيها ضد الكاثوليك وحين خلعت ماري ملكة اسكتلندة عن العرش وجدت لديها ملاذاً ... لكنها احتفظت بها سجينة ! وحين اكتشفت أن ثم مؤامرة لإعطاء ماري عرش إنكلترا لم تتردد في إرسالها إلى المقصلة بأعصاب باردة باردة !

ولم تتزوج إليزابيت ولم تسم ولي عهد لها . بقيت على العرش خمساً وأربعين سنة حتى بلغت السبعين من العمر وكانت تكره أن تسمي ولي العهد خوفاً من أن يقوم بحبك المؤامرات ضدها . ولم تكن تحب الزواج ولكنها لم تكن تكره الرجال بل كانت بالعكس تحب الحديث معهم وتتمتع بمرافقتهم ... وتحسن اختيار الأكفياء منهم وإليها تعزى منجزات العصر الذهبي الذي عرفته بريطانيا في عهدها ...

وحين حضرها الموت اختارت جيمس السادس ، ملك اسكتلندة خلفاً لها مما وحد عرشي البلدين وإن كان لهذا الاختيار مساوئه ... لكنها لم تعش لترى تلك المساوئ !

والإنكليز يذكرون إليزابيت كواحدة من عمد التاريخ الإنكليـزي . لا ينسون لها أنها وطدت الأنكليكانية وبدأت عهد الاستعمار البريطاني الذي امتد بعدها ثلاثة قرون ولا الازدهار الاقتصادي والبحري الذي رافقه ... هذا رأي الإنكليز .

ترى هل هو رأي البلاد المستعمرة التي قاست الويلات من الإنكليز ؟

يوليوس قيصر

حين حدثت الاضطرابات الأخيرة في روسيا واصطدم يالتسين بالبرلمان وأسكته طلعت الصحف بعناوين ضخمة عن قيصر روسيا الجديد. أي ملكها. والقيصر كلمة رومانية قديمة استخدمها امرؤ القيس في بيته المشهور:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا...

فمن أين أصلها؟ من أول من حملها؟

أتذكرون يوليوس قيصر؟ من لم يعرفه فليتذكر أن الرومان أخذوا اسميه فأطلقوا الأول يوليو على شهر أغسطس (الثامن) شهر ولادته وأخذوا الاسم الثاني لقباً لمن يسود روما فهو «قيصر»! ثم صارت الكلمة لقباً ملكياً ما يزال يعيش! لماذا كان ذلك؟ لأن يوليوس قيصر كان ظاهرة في التاريخ الروماني. كان عبقري سياسة وحكم.

يوم ولد ونشأ كانت روما في فترة من الفوضى والاضطراب لا يعلم بها إلا الله. ماعرفت هذه المدينة مثيلاً قبلها. ذلك أن الرومان في جشعهم التجاري الاستعماري ظلوا يحاربون قرطاجة، المستوطنة السورية على شاطىء تونس حتى دمروها. دافع عنها حتى النساء. قصوا شعورهن لتكون حبالاً للمراكب. ولكن الرومان وصل حقدهم عليها وعلى تجارتها لدرجة طاردوا قائد قرطاجة هانيبال حتى انتحر في جبال القفقاس. ودمروا المدينة كلها حرقاً

وهدماً حتى سووا بها الأرض. ولم يكتفوا بذلك بل أصدروا قراراً من مجلس الشيوخ بلعن أرضها ولعن من يبني عليها واستولوا على مستوطناتها كافة حول البحر الأبيض المتوسط. صار لروما إمبراطورية واسعة كان من نتائجها ثراء الرومان ثراءً ضخماً. ولكنه هذا الثراء أفسد بنية روما الاقتصادية والاجتماعية. وتسبب في طرد كثير من الفلاحين من قراهم وأراضيهم. ولما كان مجلس الشيوخ الروماني في الأصل مجلساً لمدينة صغيرة فقد أضحى عاجزاً بتكوينه ونظمه عن حكم امبراطورية كبيرة وساد الفساد السياسي معظم عالم البحر المتوسط...

يوليوس قيصر كان أول زعيم سياسي أعلن وألح على أن الحكومة في روما لم تعد تستحق الانقاذ فقد فات أوان إنقاذها. ولا بد من تغييرها من الجذور. من أين نبت هذا الرجل؟

ولد سنة ١٠٠ ق.م لأسرة أرستقراطية في روما وغامر في شبابه في الحياة السياسية والعسكرية حتى لمع اسمه. وخافه الكثيرون. وكان في الثانية والأربعين من العمر حين عين حاكماً لثلاث ولايات من أملاك الامبراطورية الرومانية وتحت إمرته جيش يعد عشرين ألف جندي. واستطاع يوليوس قيصر أن يستخدم هذه القوى خلال سبع سنوات لفتح بلاد الغال. وكانت هذه البلاد تعني فرنسا وبلجيكا وقسماً من سويسرا وبعض ألمانيا. كانت قبائل الغاليين أكثر عدداً من جيشه وأكثر وحشية. إلا أنه عرف بشجاعته ومرونته وأساليبه العسكرية كيف يسحق هذه القبائل ويخضعها ويضيف ممتلكاتها الشاسعة إلى أملاك الامبراطورية التي امتدت من حوض الرين إلى اسبانيا وشمال أفريقيا، بالإضافة إلى إيطاليا. وكتب كتاباً عن بلاد الغال ما يزال إلى اليوم يعتبر من الكتب الهامة والأدبية. ومن الكتب الكلاسيكية اللاتينية الشهيرة ولعله أكثر الكتب قراءة وإمتاعاً.

وأثارت انتصاراته الرعب في نفوس خصومه السياسيين. فأمره مجلس الشيوخ الروماني بأن يعود إلى روما وحده. وعرف يوليوس قيصر أنه إن عاد وحده فإنه مقتول لا محالة. ولذلك عاد يقود جيشه. ومع أنه كان ممنوعاً على الولاة تجاوز نهر الروبيكون شمالي روما فقد تجاوزه مما جعل مجلس الشيوخ يبعث الجيش لصده... وقامت الحرب بينه وبين المجلس أربع سنوات انتهت بانتصاره. ودخل روما قائداً ظافراً تصفق له الجماهير وتمشي العربات المزينة وراءه وتسيل الدروب بالجموع مهللة له. وحين دخل المجلس قوبل بالهتاف القوي وسرعان ما اتخذ الشيوخ قراراً بتعيينه دكتاتوراً مدى الحياة!

قضى يوليوس قيصر سبع سنوات حاكماً فرداً لروما. كان يعتقد أن الحكم المستبد المستنير الفعال هو ما تحتاجه الامبراطورية وقد حاول أن يمثله بنفسه. وقد احتقر مجلس الشيوخ فكان لا يقيم لمناقشاته وزناً ويقطع الأمور بنفسه. ولقد ذهب بجيشه يفتح البلقان. وحارب فكان تقريره لمجلس الشيوخ مؤلفاً من ثلاث كلمات: وصلت. حاربت! انتصرت!

ومع تمادي هذه التصرفات زاد خصومه السياسيون وزاد الحقد عليه في مجلس الشيوخ. وقد وضع برنامجاً إصلاحياً للامبراطورية بدأه بإعادة إسكان المحاربين القدماء وكانوا يشكلون مشكلة لروما. وعني بفقراء روما المدنيين وكانت المدينة قد امتلأت بهم وكانوا يعيشون على فتات موائد الانتخابات والتصفيق للمهرجين السياسيين فأقام لهم مناطق سكنية في مواضع متفرقة من الامبراطورية الرومانية. ووجد أن أكثرهم لا يتمتع بالجنسية الرومانية ففتح المجال لمجموعات عديدة منهم كي يصبحوا من الرومان. وعمل على إنشاء نظام للإدارة المحلية في المدن الرومانية وخطط برنامجاً لبناء وتوسيع هذه المدن لكنه فشل في إيجاد نظام دستوري يرضي الجميع لحكم الامبراطورية التي كان إنما يجمعها اسمه وقوته الشخصية... ذلك أنه كان يجمع إلى حنكته السياسية والحربية قوة روحية محببة إلى الشعوب ويمتلك عدة ألوان من المواهب فهو

خطيب وأديب وسياسي ناجح وقائد مظفر وعبقري حربي ...

ولم يطق مجلس الشيوخ احتمال وضعه على الهامش وهو الذي اعتاد أعضاؤه أن يحكموا في روما لا أن يبصموا على القرارات فحسب، وبدأت الألسن تنتقد وطفا الحقد على السطح وبدأت المؤامرات تطل برأسها، وتجمع الأنصار. حتى استطاعت أن تجتذب أقرب المقربين إليه وهو ابنه بالتبني بروتوس. وتقرر الفتك بيوليوس قيصر. كان الخلاص منه هو الحل الوحيد. وفي منتصف آذار / مارس / سنة ٤٤ ق. م. دخل الدكتاتور مجلس الشيوخ يحضر اجتماعه ففوجيء بالمدى ترتفع في وجهه، في ركن منه وكانت أول طعنة تلقاها من ربيبه فصاح:

ــ حتى أنت يا بروتوس!

واستسلم للمدى التي انهالت عليه فمزقته... وذهبت كلمته الأخيرة مثلاً!

هل كان بروتوس على حق؟ هل كان على خطأ؟ لم يكن الجواب مهماً. الهام أن الدكتاتور انتهى!

ابن الخطيب

في غرناطة آخرِ عروس من عرائس المدائن الأندلسية ، كان باب قصر الحمراء ينفتح كل يوم منذ سنة ٧٤٩ سنة الوباء الأعظم لتدخله عربة شاب تياه الشباب رائق الفتوة كثير المواهب وتضرب الأبواق والطبول بالتحية ويتهامس الحرس : جاء ابن الخطيب ! ويتحدثون أن ملك غرناطة أبا الحجاج قلده سره ولما يستكمل الشباب ويجتمع السن، معززاً بالقيـادة ورسوم الـوزارة وأنـه يستعمله في السفارة إلى الملوك ويستنيبه في دار ملكه إذا غاب . ويرمي إليه بخاتمه وسيفه ويأتمنه على صوان حضرته وبيت ماله وسجوف حرمه ومعقل امتناعه ... وبخاصة بعد أن جرف الوباء الأعظم الرجل الذي علمه العمل في ديوان الملك . ولم يتبدل مركز ابن الخطيب بعد مقتل أبي الحجاج في عيد الفطر سنة ٧٥٥ فقد بقي الحاجب رضوان أبو النعيم في رئاسة الوزارة وبقي ابن الخطيب رئيس الكتاب مع رتبة الوزارة في عهد الغني بالله . وأرسله هذا السلطان الجديد سفيراً إلى ملك المغرب على رأس وفد من رجالات الأندلس . وعاد من سفارته بأفضل ما يعود سفير نجاح مسعى وإجابة مطلب ... فأعطاه الغني بالله لقب ذي الوزارتين وزارة السيف ووزارة القلم ...

فمن هو هذا الرجل؟ هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني . استقر أسلافه في قرطبة وكان بيتهم بيت علم وجاه ويسمى بيت بني الوزير والخطيب لقب جده أما أبوه فخدم عدة سلاطين في غرناطة حيث استقر . فلما قتل الأب في بعض المعارك حل ابنه محله وكشف عن مؤهلات فيه

أبرزته علماً من أعلام الأدب والشعر والكتابة والدبلوماسية . وانفسحت له دنيا الآمال تصفق وهو يركض وراءها . بلغ مناه أو يكاد . وفجأة وقعت به النكبة من حيث لا يحتسب . بين يوم وليلة . وجد نفسه دون منصب . وقد هرب ملكه الغني بالله وتسلم الحكم شقيقه المعادي له ولحاشيته . وإذا بابن الخطيب مشبوه السلوك عند الملك الجديد ، مريب الولاء ! ثم مالبث أن عرف مقتل رئيس الوزراء رضوان وتبع ذلك مصادرة أموال ابن الخطيب ... « استؤصلت منه نعمة لم يكن مثلها في الأندلس من تبحر في الغلة وفراهة الحيوان والمضارب والأقمشة وكثرة العقار ورفعة الثياب . ووفور الكتب إلى الآنية والفرش والمواعين والزجاج والطيب والذخيرة والسائمة وأزواد الخيل . وتناهبت كل ذلك الأسواق ! وشمل ذلك خاصته والأقارب أيضاً ...

على أن الشدة لم تطل فقد استطاع الغني بالله الوصول إلى المغرب فرحب به سلطانها وبعث يشفع في ابن الخطيب . وقبلت شفاعته فلحق بسلطانه واستقبل معه في فاس استقبالاً جديراً بالملوك ... ولكنه وصل مفلساً . قال من قصيدة ، حضرها المؤرخ ابن خلدون :

وجوى الذي ربي جناحي وكره فها أنا ذا مالي جناح ولا وكر

وبكى سامعوه تأثراً . واختار ابن الخطيب مدينة سلا في المغرب مستقراً له ومنحه السلطان من العطايا والإقطاع الجم ما أعاد إليه الهناء والهدوء . وعاش رخي الحياة سنتين أنجز خلالهما عدداً من مؤلفاته ما بين منثور ومنظوم . وكانت هاتان السنتان قمة الخصب الفكري لابن الخطيب .

على أن سلطانه المخلوع الغني بالله كان يدبر للرجوع إلى ملكه ورجع فعلاً وأرسل إلى ابن الخطيب أن يعود إليه في غرناطة . فترك هذا الرجل هناءه وهدوءه وعاد . وما كان يستطيع أن يتخلف وكتاب السلطان الرقيق يصفه بأنه « الفقيه الوزير الجليل الصدر الأوحد المشير العالم العلم الكبير أمام البلغاء

وصدر الخطباء وعلم العلماء... » ورأى ابن الخطيب في ذلك رد اعتبار له. وعاد.

تصور ابن الخطيب أن فترة المحنة قد انتهت. ولكن المنغصات ختمته. قامت بينه وبين شيخ الغزاة معركة نفوذ حامية. وكان ابن الخطيب كثير الاعتداد بنفسه وبمواهبه لدرجة لا يطيق معها منافساً قوياً له. فبذل كل جهده حتى تخلص منه. ثم جاء ابن خلدون غرناطة ورحب به ابن الخطيب أولاً ثم ما لبث أن خشي منه على منصبه فما زال بالملك حتى أظهر الفتور لابن خلدون فانصرف. وخلا الجو لابن الخطيب تماماً سنوات... ولكنها مع ذلك لم تكن صافية فالألسنة بدأت تلوك الشائعات عنه وعن قصوره وعن ماله. ولعبت شفاه الحاسدين والغاضبين دورها ضده. والدهماء ليسوا شخصاً يعدمه فينتهي ولكنهم جموع وكثرة. فأراد تهدئة ألسنتهم بالعطايا ولبس النعال الخلقة وركب خامل المركب وتخفف من الزخرف والمظاهر وصرف فكره إلى بناء الزوايا والمدارس والترب وإلى رعاية الماشية ونشر الأمن وردم الثغور وتثمير الجباية وإنصاف المقاتلة ومقارعة الملوك المجاورة وإيثار المصلحة الدينية وإصلاح مواطن العامة والخاصة...

ولكن الألسنة رغم ذلك لم تنقطع ورضى الناس غاية لا تدرك. وساورته الرغبة في الاعتكاف وجال في خاطره السفر للحج كي يغيب عن الأعين ولكن حالته الصحية لم تسعفه. فقد كان مصاباً بالأرق المزمن وفشل الأطباء في علاجه. وساورته الرغبة في هجر الأندلس جميعاً وطلب من السلطان إعفاءه. ويظهر أن كل هذه الرغبات لم تكن جادة وكانت ترمي فقط إلى إسكات المتهمين له بالاستبداد وسوء السيرة والتسلط على الملك.

وحين تنامى الحقد والحسد على ابن الخطيب وكثرت السعايات عليه أحس برود الملك نحوه وتغيره عليه قرر الهرب وكان أعدى حاسديه الكاتب

الشاعر ابن زمرك وقاضي القضاة أبو الحسن النباهي. وفي أوائل سنة ٧٧٢، وكان قد بلغ الستين قرر الهرب إلى المغرب. وبحجة تفقد الثغور البحرية وصل جبل طارق وانتقل من هناك إلى سبتة وأرسل للملك كتاباً رقيقاً يعتذر عن هربه بهذا الشكل المفاجىء. لكن هذا الهرب بالذات أغضب السلطان الغرناطي وجعله يصدق جميع الشائعات عنه وبعث يطلبه من ملك المغرب ليحاكم... على ماذا؟ على أنه ملحد كافر وأن في كتبه ما يشي بهذا الإلحاد والكفر.. لكن ملك المغرب أصم أذنيه رغم الوفود التي جاءت تطلبه...

واتفق لسوء حظ ابن الخطيب أن جرى انقلاب في المغرب وتسلم الحكم جماعة من أعدائه وأصدقاء ملك غرناطة فاحتجز ابن الخطيب في بيته ثم سيق إلى السجن وأرسل ملك غرناطة وفداً يأتي به وناظرهم الرجل أمام ملك المغرب الجديد فلم يخرجوا منه بشيء يتهمه رغم أنه عزر وعذب أمام الملأ!

وفي الليل دخل عليه السجن جماعة خنقوه خنقاً. ودفن في الغد. ثم أخرجوه من القبر وأحرقوا جثته... قبل موته كتب الأبيات التالية:

بعدنا وإن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صموت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً ... وكنا نقوت وها نحن قوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ... وفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منكم به ... فقل يفرح اليوم من لا يموت

وغابت بذلك عبقرية من عبقريات الأندلس الأخيرة!

بيزارو

سنة ١٤٩٢ حين سقطت غرناطة بيد الاسبان كان ذلك حدثاً تاريخياً ضخماً لولا أنه تضاءل بسرعة وانطفأ بحدث تاريخي أضخم هو اكتشاف أرض جديدة وراء المحيط الأطلسي عرف الناس بعد سنوات معدودة أنها قارة جديدة وسرى الخبر في اسبانيا وأوروبا كلها سريان البرق . وسرعان ما صارت هذه الأرض الجديدة حلماً يدور بكل رأس ... الفقراء حلموا بالثروة ، الإقطاعيون فكروا بالتوسع . المغامرون وجدوا مجال المغامرة حتى الفلاحون التعساء فتحت لهم كوىً من الأمل . وسرت في اسبانيا خاصة موجة من الهوس المجنون ... لعبت به حتى الأخيلة والأساطير لعبها . فيما بعد صارت كلمة « بناء القصور في اسبانيا » جملة تستعمل للآمال التي تقوم على الغبار !

وتدفقت على السفن أعداد من الناس بين جنود تراكضوا ، ومغامرين باعوا بيوتهم ليسافروا ، وسوقة تطوعوا للعمل في السفن كي يصلوا ، وبحارة وصيادين وأشباه نبلاء وقسس وهاربين من زوجاتهم وأشقياء يبحثون عن الذهب ... كلهم كان يصب على مرافىء الأرض الجديدة وتدور عيناه في كل أفق بحثاً عن فريسة ! من هؤلاء كان المغامر الاسباني الأمي فرانسيسكو بيزارو . لم يكن في بلاده شيئاً مذكوراً وقد أتى مع السفن سنة ١٥٠٢ وعمره ٢٧ سنة بعد أن كان جندياً مهملاً ونزل في جزيرة هسبانيولا في البحر الكاريبي . وعاش سبع سنوات هناك عرف فيها الفقر والنهب وتطوع سنة ١٥١٥ في حملة جمعها ضابط اسباني قديم اسمه دي بلباو لاكتشاف المحيط الهادي ... وفشلت

الحملة في اكتشاف طريق بحري إليه .

وفي عام ١٥١٩ استقر في بنما ينتظر فرصته ... ظل ينتظرها ثلاث سنوات حتى التقى بأحد المستكشفين الاسبان الذي حدثه عن وجود مملكة غنية بالذهب في الجنوب . بعيداً في الجنوب هي مملكة بيرو وشعبها هو شعب الإنكا المسالم . وسال لعاب بيزارو لهذا الخبر . وأخذ يسعى . تدبر سفينتين وعدداً من عدة عشرات من المتطوعة والمرتزقة . أغراهم بأخبار ما سوف يغنمون وأبحر بهم نحو الجنوب ... وطال عليهم الطريق وشغب الملاحون وقلت الأزواد في السفينتين فاضطر للعودة فاشلاً دون أن يصل إلى حدود تلك المملكة ...

ولكن حلم بيرو ظل مسيطراً عليه فقام بحملة ثانية أخذ لها عدتها وحمل على السفن بعض الفرسان بالدروع السابغة والمغافر والحديد يغطي الخيل . ونزل في سواحل بيرو بحملته وبدأ تسلق الهضاب الصعبة والوديان التي يهرب فيها الصدى . والصخور تزلق عليها الخيل . وقد شكا بعض الجند الصعاب وكادوا يتمردون فقتل بعضهم وألزم الباقي بالسير بعد أن زين لهم الغنائم المنتظرة : واستطاع بيزارو أن يعرف الأرض عن قرب وأن يأخذ بعض الذهب المبذول هناك وبعض الهنود الحمر (البيروانيين) ولم ينس أن يحمل معه عدداً من حيوان اللاما الذي يستعمله الناس للركوب هناك وهو أشبه بالجمال الصغيرة ولكن دون سنام . سلب كل ذلك سلباً وعاد بهم إلى اسبانيا ...

لم يكن الملك شارلكان ، ملك اسبانيا سنة ١٥٢٨ قد رأى مثل هذه الهدايا الغريبة فاستطاع بيزاور أن يغريه بها . فأعطاه الملك في السنة التالية السلطة والأذن بفتح بيرو وضمها لاسبانيا وزوده بالأموال لتجهيز تلك الحملة . ورجع المغامر إلى بنما يجمع الرجال ويجهز السفن والفرسان وأبحر سنة ١٥٣١ إلى بيرو . وماذا جمع ؟ جمع حوالي ٢٠٠ رجل فيما كانت البيرو التي ينوي فتحها تتألف من ستة ملايين نسمة من شعب الإنكا . ولها حضارة ضخمة قديمة وكتابة وأبنية ومدن وصناعة حسنة وإن كان معظم سكانها

فلاحين يحرثون المرتفعات ويفتحون لها القنوات من آلاف الكيلومترات لجر المياه ... ويتغذون بالذرة .

وصل بيزارو إلى بيرو في السنة التالية بعد أن هرب من رجاله نيف وعشرون من المجندين . وكان معه ٦٢ حصاناً . وزحف على سفوح جبال الآندس باتجاه مدينة كاخاماركا فقد عرف أن مقر الملك أتاهوالبا هناك . وله من الحرس والجند ما يزيد على أربعين ألف مقاتل عدتهم السكاكين الضخمة ولكنهم لا يعرفون الأسلحة النارية ولا رأوا في حياتهم فرساناً على الخيل . وحين رأوا لأول مرة الفرسان الاسبان بالحديد السابغ حسبوا الفارس والفرس قطعة واحدة . لم يعرفوا أنهما متمايزان إلا بعد فترة ...

ظل بيزارو وجماعته يزحفون على الصخور والمرتفعات وفي أعماق الأودية ومجاري الأنهر شهراً وبعض الشهر . وتلقاهم الناس مسالمين متعجبين من هذا الجمع الغريب . ووصل الخبر بمجيئهم إلى الملك في كاخاماركا فلم يتصور أن هذه الجماعة جاءت تسلبه عرشه وأمواله وأهل بلده . وحين طلب بيزارو من الملك أن يقابله شخصياً دون سلاح ومعه جماعة من جنده غير المسلحين تزيد على خمسة آلاف قبل الملك ذلك وجاء بعربته وموكبه وملابسه الزاهية ... فما التقى به بيزارو حتى كان جنده قد طوقوا الساحة التي اجتمعا فيها وبدأوا إطلاق النار على جنوده العزل في مذبحة استمرت نصف ساعة كانت الآلاف فيها قد أصبحت أشلاء وجثثاً تتضور ودماء تسيل . والملك أتاهوالبا مبهوت للمفاجأة المأسوية لا يكاد يعي ما جرى .

أوصاهم بيزارو ألا يطلقوا النار على الملك فسلم . ولكنه أسر وسجنه بيزارو في غرفة طلب من الأهلين ملأها بالذهب ليفرج عنه . أما جيشه الجرار فقد شل عن العمل فالملك عندهم نصف إله وما لم يصدر الأمر بالقتال فإنهم لا يقاتلون والملك أسير !

وأخذت العربات تغدو وتجيء بسبائك الذهب لتملأ الحجرة ولكن

جهود البيرونيين ذهبت أدراج الرياح لأن بيزارو أخذ الفدية ولم يُفرج عن الملك ! اتخذه ألعوبة . وأقام كنيسة كرس فيها الفتح الاسباني للبيرو . . .

وتمردت عليه عدة مناطق منها ولكنه تغلب عليها بسهولة في معارك غير متكافئة ما بين أسلحته النارية والسكاكين والنشاب أبيد فيها ما يزيد على نصف مليون من أهل البيرو . . . وبعيداً جداً احتفل شارلكان في اسبانيا بضم بلاد جديدة إلى مملكة التي لا تغيب عنها الشمس ولكن بأي ثمن يا ترى ؟

كورتيز

في تاريخ اسبانيا ثلاث لطخ سود يسجلها الاسبان نصراً وفخراً وهي انتصار للهمجية على المدنية، وللتخلف على الحضارة، وللخداع والمكر على العقل والخلق المستقيم. لقد دمرت ثلاث حضارات إنسانية بدم بارد لمجرد أن هذه الحضارات لا تدين بما تدين به. وكان القسس الاسبان هم الذين يمشون في مقدمة جيوشها ويحملونها الصليب. ويكرزون للناس أنهم إنما يحاربون بشراً من الكفار الهراطقة لا روح لهم ولا قيمة عند الرب. والغريب أنها جاءت متلاحقة ما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر:

الأولى: محو حضارة الأندلس وإبادة أربعة ملايين مسلم فيها هم من وجهة نظر الكنيسة كفار لا خلاص لأرواحهم إلا بالقتل!

الثانية: إبادة حضارة الإنكا في الأرض الجديدة (أمريكا الجنوبية) بالمكر والخداع والرصاص والنهب فنحن نبحث اليوم عن بقايا هذه الحضارة في مدرجاتها ومعابدها وتماثيلها وأخبارها فلا نكاد نجد إلا القليل.

الثالثة: تدمير حضارة الأزتيك في المكسيك بأمريكا الشمالية والوسطى. دمروها بالمدافع وبالجدري والزهري فبقاياها اليوم شواهد على الهمجية والعدوان وفتك الإنسان بأخيه الإنسان. ولكل لطخة من هذه اللطخ السود «بطل» بارز أعمى التعصب بصيرته وأعماها الذهب أيضاً. فالأندلس كانت ضحية إيزابيلا الملكة الحقود وكاردينالها سيسنيروس. وبلاد البيرو كانت ضحية المجرم الأمي بيسارو وأما المكسيك فمدمرها هو هرناندو كورتيز.

ومن كورتيز هذا؟

هو ابن نبيل اسباني مغمور من مدينة مدبين. كان في السابعة من العمر يوم كشفت أمريكا سنة ١٤٩٢ وفي شبابه درس القانون في جامعة سلمنكا. ولم يتم التاسعة عشرة حتى كانت إغراءات العالم الجديد وثرواته وذهبه تجرفه فيمن تجرف على الأشرعة الغربية. كان نوعاً من المغامرة المضمونة أن يرحل المغامرون الشباب إلى الأرض الجديدة. فموعدهم هناك مع الغرائب والعجائب من الطير والبشر والشجر ومن الذهب أيضاً. وفي تلك الأرض متسع يبتلع اسبانيا مرات ومرات. وكان كورتيز من هذا الشباب الباحث عن الثروة والحظ. في العالم الجديد. وصل جزيرة هسبانيولا سنة ١٥٠٤ ولم يجد الثروة والحظ اللذين ينتظر فاشتغل مزارعاً ودون جوان محلي سبع سنوات. وتطوع سنة ١٥١١ في الجيش الاسباني الذي فتح جزيرة كوبا. وبدأ الحظ يبتسم له حين تزوج من أخت زوجة حاكم كوبا. صار عديل الحاكم. وهكذا عين محافظاً على بلدة سانتياغو ... وأضحى من الطبقة ذات النفوذ والطموح وعبر عن طموحه باستقلالية قراره وبمحاولاته الانفراد بالحكم.

وفي سنة ١٥١٨ قرر حاكم كوبا إرسال حملة إلى بلاد المكسيك لاستكشافها فقد سمعوا عنها وعن شعب الأزتيك الكثير فاختار كورتيز لقيادة الحملة ليتخلص منه... ثم خشي الحاكم طموح الرجل ونزعاته الاستقلالية فأصدر أمراً بإلغاء ذلك التعيين. ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان فإن كورتيز كان قد أبحر ... والواقع أنه تلقى أمر الإلغاء فأخفاه ورشا حامل الرسالة فعاد إلى الحاكم يبلغه أنه أبحر بالحملة! وما الحملة؟

كانت حملة هزيلة قوامها ٥٥٣ جندياً بينهم ١٣ فقط يحملون بنادق يدوية و ٣٢ جندياً معهم الأقواس والنشاب و ١١٠ من البحارة على أحد عشرة سفينة. وكان معهم عشر مدافع ثقيلة و ٤ مدافع خفيفة و ١٦ حصاناً ... لم

يكن الاسبان يقدرون مدى المساحات التي يكتسحون ولا أعداد القبائل والسكان الذين يواجهون. كان اعتمادهم على الأسلحة النارية وعلى دوي المدافع لإرهاب السكان الأصليين وهذا هو السبب في كثرة المدافع حتى لقد كان عددها أكثر من عدد البنادق!

وصلت الحملة إلى ساحل المكسيك في الموقع الذي بنيت عليه فيما بعد مدينة فيراكروزا يوم الجمعة الحزينة قبل عيد الفصح. وأقبل كورتيز ورجاله يجمعون المعلومات مدة طويلة. وكان بين ما علمه الرجل أن مملكة الأزتيك تقوم في الداخل في أعماق البلاد وأنها تحكم مناطق شاسعة جداً وأن القبائل التي حولها كثيراً ما تتمرد عليها. ولكن قوة الأزتيك تخمدها لذلك فالأزتيك مكروهون من هذه القبائل. على أنهم أغنياء ولديهم مخزون عظيم من المعادن الثمينة. وعاصمتهم تقع في قلب بحيرة لا يوصل إليها إلا بجسر محروس في الليل والنهار. وكهنتهم أسياد المنطقة وضحاياهم من البشر الفتيان يحسبونها على الفلك ويقدمون قلوبها قرباناً لإله الشمس...

وتسامع جند كورتيز بهذه الأخبار وأمثالها وبدأ الرعب يدب فيهم. فالشقة بعيدة وهم قلائل ولا يعرفون مدى القوى التي هم قادمون على حربها. وحاول بعضهم الهرب على بعض السفن. فسجن وعذب. وعرف كورتيز بهذه المخاوف فلم يجد سوى أن يقطع آمال الجند بالعودة. وفعل ما يذكرون أن طارق ابن زياد فعله حين فتح الأندلس. أحرق المراكب التي أتوا عليها. وهكذا كان الخيار الوحيد الذي تركه لهم هو أن يتبعوه في مغامرته المجهولة. وأن يقاتلوا من يقاتلهم من رجال القبائل الهندية!

اتخذ بعض الأدلاء واجتاز بحملته الغابات وحوافي الجبال والأدغال الملأى بالحشرات وخاض الأودية المنسابة كالأفاعي بين الصخور. وفجأة وهم في منتصف الطريق هطلت عليهم السهام كزخات المطر واضطروا لاستعمال

الرصاص والمدافع لينفسح لهم الطريق فقد كانت إحدى القبائل هي التي تتصدى لهم. واستطاع كورتيز أن يتفاهم مع رئيسها بواسطة بعض الأدلاء بأنه إنما يقصد عاصمة الأزتيك واستفاد من بغض هذه القبيلة فحملها على أن تنضم إلى حملته وتابع زحفه.

علم ملك الأزتيك مونتيزوما الثاني بمسيرة الحملة لتدمير مملكته فنصب الكمائن على الممرات الضيقة وأعناق الأودية. وما عرف أن كورتيز استخدم السكان المحليين في إخباره بذلك. وفشلت خطة الهجوم السريع التي أعدها مونتيزوما لهزيمة جيش كورتيز بل أن هذا الجيش الصغير هو الذي فاجأ الجيش الهندي بمدافعه تدوى وبالرصاص. فمزقه هرباً وقتلاً.

وأطل كورتيز حين أطل على العاصمة على منظر رائع. قصر ضخم وسط بحيرة رائعة يصلها بالبر جسر وقوارب تغدو وتروح على الماء ومن حول ذلك بيوت مبنية كأحسن البنيان. ودخل كورتيز العاصمة دون قتال وعيون الهنود ترمقه من كل جانب وبين الشجر حمراء كالدم. واستقدم إليه الملك مونتيزوما وأسره ونهب الذهب الذي فرضه على المهزومين ونزعه عن أبوابهم...

في هذا الوقت علم كورتيز بأن حملة اسبانية لحقت به ونزلت على ساحل المكسيك لاعتقاله فعاد لمقابلتها وهزمها... لكنه بعد ذلك قضى بقية حياته في اسبانيا مهملاً... كما كان قبل سفره! على أن الذي دمره من حضارة المكسيك لم يكن ليعوض أبداً...

لافوازيه

إذا كان في الناس كثيرون ممن ولدوا وفي أفواههم ملعقة من ذهب فإن لافوازيه واحد من هؤلاء. لكن الكثيرين ممن ولدوا بملاعق الذهب لا يماثلون هذا الرجل في الذكاء والعلم ودقة الملاحظة وكثرة المبتكرات والكشوف. قضى حياته وكأن كشوف العلم طوع يديه يخرج منها كل يوم مدهشاً وجديداً ...

والرجل فرنسي ولد سنة ١٧٤٣ أي قبل ٢٥٢ سنة. قتل قبل مائتي سنة ونيف. وخلال نصف القرن الذي قضاه في الحياة أتى بالخوارق في العلم (في الكيمياء والفيزياء بخاصة) وشارك في الحياة العامة وكان من رجال المال ومن رجال السياسة. كان ممن أسهموا في صناعة التاريخ. وهدم نظريات علمية ظلت البشرية تقول بها ألفي سنة. ولقي من الإيذاء والاتهام أشد الأذى لأنه كان كثير الحساد. ومع أنه كان من أنصار حرية الفكر فقد قتل في النهاية باسم حرية الفكر!.. لأنه وجد بالمصادفة بين عهدين يتطاحنان وطبقتين تمسك إحداهما بخناق الأخرى. أيام الثورة الفرنسية.

توفيت أمه وهو ابن ثلاث سنوات فتطوعت خالته لرعايته مع أخته التي ما لبثت أن ماتت. فنشأ لافوازيه وحيداً وظهر تميزه بنوال عدة جوائز مدرسية. فلما دخل كلية مازران المشهورة بالدراسة العلمية انكب فيها على الدراسة حتى هزل جسمه وحتى كتب له أحد أصدقائه «اعلم أن عاماً واحداً من الحياة أفضل من مائة عام من الذكرى»! درس في الكلية الرياضيات والفلك وعلم الحيوان والجيولوجيا والكيمياء... وتأثر بأساتذته. وكانت أولى تجاربه عن

الضغط الجوي وصنع البارومترات. ثم أتاح له أستاذه الجيولوجي جولة جيولوجية في فرنسا قضى فيها ثلاث سنوات فانصبت تجاربه بعد ذلك على الجبس وأقامت كلية العلوم مسابقة لتنوير باريس فاشتغل بالموازنة من أجلها بين أنواع الشموع وزيوت المصابيح والضوء وانعكاساته والفتائل وأنواعها ونجح في المسابقة ونال الجائزة.

كانت المصادفات تقوده من بحث إلى بحث. وهكذا درس كثافة مياه نهر السين ونهر الرين ووازنها بالمياه المعدنية ثم بحث. في الصخور واشترى نحو ٥٠٠ كتاب من هذه المادة. وتنقل من رحلات كثيرة يجمع الصخور ويتعرض معها لهجمات اللصوص ومباغتات الحيوان وهو على متون الخيل بين موقع وآخر. وكان البارود تحت إشراف الحكومة في الإنتاج وتنتج منه الشركات حوالي مليون رطل في السنة فاتجه لافوازيه إلى البارود ودخل هذا المجال وظل يعمل فيه خمساً وعشرين سنة دون أن يترك الأبحاث العلمية الأخرى كالتنفس وتركيب الماء والاحتراق والتكلس.. وغيرها...

وبدأت سمعته تذيع وصار معمله الذي أقامه في بيته مجمع العلماء. من الفرنسيين والأجانب وفي سنة ١٧٦٨ وكان بعد في الخامسة والعشرين ارتبط بأكاديمية العلوم التي دفعته في الاتجاه العلمي وبشركة تحصيل الضرائب التي أعانته على التبريز في شؤون المال وفتحت أمامه ميدان الاقتصاد. وفي تلك السنة نفسها خلا مكان في لجنة الكيميائيين وكان منافس لافوازيه عالماً من أكبر وأشهر العلماء لكن لافوازيه فاز بها فكان انتخابه حدثاً اجتماعياً علمياً هاماً وكان حديث الناس.

وانصرف لافوازيه علمياً بعد ذلك يبحث مشكلة الاحتراق: كان الناس منذ ألفي سنة يؤمنون بنظرية العناصر الأربعة التي يتكون منها الكون وهي الماء والهواء والنار والتراب ويزعمون إلى هذا أن الاحتراق إنما يكون بخروج شيء

عجيب من المادة المحترقة سموه الفلوجستن . فالمعادن تمتص كمية كبيرة منه فإذا سخنت فقدتـه وتحولت إلى مادة ترابية . والخشب إذا فقده نقص وزنه كثيراً وتحول إلى معدن . ويزعمون أن الكلس أي الأكاسيد إذا سخـنت امتصت الفلوجستن فينقص وزنها . لكن تجارب لافوازيـه أوصلتـه إلى أن الاحتراق هو اتحاد مادة بأخرى . وبدأ يهد صرح نظرية الفلوجستن . وبدأ العلماء بين مصدق ومكذب . كانوا يقولون وكان هو يعمل . وأعلـن أن الأوكسيجين هو ذلك الجسم الذي يحرق باتحاده مع العناصر . وكتب أن الكيميائيين جعلوا من الفلوجستن عنصراً غامضاً ثقيلاً مرة وخفيفاً مرة يدخل مسام الأوعية مرة ولا يدخلها أخرى . ويكون شفافاً مرة ومرة قاتماً ... وهذا كله هراء ! » .

وكشف لافوازيه بعد ذلك تكون الماء من اتحاد ذرة من الأوكسجين مع ذرتين من الهيدروجين . وركبه منهما ثم حلله فما اختلفت النتائج . وقال بأن لا فناء للمادة ولكنها تتحول ... ومن ظريف ما يذكر أن لافوازيه جمع أصدقاءه في حفل خاص في باريس وقامت زوجته بدور القسيس وأخذت كتاب العالم الألماني شتال صاحب نظرية الفلوجستن وألقت به في النار وسط سكون رهيب يتخلله نغمات الموسيقى الجنائزية . لقد مات الفلوجستن ! وتسامع الألمان بهذا فاستشاطوا غضباً وصنعوا للافوازيه تمثالاً من الخشب قدموه طعم للنار ... لماذا ؟ لأنه أفسد العلم !

أنفق لافوازيه الكثير من ماله في تجاربه العلمية وكانت زوجته مساعده العلمي وأثبت بعد ذلك أن الماس والفحم صورتان مختلفتان لمادة واحدة . وكان يقدم لأكاديمية العلوم ثمانية أبحاث مبتكرة كل سنة على مدى عشرين سنة أو تزيد . وخلال ذلك أنشأ مزرعة نموذجية لفلاحيه كلفته ٢٣٠ ألف جنيه وعين نائباً عن بلده فغامر في السياسة واقترح إقامة سور لباريس لمنع التهريب ... إلى أن قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ !

كان لافوازيه ما يزال عضواً في أكاديمية العلوم وعضواً في لجنة البارود ونائباً مرموقاً وصاحب مشاريع علمية بارزة وسمعة تملأ أوروبا في العلم. ولكن الثورة تطورت ثم تطورت بعد اقتحام الشعب لسجن الباستيل. ثم ازداد تطورها بعد محاولة الملك الهرب من البلاد. وانتشرت الفوضى وعم الاضطراب واتفق أن قبض الحرس على مركب فيه بارود يخرج من باريس فأعادوه. وبالرغم من أن لافوازيه أوضح شرعية العمل وقانونيته إلا أنه ابتلي بعدو أضحى من زعماء الثورة اسمه (مارا) شنع عليه أبشع التشنيع. وشغل لافوازيه عن أعماله العلمية بالدفاع عن نفسه وعن الأكاديمية وعن لجنة البارود وانتدبوه لوضع نظام جديد للمقاييس فلبى ووضع النظام المتري المعروف. ولم يكن يتقاضى على أعماله شيئاً فقد كان له من ماله الكفاية وحاول الملك تسميته وزيراً فرفض بأدب... لكن السعايات ما لبثت أن تناولته... وبدأت الثورة تأكل كالقطط أولادها. وقتل حوالي أربعة آلاف من زعمائها أثناء حكم الإرهاب. وتناول السجن لافوازيه نفسه. وكان الرجل مطمئناً فليس لديهم شيء ضده. لقد كان موالياً للديمقراطية والحرية والثورة. ولكن من ذا الذي يسمع أو يحقق. وسيق إلى المحكمة الثورية وحاول محامي الدفاع أن يشرح للقضاة قيمة لافوازيه العلمية وشهرته وهو واثق من البراءة لكن أحداً من القضاة لم يقرأ ولم يسمع. وأخيراً صرخ فيه رئيس المحكمة غاضباً. إن الجمهورية ليست بحاجة إلى العلماء ويجب أن تأخذ « العدالة » مجراها. هل عندك شيء آخر؟ ولم يكن عنده ما يقوله. وأدرج اسم لافوازيه مع ٢٤ اسماً آخر للسوق إلى المقصلة.

بعد أربع وعشرين ساعة كان رأسه يشخب دماً وقد انفصل عن جسده!

وانتهى العالم كما ينتهي المجرمون! إنها الثورة!

فاراداي من موزع صحف إلى عالم كبير

يلمس الطفل منا بيده الزر الكهربائي لمساً فإذا بالظلمة تتبدد والضوء يسطع وما كان من عتمة كالغابة الزنجية قد عاد غرفة أو مدرجاً أو حديقة وارفة ترقص فيها الظلال. ترى هل يفكر أحد كم عالماً أضاع عمره ومزق جبينه وهو يفكر كيف يجعل هذه «الكهرباء» أكثر سهولة وأيسر تناولاً للإنسان... أديسون ليس مخترع الكهرباء ولكنه اخترع المصباح الكهربائي. الكهرباء عرفت قبله وتعاور على معاناتها عديدون فاراداي، وات، أوم... ونحن نتنفس من غير كدٍّ الأفكار التي ماتت من أجلها النفوس العظيمة!..

خذ قصة فاراداي. هل يذكر أحد هذا الاسم؟ لعله يمر في بعض محاضرات طلاب الكهرباء ثم يغيب. مع أن له في كهربائنا اليد الطولى والأولى. حين ولد كان مولده مثار موجة من الحزن والشقاء واليأس شملت أسرته كلها. ففي ذلك الوقت سنة ١٧٩١ من أواخر القرن الثامن عشر وفي لندن لم تكن حرفة الحدادة التي يكد أبوه طول يومه فيها تدر عليه ما يكفي للعيش مع توقف الأحوال وقيام الثورة الفرنسية في أوروبا... واضطر الأب الحداد أن يترك مسكنه المتواضع لعجزه عن دفع أجره الزهيد ليذهب للاستقرار في حظيرة مهجورة بجانب أحد الأسطبلات!

وكثيراً ما تعرضت الأسرة للمصائب في أولادها الكثيرين. بعضهم كان يموت من البرد القارس فليس لديهم ما يدفعون به افتراسه. وكثيراً ما تعرضوا للموت جوعاً لعودة الوالد خالي الوفاض أو برغيف واحد من الخبز اليابس

الرخيص يتقاسمه أفراد الأسرة إن لم يناموا أحياناً على الطوى .

وبلغ فاراداي السادسة من العمر وكان في الحي مدرسة خيرية مجانية تعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب فأرسله أبوه إليها . وأظهر فاراداي الكثير من التفوق على أقرانه . ولكن أباه اضطر أن يخرجه منها . يكفيه هذا القدر من المعرفة ويجب أن يعمل لكسب شيء للعائلة يعين الأب في كفاحه مع إخوته . طرق فاراداي الصبي كثيراً من الأبواب وأغلقت في وجهه . فيم يعمل صبي في الثامنة من العمر ؟ وأخيراً وجد عملاً . استخدمه بائع للصحف والكتب في لندن لتوزيع مطبوعاته . فكان فاراداي ينهض مع الفجر ليحمل على كتفه الواهن رزمة مرهقة من الصحف والكتب يمضي بها من شارع إلى شارع وسط الضباب وعضة البرد لا يكاد يتبين طريقه ليضع أمام أحد المساكن صحيفة أو يترك بباب مسكن آخر كتاباً ... مشواره اليومي كان يحتمل ساعتين في الذهاب ليعود فيجمع ما وزعه صحيفة وكتاباً كتاباً ويحصل الآجر المقرر للقراءة وهو بنس واحد عن كل نسخة ! ويعود مرة ثانية بحمله إلى صاحب الصحف فيسلمه صحفه وكتبه والبنسات المجموعة ويتسلم أجره الزهيد ! ..

أمضى فاراداي في هذا العمل ما ينيف على السنة . بائع صحف . ولم يكن ممنوعاً أن يعمل الأطفال حتى في الأعمال المرهقة . إنهم أيد رخيصة . والفقراء يملأون الشوارع . وأعجب صاحب المكتبة بوداعة الصغير وصبره وأمانته فأعفاه من عملية التوزيع المتعبة . وأخذ على نفسه أن يعلمه تجليد الكتب . قال له : عمل التوزيع لا يلائم سنك وطبعك ولكن تجليد الكتب يكسبك صنعة أقل جهداً وأكثر أجراً .

وما مضت أسابيع حتى كانت أصابع الصبي فاراداي تتقن خياطة الكراريس بعضها مع بعض وقصها وتجليدها بخبرة ونشاط وإتقان وسرعة . على

أن هذا العمل الفني البحت فتح لفاراداي باب المستقبل. وكانت سعادته فيه لا توصف. لقد أتاح له خلال العمل الوقت الكافي لمطالعة ما يقع تحت يده من كتب العلم. إنها فرصة ثمينة انتهزها فاراداي بكل دقائقها لأنها أرضت نزعته الفطرية للاطلاع والمعرفة ...

حتى هنا لم يكن فاراداي أكثر من قارئ مطالع نهم. بلى! كانت مباحث الكهرباء تستهوي قلب الصبي وتجتذب انتباهه وأحلامه. قرأ ما كتب في دائرة المعارف البريطانية وما كتبه العالم مارسيه في كتابه مناقشات العلوم. وفيما هو عائد ذات مساء إلى منزله بعد يوم حافل بالعمل الشاق لفت نظره إعلان عن مجموعة من المحاضرات في التاريخ الطبيعي ... لكن حز في نفسه أنه قد حدد رسم لدخولها: نصف جنيه أسترليني! فعاد حزيناً مهموماً وأفضى بحزنه إلى أخيه الأكبر الذي كان يعمل حداداً مع أبيه فأعطاه نصف الجنيه. وسمح له صاحب المحل أن يتغيب في مواعيد المحاضرات. كما تطوع صديق له أن يعلمه الرسم لكي يسجل الإيضاحات المعروضة بالرسم ...

يومذاك بدأ فاراداي الصبي دون أن يدري طريق العلم والعلماء. معلوماته أدهشت الأستاذ همفري أستاذ المعهد الملكي فسهل له حضور أربع محاضرات فيه. ولما كتب الفتى إليه كتاب شكر وعده السير همفري بإيجاد عمل له في المعهد وفرح الفتى بالكتاب العتيد لأنه فتح له الطريق ضمن الوسط العلمي الذي يهواه. فأخذ يزيد في الاطلاع ويجري التجارب الأولية في الكهرباء ... إلى أن فوجىء بالمصائب توقفه. توفي أبوه وكان عليه أن يعيل العائلة وفيها عدد من الصغار. وأغلق مصنع التجليد فالتحق بمصنع آخر كان صاحبه فرنسياً مريض الأعصاب فأرهقه عنتاً وتعليمات سخيفة ولوماً لأتفه الأسباب ... وما كان أشد سعادته حين تلقى من سير همفري كتاباً يبشره بأنه قد عين مساعد مخبر في المعهد الملكي! لم تسعه الدنيا من الفرح. وسرعان

ما كشف همفري مايتميز به هذا المساعد من مواهب وذكاء فأولاه من الثقة لدرجة تكليفه القيام بعدد من التجارب الدقيقة في المعمل هي من صلب أعمال همفري نفسه !

بعد شهور معدودة أتيحت لفاراداي فرصة لم يكن يحلم بها . اصطحبه سير همفري في رحلة بأوروبا . ولم تكن رحلة نزهة ولكن رحلة علم ومحاضرات استغرقت زهاء عام ونصف العام . شهد خلالها فاراداي مختلف معاهد أوروبا العلمية وشهد مئات التجارب وأتيح له إلقاء بعض المحاضرات عن اكتشافاته الخاصة ... دخل الجماعة العلمية من بابها الأوسع ! ونشرت له مجلة علمية أول أبحاثه عن الكلس الكاوي . ثم ستة أبحاث لخص فيها تجاربه في الغازات والمعادن . ولم تكتمل السنة التالية حتى كان قد نشر ٣٧ بحثاً جديداً وأخرج كتاباً عن خلط الفولاذ وقدم للمعهد بحثين جديدين ...

لم يكن بعد قد وصل العشرين من العمر ... وفي خلال السنوات العشرين التالية أضحى موزع الصحف المسكين نجماً من نجوم العلم . انتخب زميلاً في الجمعية الملكية . دعاه معهد لندن لإلقاء اثنتي عشرة محاضرة . عن اكتشافاته في الكيمياء. ونشر ستة أبحاث عن المغناطيسية وست محاضرات عن الفلسفة الكيميائية ... والغريب أن الجميع كانوا يحرصون على حضور محاضراته من رجال البلاط الملكي إلى أفقر عمال الأحياء الشعبية !

وأثناء سنواته التالية أنتج ١٥٨ بحثاً علمياً و ٣٠ مجموعة من التجارب الدقيقة الجديدة في الكهرباء وظل يبحث في المغناطيسية حتى نجح في كشفه العظيم الذي أثبت فيه أن المغناطيسية تنتج الكهرباء وكان ذلك إيذاناً بمولد عصر المولدات الكهربائية ...

حين قارب الخمسين شعر بالإنهاك فخرج بعائلته في رحلة أوروبية في الريف دامت خمس سنوات وعاد منها ليبحث علاقة الكهرباء بالضوء . ونجح في اكتشاف طريقة لحفظ شعاع من الضوء الكهربائي في وعاء مغلق مفرغ من

الهواء ... وهكذا وصل أديسون إلى المصباح الكهربائي ...

لكن من المؤسف أن الأزهار مهما كانت وحشية رائعة لا تدوم ... لقد قضى فاراداي وعمره لم يبلغ ٧٦ سنة!

لكن ما قدمه كان يبلغ أعمار مائة من العلماء!

ويليام الفاتح

الجغرافيا تلعب دورها في التاريخ هي مسلمة منطقية نقول بها ونقدم عليها الأدلة ولعل من أقربها وأبرزها الغزو النابليوني ـــ الهتلري لروسيا. لكننا قلما ننتبه إلى أن إنكلترا هي بدورها تحميها الجغرافيا أو على الأقل تلعب دورها في تاريخها. فهي جزر لا يمكن الوصول إليها أو الخروج منها إلا في البحار. ورغم كثير من المحاولات الأجنبية التي حاولت غزوها وآخرها محاولة هتلر فإن آخر غزوة أجنبية ناجحة وصلتها كانت منذ ألف سنة ونيف.

ففي سنة ١٠٦٦ استطاع الدوق ويليام، دوق منطقة نورماندي في فرنسا أن يعبر القناة الإنكليزية أو بحر المانش (على ما يسميها الفرنسيون) على رأس جيش صغير قوامه عدة آلاف من المحاربين في محاولة ليصبح حاكم إنكلترا المطلق ونجحت محاولته الجريئة. وكانت آخر غزوة تغزو بريطانيا وتكلل بالنجاح! وسجل ويليام نفسه بهذه المحاولة في التاريخ باسم ويليام الفاتح! لم يحصل فقط على التاج البريطاني لنفسه، ولكنه ترك في التاريخ الإنكليزي أثراً عميقاً مستمراً لم يكن حتى هو نفسه يتصوره...

وويليام الفاتح كان ابناً غير شرعي لدوق نورماندي روبرت الأول. ولد ونشأ في فرنسا فهو فرنسي وأزمع أبوه الحج إلى الأراضي المقدسة وكان الحج إلى القدس قد أضحى نوعاً من التقليد في ذلك القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. وما إن عاد من حجه هذا حتى توفى تاركاً لابنه حكم مقاطعة نورماندي الواسعة ولقب دوق نورماندیا وعمره لا يزيد على ثماني سنوات...

وكان في هذه المقاطعة الواسعة بارونات إقطاعيون كبار كانوا بحكم النظام الإقطاعي المقرر من أتباع هذا الطفل. ولما كانت مصالحهم وطموحاتهم أقوى بكثير من ولائهم ومن تبعيتهم فقد عرفت المقاطعة كلها فترة من الفوضى والحروب المحلية والمؤامرات. وكان ويليام الطفل محظوظاً فيها لأنه على الأقل لم يخسر حياته!

بعد سبع سنوات، حين بلغ ويليام الخامسة عشرة. رسم فارساً حسب الطقوس الدينية والاجتماعية المتبعة. وأخذ يمارس مع جماعة بلاطه المتخيرة دوره السياسي. ضرب البارونات المتمردين عليه في سلسلة من المعارك وضم مقاطعات بعضهم إليه ومنها مقاطعة بروتونيا في أقصى الشمال الغربي من فرنسا. واستغل مراكب الصيد الكبيرة فيها في الملاحة البحرية.

ولم يكن لويليام مطمح في الانتقال إلى الضفة الأخرى لبحر المانش ولكن هذا المطمح تفجر في نفسه فجأة حين وجد ملك إنكلترا (إدوار المعترف) نفسه دون عقب يخلفه. فتذكر قرابة بعيدة تربطه بويليام فأصدر سنة ١٠٥١ وعداً إلى ويليام بتولي العرش من بعده.

أثار هذا الوعد الأقربين الآخرين. وحاولوا إلغاءه ومحاربة ويليام لئلا ينفذ. فالقرابة بين إدوار وويليام بعيدة ولكن ويليام تمسك بحقه. واتفق قبل وفاة إدوار بسنتين أن وقع هارولد غولدوين وهو أقوى اللوردات الإنكليز أسيراً في قبضة ويليام وهو صهر الملك إدوار وأكبر المطالبين بالعرش أهمية وشأناً فلم يطلقه ويليام إلا بعد أن أقسم بأغلظ الإيمان أن يؤيده في ادعائه بالعرش!..

واطمأن ويليام إلى أن عرش إنكلترا على الضفة الأخرى أضحى قريب المنال، لكنه فوجىء حين مات (إدوار المعترف) الملك الإنكليزي أن هارولد قد قبل انتخابه لمملكة بريطانيا ونسي كل الأيمان التي أقسمها! اعتبر هارولد أنه كان مجبراً على القسم وليس على مجبر يمين فقبل العرش وهو مطمئن الضمير

تماماً ... وترك لويليام أن يبلط البحر ! ..

كانت دعوى ويليام في العرش ضعيفة. هي مجرد وعد. ولكنه غذاها بالآمال خلال ١٤ سنة حتى غدت هوساً وحلماً بحكم طرفي بحر المانش. ولم يستطع قبول طيران هذا الحلم بسهولة. فقرر أن يحققه بالقوة. وأن يغزو الشاطىء الإنكليزي.

لم يكن ينقصه الأسطول فموانىء نورماندي وبروتانيا مليئة بالسفن. وحشد عدة آلاف من المقاتلين. وفي أواخر صيف سنة ١٠٦٦ كان يستعد للإبحار حين فاجأته الرياح الشمالية الصاخبة بعواصفها القوية فأجبرته على الانتظار بفرسانه ورماته... وكان ذلك من حسن حظه. لأن ملك النرويج كان في ذلك الوقت يشن هجوماً على بريطانيا من شرقها فخرج الملك هارولد يتصدى له بجيشه. وفي المعركة العنيفة التي جرت بينهما قتل الملك النروجي وتمزق جيشه. وعادت سفنه مدمرة تحمل الجرحى والهاربين !

بعد يومين من نصر الملك الإنكليزي هارولد غولدوين تغيرت الرياح في بحر الشمال وصحا الجو بعد العواصف فانتقل وليام بأسطوله عبر بحر المانش لينزل على الشاطىء الإنكليزي دون صعوبة. وسمع هارولد بالخبر وهو مع جيشه بعيد فأسرع بالجند يجتاز بهم البلاد من شمال شرقي البلاد إلى جنوبها الغربي مجتازاً بهم الغابات والضباب وعصف الأمطار وهدير الأودية حتى وصل إلى تلال هاستنغز حيث نزل ويليام. وأسرع وتسرع يدخل المعركة.

وتلاقى الجيشان، وكلمة الجيش كبيرة على هاتين المجموعتين المتحاربتين واللتين لا يزيد عددهما معاً على عشرة آلاف إلا قليلاً. وفيما كان جيش ويليام مرتاحاً قد أخذ حظه من الراحة والاستعداد كان جيش هارولد منهكاً بالتعب. مجهداً بالمسير متعب الخيل والعربات. وفي الصدامات الأولى قتل أخوان للملك هارولد وقبل نهاية النهار تمكن خيالة جيش ويليام أن تهزم الجيش

الأنكلوسكسوني . وحين هبط الليل كان الملك هارولد نفسه بين القتلى ... كان ذلك يوم ١٤ تشرين الأول / أكتوبر / سنة ١٠٦٦ .

في اليوم التالي تناثر الجند الإنكليز الهاربون في الشعاب وتعثروا بالجرحى والقتلى . ولم يعد هناك قائد إنكليزي يلم شعثهم أو يوجه حركتهم ، وانتصر ويليام وزحف بآلافه المحدودة على لندن .

وفي عيد الميلاد من تلك السنة كان قد أخمد المعارضين له من الإقطاعيين الكبار ودخل كنيسة وستمنستر فتوج باسم الملك ويليام الفاتح . وبدأت به سلسلة أسرة نورماندي .

تحقق حلمه ! وبقي يحمل لقب الملك واحداً وعشرين سنة حتى توفي !

ولم تعرف إنكلترا بعد غزوته غازياً آخر حتى اليوم !

أليست الجغرافيا هي التي انتصرت ؟

ابن ماساي

نحن الآن في المغرب الأقصى، وفي الربع الأخير من القرن الثامن / الرابع عشر للميلاد.

الحكم في المغرب الآن للأسرة المرينية. ومن المؤسف أن الدسائس كانت قائمة بين المرينيين وبين مملكة غرناطة في الأندلس.. كل من الطرفين يكيد للآخر ويطمع في الكسب على حسابه...

وقصتنا الآن تدور حول وزير مغربي كان مختصاً بالأمير عبد الرحمن بن بفلوسن المريني وكان من الدهاة الدهاة هو مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي ويعرف بين الناس باسم رحو وابن ماساي. كان الوزير والأمير كلاهما قد نفيا معاً إلى غرناطة فتوطدت العلاقات بينهما أثناء إقامتهما هناك. واتصل ابن ماساي بابن الأحمر الغني بالله أمير غرناطة فأولاه ثقته وقربه كيداً بالمرينيين الذين نفوه... وأجابه في المغرب وزير كان مستبداً بملك بني مرين فعطل مصالح غرناطة التجارية وأمر بالتضييق عليها. فغضب الغني بالله وسرح المنفيين عنده الأمير عبد الرحمن وابن ماساي لإثارة الفتن في المغرب. ووصلا أبواب فاس وافترقا لأن المرينيين استطاعوا إرضاء الأمير بإعطائه إمارة مراكش. فلم يجد ابن ماساي سوى العودة إلى الأندلس!

ويبدو أن هذا لم يرض الغني بالله ابن الأحمر الذي، وإن تولى صديقه الأمير إمارة مراكش، كان يطمع بأكثر من هذا، كان يطمع ببسط نفوذه على السلطنة المرينية المنهارة أملاً في الحكم ما بين غرناطة وفاس وملك العدوتين

والتحكم في تجارة الذهب والعبيد القادمة من أقاصي السودان ! ووجد لديه أميراً آخر معتقلاً منفياً من المرينيين هو الأمير موسى بن أبي عنان المريني. فسرحه واستوزر له ابن ماساي !

ونجحت البعثة هذه المرة. وصلت فاس وطوقتها ولم يكن العاهل المريني المستنصر بالله على قدر المقاومة فلم ينتصر له الله. فخلع وأرسل إلى ابن الأحمر في غرناطة !! في القيود.

قام الوزير ابن ماساي في الدولة، يفعل وهو الداهية ما شاء، لدرجة أحس معها الأمير موسى أبو عنان الذي تسلم العرش أنه صفر على الشمال وأنه مجرد صورة لسلطان لا يملك من الأمر شيئاً. ونما إلى ابن ماساي ذلك وأكثر منه. نما إليه أن موسى يفكر بالفتك به فما كان منه إلا أن خرج من فاس لبعض الأعمال ليعود فيجد السلطان موسى مسموماً ! كان قد دبر قبل ترك فاس كل شيء. ولم يكن يريد أن يتهم فقام بالمؤامرة أعوانه وعاد ليجدها تمت في غيابه ولا دخل له فيها !

وكان للسلطان المستنصر المعتقل في غرناطة طفل اسمه محمد لا يتجاوز السنوات الخمس فأخذ له البيعة من الناس سنة ٧٨٨ ولقبه بالمنتصر بالله. وضمن بهذا الشكل الشرعي بقاء الحكم في يده سنوات وسنوات. وأراد ابن ماساي أن يمن على الابن وعلى الناس، فبعث إلى الغني بالله ابن الأحمر في غرناطة يسأله أن يطلق سراح المستنصر. أرسل الرسالة مع أحد أبنائه فأطلقه الغني ووصل المستنصر حتى جبل الفتح في العودة (أي جبل طارق). ثم جاء من أوحى إلى ابن ماساي أن في غرناطة أميراً مرينياً آخر أكثر طواعية وأسهل قياداً هو محمد أبي الفضل. لم يكن من قبل سلطاناً كما كان المستنصر ولذلك فهو أكثر أمناً من هذا المخلوع العائد إلى عاصمته والذي ما يزال ــ دون شك ــ يفكر بالملك ! أن أبا الفضل أليق بالاستبداد وبالحجر عليه ! فكتب

إلى الغني بالله مسرعاً . وما كان أسرع من الغني بالله الذي استرد المستنصر وبعث بدله ابن أبي الفضل !

ووصل هذا الرجل إلى فاس فأقام له الزينات وبالغ في الترحيب ودق الطبول والصنجات . ثم أخذ له البيعة من العلماء والناس ولقبه بالواثق بالله سنة ٧٨٨ بعد أن خلع الطفل المنتصر الذي لم يمض على تسلمه العرش سوى أشهر معدودات ثم ألحقه بأبيه في غرناطة ! وتصرف ابن ماساي في الملك كأنه له وابن أبي الفضل خيال سلطان من الورق ليس في يديه شيء .

تصرف واستبد حتى حسب أن الدنيا صارت له . أخذ يعطي ويحرم ويساند الزراعة وينشط التجار ويكبر العلماء ووزع أهله في الحكام وحاشيته . وكان أحياناً يركب حصانه فيجوب أنحاء فاس متقرباً من الناس ليألفوا وجوده على رأس الحكم والحرس من حوله ...

لكن الغرور ازدهاه . ومتى دخل الغرور رأساً من جانب خرج التعقل من الجانب الآخر . لم يفطن ابن ماساي أنه لا يزال في أنشوطة الغني بالله صاحب غرناطة ولو أنه ملك المغرب ولم يذكر أنه ما يزال لدى الغني بالله أوراق يلعبها ضده . نسي كل ذلك وطلب منه إعادة سبتة إلى ملك بني مرين : وسبتة ولو أنها على العدوة المغربية ، إلا إنها كانت تابعة لغرناطة وتجارات هذه المملكة مرتبطة بها وإنما يحتفظ بها بنو الأحمر ولو أن بينهم وبينها بحر المجاز (مجاز جبل طارق) لتكون رأس جسر لهم إلى المغرب . أراد ابن ماساي بهذا الطلب أن يوطد لنفسه وأن يظهر أنه « وطني » يحافظ على التراب المغربي . وكانت هنا غلطته الكبرى . كتب بذلك إلى الغني بالله فغضب ابن الأحمر حتى احمرت عيناه . أدرك أن ابن ماساي إنما قام بما قام به توطيداً لنفسه وأنه قد يحاربه إذا لزم الأمر من أجل سبتة . وزالت ثقته السابقة فيه فما كان منه إلا أن أطلق السلطان أبا العباس المستنصر الأسير لديه وبعثه مع الجند بعناية الله

إلى المغرب ، جواباً على غرور ابن ماساي .

وصل المستنصر إلى أسوار فاس وحاصرها الحصار الذي أفرغ فيه كل شجاعته وسخائمه . كان يعرف أنها فرصته الأخيرة للقضاء على رأس الفتنة وقطب رحاها . وعرفت جدران فاس دق المجانيق وصهيل الخيل المحمومة وصراخ الجرحى وجندلة الجثث وسقيا واديها بالدماء قبل أن يستطيع المستنصر دخولها بعد أن أذعن ابن ماساي للطاعة واشترط أن يبقى في الوزارة ويخلع السلطان ـــ اللعبة الذي سماه بالواثق ...

وكذلك كان ...

خرج ابن ماساي فقدم الطاعة والولاء للمستنصر بالله . وبايعه . وتقدم أمامه لدخول دار ملكه سنة ٧٨٩ وأرسل الواثق المخلوع إلى طنجة ، حيث كانت تنتظره مؤامرة قتل ذهبت به ...

على أن المستنصر لم يصف لابن ماساي ولا نسي قيوده وسجنه ، لكنه انتظر حتى تمكن أمره في بضعة أشهر ثم قبض عليه وعلى إخوته وحاشيته وعذبهم مر العذاب ... حتى هلكوا جميعاً !

أليس من الحمق أن أمنوا له بعد الذي كان !

أسد بن الفرات

في تاريخ الفقهاء الكثيرون ممن كانوا بجانب الفقه يعملون عملاً آخر يعيشون منه. فأبو حنيفة الإمام كان بزازاً وسعيد بن المسيب تاجر زيت، وأما أن يجمع الفقيه إلى العلم الواسع بالفقه أميرالية البحر وقيادة الجيش في البر فما أعرف إلا واحداً جمع هذه إلى تلك ونجح هو أسد بن الفرات.

وقد يقع الاسم غريباً على الأسماع ولكنه، في واقع التاريخ. صنو طارق بن زياد وقتيبة بن مسلم الباهلي فاتح تركستان ومحمد بن القاسم الثقفي فاتح السند. ولعل غياب اسمه بين كبار الفاتحين ناجم عن عسر الجبهة التي كان عليها في صقلية وطول ما قاسى من السنين وهو يفتحها لدين الله.

وأصل أسرة ابن الفرات من نيسابور ولعلهم من عربها. وقد ولد في ديار بكر سنة ١٤٢ وخرج أبوه في الحملة التي جردها المنصور للسيطرة على ثورة الخوارج في أفريقية فنشأ أسد هناك مع أهله. وأراد له أبوه حين اشتد عوده أن ينشد العلم. والعلم كان يومذاك مقره المشرق بين بغداد والمدينة ودمشق: ولما كان أبوه مرموق المكانة فقد احتشد الكثيرون لوداع أسد بن الفرات الذي استوفى مالدى علماء القيروان وأزمع طلب المزيد في المشرق بعد أن بلغ الثلاثين. كان يرجو كما يرجو أبوه أن يصبح الفقيه المرموق في الدين.

وخبت به الإبل وارتطمت المراكب حتى وصل الحجاز فحج ثم قصد المدينة وفيها عالمها الأكبر مالك ابن أنس فأخذ عنه طويلاً، ثم انتقل إلى العراق ينشد مدرسة أبي حنيفة. وكان أبو حنيفة قد مات منذ نيف وعشرين سنة

وبعد أن قام مقامه تلميذه أبو يوسف واختاره الرشيد قاضياً للقضاة قام بالتدريس على مذهب أبي حنيفة تلميذه الآخر محمد الشيباني من أهل حرستا . بدمشق . وكما كان أسد كثير السؤال والتنقير مع مالك بن أنس الذي يتقيد بالقرآن والسنة حتى اضجره . كذلك كان كثير السؤال والتنقير مع الشيباني الذي يعتمد كأستاذه على القرآن والسنة وعلى المنطق العقلي أيضاً . وطلب من الشيباني دروساً خاصة به فآواه في بيته وخصص له فراغه كله في الليل يلقنه العلم الذي يرجو .

هل طلب منه أجراً؟ هل سأله مالاً؟ هل تقاضاه أجر إقامته وإطعامه؟ أبداً ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾ ونعلمكم لوجه الله العلم أيضاً . وحين استوفى أسد ما يريده من علم الشيباني وجمع بين مذهب مالك النقلي ومذهب أبي حنيفة العقلي تحول إلى مصر . ولزم (أشهب) أفقه من عليها . ولما سمعه ينحي بكلام خشن على أبي حنيفة ومالك غضب وصرخ على ملأ من الناس منددا بقوله وشبه قوله بمن يبول بين بحرين ويزعم أنه ينشيء بحراً ثالثاً . وفارقه بعد أن جمع ما رواه في المدينة والعراق والقيروان في مدونة اشتهرت باسم الأسدية . وقدر لهذه المدونة أن تكون أساس المذهب المالكي . فعليها بني سحنون مدونته الكبرى فصارت مرجع المذهب .

ورجع أسد بن الفرات إلى القيروان بعد عشرين سنة من الدراسة والعلم . فوجد أن هارون الرشيد قد أعطى البلاد الأفريقية لبني الأغلب كي يكونوا سداً بينه وبين ثورات الخوارج هناك والدولة الإدريسية العلوية النابتة في المغرب الأقصى . حتى هنا لم يكن ابن الفرات أكثر من فقيه نابه وقد كلفوه القضاء... إلى أن كان ذات يوم... قدم فيه على أفريقية زعيم من زعماء جزيرة صقلية التي تواجه أفريقية وتونس فأبلغ الأمير زيادة الله الأغلبي أن حاكم صقلية الذي كان يهادن المسلمين قد نقض العهد وصادر تجار المسلمين وعذب

الأسرى منهم وضيق على الجالية الإسلامية هناك .

واستفتى زيادة الله القضاة هل يعتبر الهدنة منتهية مع هذا الحاكم أم يتريث . أسد بن الفرات قضى بأن المعاهدة عقدت على أيدي الرسل وإخبار الرسل عن نقضها كاف لإلغائها . وأسرع زيادة الله يجهز الأسطول . لم يكن أسد بن الفرات ينتظر ولا كان أحد ينتظر أن يكون أسد هو القائد . لقد طلب من الأمير فقط أن يتطوع مع الجند . وأبى الأمير ذلك خوفاً عليه وألح الأمير بالرفض حتى إذا رأى تصميمه قال الأمير :

ــ إذن تكون لك قيادة الحملة أسطولاً وجيشاً .

وامتعض أسد وقال : أبعد القضاء والنظر في الحلال والحرام أعزل وأتولى إمارة لست منها وليست مني .

فقال الأمير : ما عزلتك عن القضاء ولكن أضفت إليك الإمارة !

كان الأسطول ضخماً يتألف من ٩٨ قطعة . كان غابة أشرعة . تملأ الميناء وما وراءه في بلدة سوسة التونسية وعليه جيش من عشرة آلاف راجل وتسع مائة فارس . والموج يهدهدهم كأنما يعدهم للمعركة . وتزاحم الناس على الميناء يشهدون الوداع فبين باكية ومصفق وصائح الله أكبر . وجنود يستعجلون اللحاق وحبال تجر الأشرعة أو المراسي . وهرج ومرج كأنما كان ذلك يوم المغرب كله . وتكلم الأمير يودع جيشه بالنصائح . وتكلم أسد قال بكلمات موجزة كل شيء :

ــ والله يا معشر الناس ماولى لي أب ولا جد ولاية قط . وما رأى أحد من أسلافي مثل هذا قط وما بلغته إلا بالعلم فعليكم بالعلم تبلغوا به الدنيا والآخرة . سيروا يرحمكم الله .

ولحسن حظ ابن الفرات لم تكن صقلية بعيدة عن أفريقية . إنها على غلوة منها . وساعد هدوء البحر الأسطول فنزل البر الصقلي بسلام . وتصدى له الجيش الصقلي يساعده البيزنطيون بكل ما يحتاج من عدد وعدة

ونيران نفط محرقة واستعدادات عسكرية ومناورة وكائن. والجند الإسلامي يقاتل في أرض غريبة لذلك طالت أيام المعارك وتعددت مواقعها. وفت الأقوات وتململ بعض الجند وتحركت عناصر الشغب والفساد عازمة على العصيان. وجاؤوا القاضي الأمير ابن الفرات يعلنون العزم على العودة إلى ديارهم. تزعمهم قائد مكين يحمل أيضاً اسم أسد هو أسد بن قادم فماذا يصنع ابن الفرات، في أرض غريبة، بجيش لا يريد القتال ويؤثر الانسحاب والسلامة؟ وقد بدأت فيه بوادر الشغب... كان أمام حل وحيد فإما أن يقلب الموقف لصالحه وإما أن يخسر كل شيء؟

تناول السوط من يد أحد الحرس ووقف أمام أسد الثائر ونزل عليه بالسوط أولاً وثانياً وثالثاً، وصرخ بالجند بصوت ضخم ما عهده لنفسه:

ــ إلى الجهاد! فتحت أبواب الجنة!

وركب فمشى من الطليعة. ولحق به القواد والجند طائعين كأنما قوة إلهية غير منظورة تسيرهم. نسوا الشغب. نسوا الأهل. نسوا الأخطار وألقوا بأنفسهم في المعركة كتلاً كاللهب أو هي أشد نكراً وفتكاً. وواتاهم الظفر الذي طالما رجوه وكان يفر منهم... من قبل!

منذ ذلك اليوم بدأت الدولة الإسلامية في صقلية تستقر وتتسع حتى شملت الجزيرة كلها بعد سبعين سنة مريرة مريرة. كان القتال يدور من قرية إلى قرية ومن مدينة لأخرى...

أين كان ابن الفرات أثناء ذلك؟

كان منذ المعركة الأولى تحت التراب شهيداً!

لوثــر

في تشرين الأول / أكتوبر / من سنة ١٥١٧ بعد كشف أمريكا بخمس وعشرين سنة فوجىء الناس في مدينة وتنبرغ في ألمانيا بأوراق ملصقة على باب الكنيسة الكبرى في القلعة تحوي هجوماً على الكنيسة ما سبق لأحد أن قام به ويتكون من ٩٥ احتجاجاً عليها . والأعجب من ذلك أن الذي وقع هذه الاحتجاجات قسيس من الكهنوت اسمه مارتن لوثر ... ضجت المدينة كلها بهذه الجرأة من رجل من أبناء الكنيسة يهاجمها بهذا العنف وهذه الصراحة المباشرة . صحيح أن الكثيرين كانوا يتحدثون قبله بمساوئ بعض رجال الدين وجهلهم واحتكارهم الدين وهو لله . بل كان بعضهم ممتعضاً من البابوية ومن تصرفاتها التي يبعث بعضها على الخزي . ولكن كان هذا لا يجاوز الأحاديث أما الآن فهذا منشور يحوي احتجاجات علنية تندد بالمساوئ . لقد خرج السر إلى الجهر وما كان همساً صار علناً . فمن هو هذا القسيس الجريء المتهور ؟

تحدثت المدينة أولاً عن لوثر ثم ما لبثت المدن الألمانية الأخرى أن تحدثت عنه . وثار الجدل فوصل حتى العامة والفلاحين البسطاء فمن متهيب ومن متحمس ثائر ومن قابل للتحدي ومن منكر له ... ولكن لقد وقعت الواقعة الآن وعلى الكنيسة ورجالها أن يلملوا أثوابهم السوداء لئلا تلتهب بالثورة . كانت ثورة فعلاً ولا كالثورات . واسم البروتستانت آتٍ من الاحتجاج فالبروتستانت هم المحتجون ...

كان عمر لوثر يوم أعلن احتجاجاته ٣٤ سنة . وكان قد تلقى ثقافة

جامعية حسنة . ونال شهادة أستاذ في العلوم . وبدأ يدرس القانون بناءً على رغبة والده . ولكنه لم يكمل دراسته القانونية واختار أن يصبح راهباً أو غسطينياً . وحصل سنة ١٥١٢ على الدكتوراه في اللاهوت من جامعة ووتنبرغ . وانضم إلى الهيئة التدريسية فيها . وقد بدأت انتقاداته للكنيسة تظهر بالتدرج . وكان قد زار روما وصدمته تفاهة رجال الدين فيها وشدة تمسكهم بالمكاسب الدنيوية وجمع المال وعدم الاهتمام بالمفاسد والدنايا التي ينحطون إليها . كان ذا ضمير حي بريء فجرحه في الصميم استغلالات الدين للأهواء والانحلال الروحي ... لكن الشرارة التي فجرته كانت بيع صكوك الغفران . كان البابوات قد ابتكروا طريقة لجمع المال ببيع صكوك لمن يشاء بغفران ذنوبه والعفو عن خطاياه . وكانت بعض الصكوك تحمل أحياناً تخفيضاً للمخطىء من الزمن الذي يقضيه في الجحيم أو المطهر ! أقامت الكنيسة نفسها مقام الله في الغفران وكانت تبيعه بمبالغ سخية تعدل خطأ المخطئين ! .. وثار لوثر بخاصة على هذه التجارة الحرام ... ويوم أعلن احتجاجاته الـ ٩٥ أرسل نسخة منها إلى مطران مينز . وطبع الاحتجاجات فتوزع منها الكثير بكل مكان . وقال إن الغفران موكول بنعمة الله وبالفداء والإيمان . كان رد فعل الكنيسة عنيفاً على لوثر وطلبوا منه سحب احتجاجاته فرفض . بل زاد فصار ينكر سلطة البابا نفسه ومجالس الكنيسة العامة مصراً على ألا يتبع ، إلا ما جاء في الكتاب المقدس وما يقبله العقل المحض !

وأثار غضب الكنيسة بخاصة أن أفكاره تؤيد النزعة القومية الجديدة التي ظهرت في الدولة الألمانية لتتولى هي إدارة شؤون الكنيسة . وما خطر في بال البابا وكهنوته أن لوثر هو ابن هذه النزعة نفسها !

وجاء قرار البابا باستدعاءه للمثول أمام مجمع كنسي في وورمز فرفض الحضور . فأعلن أنه كافر ، خارج على القانون وأن كتبه محرمة . وهو نفسه

محروم من الغفران . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا إهدار دمه ! وحين وصله قرار الحرمان أحرقه علانية في ساحة الكنيسة . وحين صدر قرار بالقبض عليه لجأ إلى قلعة فارتبرغ وبقي فيها سنة كاملة مختفياً عن الأنظار ، لكن التأييد والدعم الشعبي وما لقيه من بعض الأمراء من الحماسة حماه . وكان كافياً لنجاته من أي عقوبة تلحقه بها الكنيسة ! وقد استغل فترة لجوئه إلى القلعة فترجم الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية . وكان هذا العمل بحد ذاته مكملاً لاحتجاجاته فلم يعد هذا الكتاب حكراً على رجال الدين يقرؤونه باللاتينية دون أن يفهم أحد ويفسرونه كما يشتهون ولكن أضحى لكل ألماني يستطيع القراءة أن يطالعه ويقرأ فيه دون الاعتماد على الكنيسة أو القساوسة ! ومن حق أي فرد أن يتصل بالله الاتصال المباشر ! وكان يكره اليهود الكره الشديد وكتاباته الشديدة اللهجة ضدهم ساهمت في عزلهم عن المجتمع الأوروبي .

قضى لوثر باقي حياته في ووتنبرغ بلده الأصلي . ولما كان لا يرى الترهب فقد تزوج من راهبة سابقة أنجبت له ستة أولاد . لكن أفكاره ومبادئه حين انتشرت الانتشار الواسع بين الفلاحين في ألمانيا حركتهم للثورة على الأمراء الإقطاعيين . فقاموا بها ملتهبة عنيفة ذهب الكثير من الضحايا فيها . فأين يقف لوثر منها ؟

من المؤسف أنه وقف بجانب الأمراء بزعم أنهم أصحاب حقوق ... وأفقده ذلك الكثير من شعبيته ومن تأييد الناس له . وإن لم يرفضوا أفكاره ومبادئه . وظلت اللوثرية تنتشر بدون لوثر الذي عمل ما بوسعه بعد ذلك لتنظيم كنيسته الجديدة وتحديد نظمها وكان للوثر معارضون كثيرون لا في مبادئه كلها ولكنهم في بعض حدودها ، مما جعل الجماعة اللوثرية الجديدة تنقسم وتختلف . وكان أشهر معارضيه زوينغلي وكالفن اللذان اختلفا معه لدرجة قسمت اللوثرية قسمين : قسم معه وقسم تسمى بالمصلحيين مع كالفن ... وتوالت بعد ذلك الانقسامات فظهر المتطهرون المتعصبون وظهر البروتستانت

المعتدلون ، ثم ظهرت الكنيسة الأنغليكانية في إنكلترا ... وكانت هذه الفرق المذهبية من أهم النتائج الناجمة عن البروتستانية . الاحتجاجية !

أما النتيجة الأخرى التي لم ينتظرها لوثر فهي أن تثير احتجاجاته الحروب الدينية الهوجاء التي عصفت بأوروبا ودمَّرتها خلال القرن السابع عشر وبعض الثامن عشر فحرب الثلاثين عاماً استمرت في ألمانيا من سنة ١٦١٨ إلى سنة ١٦٤٨ وكانت حروباً فاجعة دامية مبيدة تصارعت فيها البروتستانتية والكاثوليكية أفجع الصراع . والأوروبيون يسمون حركة لوثر « بحركة الإصلاح الديني » ولكن ثمنها كان غالياً جداً لا بهذه الحروب التي أثارتها فقط ، ولكن أيضاً بما هزت من العروش وبدلت من الملوك ومزقت من الشعوب وبخاصة ، بعد ألمانيا ، في هولندا وفرنسا وإنكلترا وبما نجم عن ذلك من هزات عنيفة للنظم السياسية .

وبهذا الشكل لعب « الإصلاح الديني » دوره البارز في الحياة الفكرية لغرب أوروبا وبالتالي في مهاجر الإنكليز والفرنسيين في القارة الأمريكية الشمالية (في الولايات المتحدة وكندا) فقبل سنة ١٥١٧ عمَّ إعلان الاحتجاجات كان هناك كنيسة واحدة هي الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في الغرب ، (يقابلها الروم الأرثوذكس في المشرق وروسيا) وكل من يخرج على الكاثوليكية كافر ، يحرم ... وقد كسر لوثر هذا السيف المصلت على الرقاب والذي لم يكن يتناسب مع التفكير المستقل الحر الذي أخذت تتجه إليه أوروبا وصارت الحرية الدينية بعد لوثر مما يتنفسه الناس ويتقبلونه دون مناقشة !

ويمكن القول أنه لو لم يظهر لوثر لظهر غيره ليقول بقوله فقد كان جو أوروبا الغربية مستعداً لمثل هذا الإصلاح بعد الكبت الشديد الموروث من القرون الوسطى .

ولقد هزمت البابوية لأنه كان من الطبيعي أن تهزم . حتى الطوق الحديدي إذا لم يكن فيه بعض المرونة ينكسر ... وقد انكسر !

كرومويل الجمهوري

مرة واحدة في التاريخ صار الناس يدعون تلك الملكية الدائمة في بريطانيا باسم الجمهورية البريطانية . كان ذلك يوم سير دفتها في النصف الأول من القرن السابع عشر قائد عسكري لامع هو أوليفر كرومويل .

ولد هذا الرجل في السنة الأخيرة من القرن السادس عشر . وعاش شبابه في الربع الأول من القرن التالي . في تلك الفترة كانت الثورة الدينية التي أشعل فتيلها القسيس لوثر في ألمانيا قد أخذت مداها في أنحاء أوروبا الغربية . ومزقت العالم الكاثوليكي المستسلم للبابا في تلك البقاع . كانت في الواقع ثورة على مساوئ البابوية وفضائحها وغباء رجالها . وإذا كانت لم تمس كثيراً إيطاليا واسبانيا فقد اكتسحت ألمانيا وهولندا وشمال فرنسا وإنكلترا وسويسرا . وتركت في كل مكان انقسامات دينية سفحت الكثير من الدماء وهزت العروش وخلقت العداوات المريرة التي ما تزال ذيولها قائمة إلى اليوم ...

في شباب كرومويل كان القائم على العرش جيمس الأول ملكاً يؤمن بالملكية المطلقة . وكان كرومويل مزارعاً ريفياً بارزاً ولكنه كان من البروتستانت المتعصبين الذين يسمون بالمتطهرين . وقد انتخب عضواً في البرلمان في عهد شارل الأول ، لكن هذه العضوية لم تدم سوى سنة أو أقل وحل الملك المجلس وحكم البلاد بمفرده ١١ سنة . حتى إذا احتاج المال في حروبه مع اسكتلندة دعا البرلمان من جديد . وكان كرومويل أيضاً عضواً فيه ووقف بجانب أمثاله من المتطهرين . وطلب البرلمان من الملك تأكيدات بعدم العودة إلى الحكم

الاستبدادي. ولكن الملك لم يكن مستعداً للاستجابة. إنه يريد منهم المال فقط وليس سلب ما يعتبره من حقوقه الإلهية ومزايا عرشه. وجند الملك جيشه لإرغام البرلمان فأجاب أعضاء البرلمان بتجنيد جماعاتهم وأنصارهم. كان الملك يدعي بالحق الإلهي ومعه أتباع الكنيسة الرسمية (الأنغليكانية) الأسقفية. والبرلمان ومعه الطبقة الوسطى يرغب في أن يحكم وأن تكون حقوقه في الحكم مستندة إلى القانون لا إلى إحسان الملك ورضاه. وكان البرلمان السابق قد منح شارل الأول المال شريطة أن يوقع على عريضة الحقوق. ولكنه لم يأبه لهذا وظل يفرض الضرائب على هواه ولا يأبه لشروط البرلمان بتجهيز الأسطول ومحاربة أعداء إنكلترا وضم اسكتلندة... فلما تأزمت الأمور مع البرلمان حاول الملك القبض على خمسة من أعضائه، كان من بينهم كرومويل، فهربوا إلى ممتلكاتهم وجندوا أنفسهم لحربه. وقامت الحرب الأهلية بين الطرفين. فالصدامات والأشلاء ودماء القتلى بكل مكان. استمر ذلك ثلاث سنوات. حتى أحرز كرومويل انتصاراً ساحقاً على جيش الملك في معركتي مارستن مور سنة ١٦٤٤ وماسبي سنة ١٦٤٥ ولاذ شارل الأول بالفرار إلى اسكتلندة التي عادت فسلمته إلى البرلمان!. وهرب الملك من أسره وصار يراوغ. وتجددت الحرب الأهلية سنة ١٦٤٧ وهزم فيها شارل مرة أخرى. وحاكمه بعض أعضاء البرلمان من خصومه فحكموا عليه بالإعدام. وسيق إلى المقصلة فقطعت رقبته بتهمة الخيانة العظمى سنة ١٦٤٩... كان ذلك نصراً، في الواقع، للطبقة الوسطى من التجار ومهرة العمال الذين برزوا وأقيم بتأثيرهم حكم شبه ديمقراطي.

كان أول من طلب إعدام الملك هو كرومويل الذي ظهرت مقدرته العسكرية في القتال الأهلي الذي دام أربع سنوات مع الملك القتيل وفي الفرسان التي جمعها. فاعترف البرلمان بمقدرة كرومويل الذي أصبح أقوى قائد

ذي نفوذ في إنكلترا . وأصبحت البلاد جمهورية تدعى جمهورية الصالح العام يحكمها مؤقتاً مجلس دولة برئاسة كromويل. ولكن الملكيين عادوا فبسطوا نفوذهم على إيرلندا واسكتلندة داعمين بذلك ابن الملك القتيل الذي أصبح فيما بعد شارل الثاني . فتحرك كرومويل في حملة تأديبية ضد إيرلندا . وقمع ثورتها في قسوة ووحشية ما تزال ذكراهما باقية في نفوس الإيرلنديين . وزاد من هذه القسوة والوحشية أنه بيوريتاني وأنهم من الكاثوليك وعمل على انتزاع أراضيهم وإعطائها للمستوطنين الإنكليز من أبناء مذهبه .

ثم غزا كرومويل في السنة التالية اسكتلندة وهزم الملكيين هناك في دبنار ثم هزم شارل الثاني نفسه في ورستن. وألغى البرلمانيين الإيرلندي والاسكتلندي على أن تمثل المنطقتان في البرلمان الإنكليزي . وأجرى إصلاحات رفض بعضها البرلمان فحله سنة ١٦٥٣ حين فشل في حمله على الموافقة على القوانين الجديدة . وأصبح يدعى : السيد الحامي للكومنولث ! وحكم البلاد بالاشتراك مع قواد الجيش حكماً دكتاتورياً ولكنه لكرهه الملكية رفض أن يتوج ملكاً .

بعد أربع سنوات أصدر دستوراً جديداً للبلاد زاد في سلطانه وبدأ يتخذ مظاهر الملكية وأبهتها ، ثم حل البرلمان مرتين أخريين ، كانت مشكلته الشكل الدستوري للحكومة ولم يستطع حلها في حياته رغم ما كان له من قوة ومن نفوذ عسكري . النزاع كان متصلاً بالصراع الذي مزق البروتستانتية فرقاً يختلف بعضها عن بعض بقدر اختلافها عن الكنيسة الكاثوليكية .

على أنه نشط التجارة وتحالف مع فرنسا الكاثوليكية ضد اسبانيا حتى نال بالقوة حق التجارة مع مستعمراتها في أمريكا . وقد كلفته هذه الحرب الكثير من المال والجهود واستنفدت مالية إنكلترا . ولم يحصل منها إلا الظفر بجزيرة جامايكا . وعلى الرغم من أنه كان يدعو للتسامح والحكم الديمقراطي ، إلا أنه لم يطبق ذلك إلا على اليهود والبروتستانت غير التابعين للكنيسة

الأنغليكانية ، غير أنه كان حسن الإدارة .. عدل الكثير من القوانين الظالمة واهتم بالتعليم اهتماماً عظيماً ...

لكن حكمه لم يدم طويلاً فقد توفي سنة ١٦٥٨ !!

وانهار النظام الجديد الذي أقامه بسرعة لأن ابنه ريتشارد كرومويل لم يستطع أن يحتفظ بمنصبه كرئيس للدولة سوى أقل من سنة فاستقال ! وعادت الملكية من بعده ...

كانت جمهورية كرومويل أشبه بحلم عنيف مرَّ بإنكلترا ثم انجاب عنها . وقد اختلفت الآراء فيه وإن كان هناك إجماع على براعته الحربية ومتانته الخلقية . وأهمية هذه التجربة أن ظهور كرومويل أيد الديمقراطية في زمن كان الحكم المطلق هو سيد أوروبا . ورفض التاج ليحافظ عليها وكانت هذه الديمقراطية المبكرة عاملاً أساسياً في حركة التنوير التي سادت في القرن الثامن عشر وأطلعت روسو وفولتير ومونتسيكيو ومن ثم كانت السبب في الثورة الفرنسية وفي إنشاء الدول الديمقراطية بعدها ... بالإضافة إلى أن حركة كرومويل لعبت دوراً حيوياً في جرأة سكان المستعمرات الإنكليزية في أمريكا وفي ثورتهم عليها وانفصالهم عنها وإقامة الولايات المتحدة وغيرها ...

إن الديمقراطية لم تأت بالمجان .

إن النظام الديمقراطي عام على سيل من الدماء حتى أصبح نظام حكم ...

ما رأيكم ؟ أليست الديمقراطية تستحق ذلك ؟

عبد الحميد الكاتب

في عقر بيت ابن المقفع الكاتب المعروف في البصرة قبل ١٢٨٢ سنة كان صديقان يتسامران صاحب البيت وضيف آخر تبدو على ملامحه سيماء الخوف والترقب. وإذا بالباب يطرق طرقاً عنيفاً وبكوكبة من الشرط تدخل ويقول قائدها: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحد منهما أنا. خوفاً من أن ينال صاحبه مكروه. وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال: ترفقوا بنا فإن كلاً منا له علامات فوكلوا بنا بعضكم ويمضي بعضكم الآخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم. ففعلوا. وأخذ عبد الحميد!

كان عبد الحميد كاتباً لدى مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، لصيقاً به وحضر مع مروان جميع وقائعه عند آخر أمره حتى بوصير. ويحكى أن مروان قال له حين أيقن بخسارته وزوال ملكه: قد احتجت أن تصير مع عدوي وتظهر الغدر بي فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك يحوجهم إلى حسن الظن بك فإن استطعت أن تنفعني في حياتي وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي. فقال له عبد الحميد إن الذي أشرت به عليَّ أنفع الأمرين وأقبحهما بي. وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله تعالى أو أقتل معك وأنشد:

أسر وفـــاء ثم أظهـــــر غدرة فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهر؟

ويقولون إنه قتل مع مروان في بوصير أواخر سنة ١٣٢ من أعمال الفيوم لكن الكثيرين يذكرون أنه كان بين الهاربين وأنه نجا إلى حين واستخفى في

الجزيرة ثم البصرة. فغمز عليه فأخذ. ودفعه أبو العباس (المذكور حصاً بالسفاح) إلى صاحب شرطته عبد الرحمن بن عبد الجبار فكان يحمي له طستا بالنار ويضعه على رأسه حتى مات ...

وحقد العباسيين على الحميد مشتق من حقدهم على كل ما هو أموي أو على صلة بالأمويين وهو في الأصل من الأنبار من موالي بني عامر بن لؤي بن غالب. وسكن الرقة وشيخه في الكتابة سالم مولى هشام بن عبد الملك لكنه بزه حتى ظل الأدباء ودارسوا الأدب زمناً طويلاً يرددون بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد ومع أن كتاباً كثيرين سبقوا عبد الحميد الكاتب منذ عهد الرسالة حتى عهد مروان بن محمد آخر الأمويين وكتبوا لخلفائهم واحداً بعد الآخر إلا أن عبد الحميد يبرز بينهم على أنه الكاتب الأول وعلى أن الكتابة (الفنية) بدأت به! وانتهت بابن العميد.

ويقولون إن المنصور جيء إليه بعد قتل مروان بن محمد بعبد الحميد الكاتب والبعلبكي المؤذن وسلام الحادي وكلهم من أنصار الأمويين فقال: سلام استبقني يا أمير المؤمنين فإني أحسن الناس حداء قال وما بلغ من حدائك فقال تعمد إلى إبل فتظمئها ثلاثة أيام ثم توردها الماء فإذا وردت رفعت صوتي بالحداء فترفع رؤوسها وتدع الشرب ثم لا تشرب حتى أسكت. وجربه وعرف صحة كلامه فاستبقاه وأجرى رزقه. وقال البعلبكي المؤذن: أنا مؤذن. قال وما بلغ من أذانك قال جارية تقدم إليك طستاً وتأخذ بيدها إبريقاً وتصب عليك وابتدئ الأذان فتدهش ويذهب عقلها إذا سمعت أذاني حتى تلقي الإبريق من يدها وهي لا تعلم. فأمر بذلك فبقيت الجارية شاخصة وألقت الإبريق فاستبقاه. وأجازه وصير أمر الجامع إليه. وقال لعبد الحميد وأنت؟ قال أنا أبلغ أهل زماني في الكتابة فقال المنصور أنت الذي فعلت بنا الأفاعيل وعملت بنا الدواهي فأمر به فقطعت رجلاه ويداه ثم ضربت عنقه ...

وكثرة الروايات عن موت عبد الحميد أو قتله تدل على مقدار ما كان العباسيون يضمرون له من الشر. وأي المقاتل كان فقد خسر الأدب بقتله وخسرت الكتابة قطباً من أقطابها الأولين. ومما يذكرون أن عبد الحميد ساير مروان بن محمد على دابة قد طالت مدتها في ملكه فقال له مروان قد طالت صحبة هذه الدابة لك فقال يا أمير المؤمنين إن من بركة الدابة طول صحبتها وقلة عقلها. قال له وكيف سيرها؟ قال همها أمامها وسوطها عنانها وما ضربت قط إلا ظلماً!

كان عبد الحميد في أول أمره معلم صبية من أهل الشام يتنقل في البلدان وعنه أخذ المترسلون ترسلهم ولطريقته لزموا ولآثاره اقتفوا وكان واسع الثقافة عميقها مما أعانه على أن يكون في كل فن من فنون الأدب والعلم إماماً. وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل. ومجموع رسائله مقدار ألف ورقة ولا ننس أنه لم يدرك انتشار صناعة الورق ولو أدركها لتغير إنتاجه ونهجه وبالرغم من ذلك فقد أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب فاتبعه الناس واستعملوا ذلك بعده...

وذكروا أنه أهدى له بعضهم عبداً أسود فاستقله فقال لكاتبه: اكتب إلي هذا العامل كتاباً مختصراً وذمه على ما فعل وقل له لو وجدت لوناً شراً من السواد وعدداً أقل من الواحد لأهديته!!

ومن كلامه: القلم شجرة ثمرتها الألفاظ والبحر لؤلؤه الحكمة. ويقول ابراهيم بن العباس الصولي وقد ذكر عبد الحميد عنده: والله كان الكلام معاناً له ما تمنيت كلام أحد من الكتاب قط أن يكون لي مثل كلامه إلا عبد الحميد. وكتب عبد الحميد كتاباً على يد شخص بالوصاة عليه إلى بعض الرؤساء فقال: حق موصل كتابي إليك كحقك عليَّ إذ رآك موضعاً لأمله ورآني أهلاً لحاجته. وقد أنجزت حاجته فصدق أمله.

ولم يبق من هذا القلم الأول إلا بضع رسائل متناثرة .

ترى هل خسر الأمويون شيئاً بقتله في طست النار حين قتلوه ؟ وهل ربح العباسيون سوى التشفي ؟ وهو أسوأ المشاعر ؟

إنه برهان على أن الشرط والخلفاء والأعوان يموتون ويبقى الأدباء الكتاب تبقى الكلمة تتحدى النار والطست المحمى وتظل تروى وتروى . وتستدر الاعجاب .

فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ..

بلى ! يمكث في الأرض .

لولا (تساي ـــ لون)

لو سألت: من هو غوتنبرغ؟ في أي مدرسة ثانوية لارتفعت الأصابع تتسابق لتقول: إنه مخترع الطباعة!.. كذلك علمونا في المدرسة. والواقع أنه لا اخترع ولا ابتكر. وكل ما فعله أنه... أنه... لماذا لا نقص القصة من أولها.

وأولها يبدأ بعيداً جداً. يبدأ في الصين. فذات يوم بعد عيد الميلاد بمائة سنة ونيف تراكض خدم المدينة الملكية (وهي القصر الامبراطوري) يخبرون الامبراطور هوتي من أسرة هان أن تساي ـــ لون مات. وتلقى الامبراطور الخبر ببرود. ولو جاءه هذا الخبر قبل سنين لانزعج أو بكى! ولكن تساي لون الآن ليس ممن يهمه خبر موته أو حياته فهو من المغضوب عليهم. وكان من قبل الأثير المقرب. فمن تساي لون هذا؟ هو اسم غير معروف للناس في العالم كله. الكثير من دوائر المعارف الضخمة والكتب التاريخية تتجاوزه مع أنه قدم أعظم وأروع خدمة للفكر الإنساني، الورق. بلى هذا الصيني هو الذي ابتكر طريقة صنعه. السجلات الصينية الرسمية وصفته بأنه مخترع الورق كما وصفته بالصدق والاستقامة.

ونحن نجهل، بل والصين نفسها، تجهل الكثير عن حياة هذا الرجل لولا بعض الإشارات والتلميحات. فقد تعمدت السجلات الرسمية الامبراطورية إزاحة اسمه وعدم الإشادة بذكره. ومما نعلم عنه أنه كان من الخصيان وأن الامبراطور هوتي كان شديد السرور من اختراع تسايلون لعجينة الورق وصنعه له وقد قربه وأعلى مرتبته وأعطاه لقباً أرستقراطياً وجعله ثرياً وأمر

الامبراطور بأن يبقى الاختراع سراً من أسرار المدينة الامبراطورية فلا يصنع إلا ضمن قصره . ويمنع على أي صانع أن يذيع سر صناعته .

على أن وساوس الشيطان سولت لتساي ــ لون أن يتدخل في سياسة الدولة ، ويتورط في مؤامرات البلاط ومكائده . واكتشف أمره وبلغ الامبراطور . وما أكثر الحساد والساعين بالشر . فحين علم تساي ــ لون بذلك كان عليه أن يكفر عن غلطته . خيانة الامبراطور ألبسته الخزي ،لذلك تحمم ثم لبس أفخر ثيابه وشرب السم !

كانت الكتب ، قبل تساي ــ لون تصنع في الصين من قشر الخيزران فهي ثقيلة جداً وغير مصقولة ولا متقنة الصنع . وكان بعضها يكتب على الحرير وهو غالي الثمن في حين كانت الكتب في المشرق وفي أوروبا تكتب على الرق . يصنعونه من جلود الغنم أو الغزال أو العجول . كما كانوا يستخدمون ورق البردى النباتي (البابيروس) وكان المصريون يصنعونه . وقد استخدمه الرومان واليونان . على أنها كلها كانت من المواد الغالية الثمن والنادرة الوجود . ولم يكن بالإمكان إنتاج أكثر من نسخة من الكتاب إلا بمشقة بالغة وسهر الليالي الطويلة في الكتابة . . .

بعد أواسط القرن الثامن كشف العرب سر صنع الورق وأذاعوه من سمرقند إلى بغداد إلى دمشق إلى مصر إلى القيروان ثم إلى قرطبة . وتفننوا في صنعه وأخذته عنهم أوروبا فصنعته بدورها منذ القرن الثالث عشر . . .

ونعود إلى غوتنبرغ المولود في مينز بألمانيا سنة ١٣٩٧ لقد أخذ اسم غوتنبرغ من أمه أما اسم أبيه فهو غينزفليش . ولم يكن برجل أعمال ناجح . بدأ العمل بالطباعة في أواسط القرن الخامس عشر ؛ أي وهو في حوالي الأربعين من العمر واستخدم حروف الطباعة المنفصلة . وقد نافسه على شرف ابتكار

هذه الطريقة آخرون عديدون من هولندا وألمانيا. ويظن أنه عاش في استراسبورغ أولاً، حيث أقام آلة الطباعة ثم أنشأ مطبعة في مينز مسقط رأسه. وطبع (أنجيل مازران. المسمى توراة غوتنبرغ) وقد تورط في محاكمات قضائية انتهت إحداها بمصادرة آلة للطباعة. وبيعها لشريكه يوهان فوست كي يسدد ديونه. وعلى طريقة الأوروبيين في نسبة كل عمل عظيم إليهم فقد جعلوا من غوتنبرغ أبا الطباعة. والحقيقة أن طريقة حفر الحرف معكوساً على الخشب أو الحجر أو غيرهما ثم دهنه بالحبر وكبس ورقة عليه طريقة معروفة منذ القديم. الأختام وخواتم التواقيع الكبيرة كانت تقوم على هذه الطريقة في الصين وغيرها قبل غوتنبرغ بقرون طويلة. وقد اكتشف كتاب مطبوع من الصين يرجع تاريخه إلى سنة ٨٦٨ كما اكتشفت كتب طبعت على المبدأ نفسه في الفيوم بمصر. والطباعة بالحفر على الخشب أو لوح الحجر كانت تخرج عدة نسخ من الكتاب المطبوع. لكن كل كتاب جديد أو كل تصحيح كان يحتاج لوحة جديدة وهو عمل واسع التكاليف وغير عملي.

وقد يقال إن عبقرية غوتنبرغ كانت في اختراع الحروف المتحركة. وهذا بدوره غير صحيح فقد اخترعت الأحرف المتحركة بدورها في الصين. في أواسط القرن الثاني عشر (أيام الحروب الصليبية في المشرق) واسم صانعها الأول هو باي شينغ. وقد صنع الحروف من الخزف. صحيح أنها لم تكن متينة. ولكنها تحسنت على يد عدد من الصينيين. والكوريين وإن لم تنتشر الانتشار الواسع في الصين إلا بعد انتشار الطباعة الأوروبية.

وقبل أن يعرف غوتنبرغ العالم بزمن طويل كان الكوريون يستخدمون الأحرف المعدنية. وكانت الحكومة الكورية تدعم مؤسسة لإنتاج أحرف الطباعة في أوائل القرن الخامس عشر... قد لا يكون غوتنبرغ قد اطلع على هذا التطور الهام في الصين وكوريا. وقد يكون توارد الخواطر أوحى لرجلين

أحدهما في أقصى الشرق والثاني في أقصى الغرب بالفكرة ذاتها. ولكن الفضل دوماً للمتقدم ...

على أن أهم عناصر الطباعة قبل الحروف المتحركة وقبل آلة الطباعة ونوع الحبر هو وجود المادة التي يجري الطبع عليها. ولقد كان من العسير جداً على غوتنبرغ أو غيره أن يطبع على الجلد أو على الحرير أو ورق البردى أو رقائق الخشب. المادة التي يسرت له الطباعة وجعلتها سهلة ممكنة وغير مكلفة هي الورق ... الورق الذي كشف عجينته وطريقة صنعه تساي ــ لون. وقد يقولون إن فضل غوتنبرغ على الطباعة هو أنه جمع كل العناصر اللازمة لها معاً: جمع الأحرف المتحركة وصنع الآلة الطابعة (المكبس) والنوع المناسب من الحبر والمادة المناسبة للطبع عليها أي الورق ... ووضع جميع هذه العناصر المأخوذة من غيره في نظام فعال ذي مردود في الإنتاج بالجملة ...

ونجح في هذا المشروع! بعد أن تعاونت على تكوينه عقول عديدة جداً لمدة تزيد على ثلاثة عشر قرناً.

لكن لولا ورق تساي ــ لون فهل كان لغوتنبرغ اسم من الأسماء؟

ابن الفرات

فيما بين القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع الهجري الذي بلغت الحضارة الإسلامية فيه أوجها، كانت بغداد تفور وتغلي بالكبراء والوزراء والمتمولين وجملة العلماء والفنانين والشعراء. كانت كالشجرة المثقلة بالثمار ما من طائر غرد أو غير غرد إلا ويهبط فيها ويلتمس من نعمائها... هو وحظه... وكانت ثروات بعضهم تصل ملايين الدنانير وكانت تموج بالجنود الترك والخراسانية والمتطوعة ويبرز فيها كل فترة بارز من القادة فتكون له الغلبة وتخضع الرقاب. ويأخذ التناحر على المال والجاه حده فما من وازع... أما الطبقات الدنيا فمسحوقة في الطين، وفي المراكب المسكينة على دجلة وفي الأزقة الموحلة فلا تكاد تعيش إلا من قلة الموت! مع أنها كانت تعيش في مركز الدنيا، بغداد.

في تلك الفترة شُغلت دنيا الناس سنوات باسم ابن الفرات. أبي الحسن علي بن محمد وهم إن لم يتحدثوا عن توليه الوزارة ثلاث مرات تحدثوا عن ملايين الدنانير التي يملك وعن عشرات الضياع التي تصب خيراتها في مخازنه أو لا فهم يتحدثون عن مزاياه بين معظم له ومهون من أمره...

كان ابن الفرات من التجار والإقطاعيين الكبار قبل أن يصبح وزيراً خطيراً. واتفق في سنة ٢٩٦ أن توفى الخليفة المعتضد وله ولد في الثالثة عشرة من العمر نصبوه بلقب المقتدر. ولم يكن مقتدراً على شيء فاجتمع جماعة من القواد والقضاة والكتاب على خلعه وتناظروا في من يخلفه فأجمع رأيهم على عبد

الله ابن المعتز وهو من كبار الشعراء وابن البيت العباسي فأجابهم على ألا يكون في ذلك سفك دم ولا جرب فطمنوه أن ذلك يسلم إليه عفواً . وأن جميع من وراءهم من الجند والقواد والكتاب قد رضوا به فبايعهم على ذلك . وفي الغد خلعوا المقتدر وأخذوا في البيعة لابن المعتز . . .

فيما كانوا في ذلك اخترقت نهر دجلة زوارق فيها جند يسوقهم مؤنس الخادم وأخذوا يرمون الجموع المجموعة للبيعة بالحجارة والنشاب وتهارب الناس ومن في الدار من الجند والقواد والكتاب وهرب ابن المعتز نفسه . وبعضهم هرب إلى جماعة المقتدر واختفى بعض وقتل بعض وانتهبت الدور وأخذ ابن المعتز فيمن أخذ بعد أن اختفى في دار ابن الحصاص الجوهري التاجر . وسلمه المقتدر إلى مؤنس الخادم الذي خنقه ودفنه في خربة بإزاء داره وعمره لا تزيد على ٤٦ سنة ! ثم قبضوا باسم المقتدر الصبي على ابن الحصاص وأخذوا منه مقدار مليوني دينار !

ومات الشاعر . . . واستوزر المقتدر أبا الحسن بن الفرات . وكانت هذه أول وزارة من ثلاث وزارات تولاها وانتهت كل منها بنكبة له . كان الخليفة المقتدر يلجأ إليه كلما ضربته أزمة . وزر له أول مرة ما بين سنتي ٢٩٦ ـــ ٢٩٩ فانتهت وزارته بأن نكبه نكبة نهبت داره وأمواله واستغل الخليفة أملاكه التي يملك حتى عاد إلى الوزارة في المرة الثانية مقدار تسعة ملايين دينار وذكروا عن ابن الفرات أنه كتب إذ ذاك إلى الأعراب كي يكبسوا بغداد وينهبوها . . .

وعاد ابن الفرات إلى الوزارة أواخر سنة ٣٠٤ وخلع عليه الخليفة سبع خلع وحمل إليه ثلاثمائة ألف درهم لغلمانه وخمسون بغلاً لثقله وعشرون خادماً وغير ذلك من العدد والآلات . وزاد ثمن الشمع ذلك اليوم في كل منٍّ قيراط

ذهب لكثرة ما استعمل منه! وكان النهار حاراً فسقى في ذلك النهار في داره أربعين ألف رطل من الثلج.

دامت هذه الوزارة إلى سنة ٣٠٦ وقبض عليه. لكنه عاد للمرة الثالثة سنة ٣١١ من السجن إلى الوزارة فخرج مغتاظاً وأطلق يد ابنه المحسن فقتل حامد بن العباس الوزير السابق... وقد قبض على ابن الفرات مرة ثالثة سنة ٣١٢... وسيق إلى السجن! ولكن صاحب الشرطة قتله مع ابنه وعمره واحد وسبعون سنة وعمر ابنه ثلاث وثلاثون!

وانتهت قصة الوزير ابن الفرات ليبقى منها الأحاديث والذكر...

كانت أمواله تزيد على عشرة ملايين دينار وكان يستغل من ضياعه في كل سنة مليوني دينار ولكي نعرف معنى هذه الثروة في ذلك الوقت يكفي أن نعلم أن الدينار كان يساوي أربعة عشر درهماً وأن أجر معلم البناء كان درهمين ونصف الدرهم في اليوم وثمن الخرِوف بين الدرهمين والثلاثة. فكم ذا تبلغ هذه الثروة... وعلى حساب من؟ على حساب عشرات الألوف السائبين في أزقة بغداد! ضخامة المال في جانب تكشف قلتها في جانب آخر...

وجنون الفقرِ لا يثيره إلا جنون الغنى.

على أن ابن الفرات كان له وجهه الآخر الإيجابي المحبوب. فقد كان كاتباً كفياً كل الكفاية. خبيراً بحسابات الدولة وقد كان مع ابنه مرة في السجن فقال الخليفة المعتضد لبعض أصحابه: دفعت إلى ملك مختل وبلاد خراب ومال قليل وأريد أن أعرف ارتفاع (أي مبلغ ضرائب) الدنيا لتجري النفقات عليه. طلب ذلك من جماعة الكتاب فاستمهلوه شهراً وعلم ابن الفرات بالخبر وهو في السجن فعمله مع ابنه في يومين. فعفا عنه وأعاده للوزارة!

وكان في الكرم غريب المثال: كانت في داره حجرة شراب يوجه الناس

على اختلاف طبقاتهم إليها غلمانهم يأخذون منها الأشربة والفقاع والجلاب إلى دورهم بالمجان! وكان يجري الرزق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوت والفقراء. أكثرهم مائة درهم في الشهر وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك. ومن فضائله التي لم يسبق إليها أنه كانت إذا رفعت إليه قصة فيها سعاية بأحد خرج من عنده غلام فنادى أين فلان الساعي؟ فلما عرف الناس ذلك من عادته امتنعوا عن السعاية بأحد. واغتاظ يوماً من رجل فأمر بضربه مائة سوط. ثم أرسل رسولاً يقول اجعلوها خمسين وألحق به رسولاً آخر يقول لا تضربوه وأعطوه عشرين ديناراً فكفاه ما مر به المسكين من الخوف!

ويذكرون أنه قام من مرضه وقد اجتمعت الكتب والرقاع عنده فنظر في ألف كتاب ووقع في ألف رقعة. وكان من أدبه أنه دعا خاتم الخلافة ليختم به كتاباً فلما رآه قام على رجليه تعظيماً للخلافة. وكان إذا مشى الناس بين يديه غضب وقال أنا لا أكلف هذا غلماني فكيف أكلف أحراراً لا إحسان لي عليهم. وذكروا عنه أن رجلاً اتصلت عطلته وانقطعت مادته فزور كتاباً من ابن الفرات إلى أبي زنبور الماذرائي عامل مصر يتضمن الوصاية به والتأكيد في الإحسان إليه فلما وصل الخطاب شك فيه الماذرائي واحتبس صاحبه عنده حبساً جميلاً وبعث إلى ابن الفرات يتأكد من صحة الكتاب وفي ما رابه منه. ونظر ابن الفرات فرأى الكتاب مزوراً. فقال لكتابه ما نفعل بالرجل قال بعضهم نقطع إبهامه لئلا يعود إلى مثلها وقال آخر نؤدبه ونحبسه وقال ثالث يرسم لأبي زنبور طرده وحرمانه فقال ابن الفرات ما أبعد طباعكم عن الخيرية. رجل توسل بنا وتحمل المشقة إلى مصر يأمل الصلاح بجاهنا يكون أحسن أحواله عند أحسنكم محضراً تكذيب ظنه؟ لا والله لا يكون ذلك أبداً. ثم أخذ الدواة والقلم وكتب: هذا كتابي ولست أعلم لم أنكرت أمره وليس كل من خدمنا تعرفه. وهذا رجل خدمني أيام نكبتي. فوفر رفده. فيما يعود عليه نفعه ويحقق ظنه...

وبعد مدة طويلة دخل على ابن الفرات رجل يقبل يديه ويبكي ويدعو له ويقبل الأرض قال ابن الفرات : من أنت؟ قال صاحب الكتاب المزور ! لقد وصلني منه عشرون ألف دينار ! ووجده ابن الفرات كاتباً سديداً فاستخدمه !

وقد تتساءلون : رجل بمثل ذلك المال والجاه والكرم والسمعة ما الذي قتله ؟

قتله حب الحكم ! ظل يحوم حوله كالفراشة حول النور حتى سقط جثة هامدة ! وكم للسياسة من قتيل !

الامبراطور الأول

الدنيا حظوظ وأعتاب. هكذا يقولون إن أرادوا تفسير ما لا يفسر من أحوال الدنيا المحيرة. وهكذا يمكن لنا أن نقول ونحن نذكر شخصية من أقوى شخصيات الصين القديمة وأعذبها هو (شي هوانغ تي ...).

أسرة شين التي يتحدر منها هذا الرجل كانت بعضاً من شعب على حدود الصين في الشمال الغربي. نزل هذا الشعب في وادي تزكوان الخصيب سنة ٣٠٨ق.م. أي حوالي الزمن الذي أنهى به الاسكندر المقدوني فتوحاته في الشرق حتى الهند... ومات قبل ثمانين سنة من ظهور مثيله الصيني شي هوانغ تي. فهذا بدوره اسكندر آخر، صيني. ليس أقل طموحاً ولا شجاعة ولا فتوحاً من زميله المقدوني!.. ونحن نعرف الاسكندر وتفاصيل مروره بأرضنا ونحس حتى اليوم وقع سنابك خيله ونذكر خلفاءه وحروبهم وأما شي هوانغ تي فمن هو في الفاتحين؟ الباحثون الأوروبيون يشبهونه بنابليون بونابرت ولكن الفارق بين الاثنين أن الأول نجح وترك بصماته في الصين إلى عهد قريب جداً والثاني فشل وانتهى بسانت هيلانة منفياً وإن كان ضجيج باريس حوله يملأ الأسماع.

لم يكن شي هوانغ تي يحمل هذا الاسم. اسمه الأصلي تشنغ. وإنما اتخذ لنفسه مثل نابليون لقب شي هوانغ تي وتعني الامبراطور الأول بعد أن استحق هذا اللقب في المعارك الناجحة. ولم يزد عمره كله عن خمسين سنة فقد ولد سنة ٢٥٩ق.م. وتوفي سنة ٢١٠ق.م. ولد في السنوات الأخيرة لعهد أسرة

شوا التي قامت حوالي سنة ١٠٠ق . م . وكانت قبل عهده بقرون تضمحل وتضمحل حتى لتحتاج إلى من يزيل أنقاضها المهترئة عن العرش ثمانمائة سنة من الحكم نخرتها كالسوس نخراً . وكانت أسرة شين إحدى الأسر الإقطاعية . والصين هذه القارة الصفراء التي يزحف فيها نهرا يانغ تسي كيانغ والنهر الأصفر كالثعابين الهائلة من الغرب إلى الشرق كانت مع الأيام قد تقسمت إلى عدد كبير من الدويلات الإقطاعية ، في كل إقطاع أمير متنفذ وشعب تفترسه الأمية والأمراض . ويجرف منه الفيضان كل سنة مئات الألوف من الساكنين في القوارب على الضفاف . والصناعة على نفاستها لم تكن تقوم بأود الصناع فالفقر يفترس الوجوه والأعين من الفقراء والحمالين والباعة . وأما الفلاحون فعبيد الأرض يعيشون عليها ويموتون كبعض نباتها وأشجارها ... أما أطماع الإقطاعيين بعضهم في بعض فكانت تقودهم إلى حروب ومنازعات لا تنتهي . وإذا زالت بهذا الشكل بعض الإقطاعات الصغيرة فإن الكبيرة منها كانت طموحاً دائماً إلى التوسع على حساب الأخريات . وكانت أسرة شين الإقطاعية واحدة من هذه الدويلات الناشئة في القسم الغربي من البلاد ، لكنها بسبب موقعها الجغرافي البعيد ، ومقدرة حكامها كانت تنمو باستمرار وتتوسع حتى أصبحت أقوى دويلة في الزمن الذي ولد فيه تشنغ . وحين تولى الحكم سنة ٢٣٨ق . م . كان همه أن يصل المدينة الامبراطورية ، قصر الأباطرة العتيد في بكين ! والسبيل إلى ذلك ليس هزيمة الأسرة المالكة المهترئة ولكن هزيمة الإقطاعيين .

اختار تشنغ قواداً أكفاء لجنوده . وقادهم بضراوة وتصميم ضد الدويلات الإقطاعية الأخرى . لم يكن يبالي بالدماء التي تسفح ولا بوقفة حصن ممرد . كان يفاوض ويخادع ويفتك بقسوة الجبابرة ظل يقاتل ١٧ سنة فلما هزمت الدويلة الأخيرة وسقطت أسرة شوا قبلها اختار تشنغ لنفسه لقب شي هوانغ هو . ألا يستحق لقب الامبراطور الأول ؟

كان في نفسه عقدة ضد الإقطاع والإقطاعيين ولو أنه كان منهم . ولكن الحروب الطويلة والمريرة التي قاساها في هدمهم جعلته يلغي النظام الإقطاعي كله . لا إقطاع . ووظيفة حاكم المقاطعة لم تعد وراثية ولكنها وظيفة يعين لها الامبراطور من يشاء ثم أخذ ينقل الحكام من مقاطعة لأخرى خشية أن تسول لأحد نفسه فينافس الامبراطور وأقام مجموعة من الطرق تصل العاصمة بالمقاطعات لتكون حركته إليها سريعة ومباغتة . وأشرف بنفسه على إنشاء الطرق والقنوات . ووحد العملة وكانت أشكالاً شتى وبعضها مما ضرب الإقطاعيون وأصلح المكاييل والموازين ووحد القوانين بين مختلف المقاطعات وتدخل حتى في إصلاح صورة الكتابة المعقدة !

كل هذه الأمور والإصلاحات كانت تعني توحيد الصين تشريعاً وموازين وكتابة وعملة وطرقاً وإدارة وثقافة بعد أن وحدها عملياً بقوة السلاح وكان من حظه أو حظ الصين أن هذه الوحدة المفروضة استمرت قائمة حتى اليوم . ألم نقل إن الدنيا حظوظ ؟

ولعل أشهر وأهم الأعمال قام بها شي هوانغ تي بعد هذا هي :

- قراره الذي أصدره سنة ٢١٣ق . م . وأمر فيه بإحراق جميع الكتب في الصين باستثناء كتب الطب والزراعة والتقنية بالإضافة إلى سجلات أسرة شين (الرسمية) والأعمال الفلسفية للكتاب القانونيين . وهكذا شهدت مدن الصين أكواماً من كتب الخيزران والحرير تحرق في ساحاتها العامة بما فيها كتب كونغ فوتسي أي كونفوشيوس وكتب المدارس الفلسفية الأخرى كافة ... على أن كونفوشيوس وحده نهض من تحت الحرائق والنيران . فالصينيون لم يستطيعوا التخلي عنه وعادوا إلى فلسفته القائمة على الأخلاقية الشخصية وعلى مفهوم حكومة تخدم الشعب وتسودها المثل الأخلاقية . وكانت أشبه بالدين للناس .

ـــ العمل الثاني : إقامة سور الصين العظيم . لقد بناه على مسافة خمسة آلاف كم على رؤوس الجبال رابطاً به الحصون الشمالية بعضها مع بعض لمنع هجمات الهوسونع (أي جماعات الهون المغولية التي هاجمت أوروبا في القرن الخامس للميلاد) حتى تونكين . وهذا السور مايزال قائماً منذ ٢٢٠٠ سنة وقد تحول إلى معلم من معالم السياحة في الصين .

ـــ العمل الثالث شق قناة وصل بها النهرين الأعظمين يانغ تسي والنهر الأصفر ويسر الملاحة بينهما والمسافة تزيد على ألفي كم .

ـــ العمل الرابع : أنه أقام للحكومة نظاماً هرمياً ظل قائماً فيها ومتبعاً حتى القرن العشرين .

كل ذلك كان خلال عهد لم يمتد أكثر من ١٤ سنة بعد النصر على الإقطاعيين .

على أن إنشاء السور بعد سلسلة الحروب الطويلة أجبرت شي هوانغ تي على فرض الضرائب العالية مما خلق جفوة بينه وبين الشعب . ولكن من ذا الذي يجرؤ على العصيان ضد حكمه الحديدي ؟ لذلك حدثت عدة محاولات لاغتياله وفشلت . ومات الامبراطور الأول الموت الطبيعي سنة ٢١٠ ق . م .

ألم نقل إن الدنيا حظوظ وأعتاب .

الشعبي أبو عمرو

في حلقة سمر أقبل الأصحاب يتحدثون عن الشعبي واختلط الأمر على بعضهم فأخذوا يتحدثون عن أشعب وفضوله ونوادره. وانتظر واحد من الصحب حتى فرغ الجمع من النوادر ومن الضحك وضحك معهم منها ثم قال إن الشعبي هو غير أشعب والبعد بين الاثنين كبعد العنب عن البطيخ وأخذ يحدث الجمع عن الشعبي كأنه يتلو من كتاب قال:

أبو عمرو عامر بن شراحيل الشعبي يمني سليل قيل من أقيال اليمن اسمه ذو كبار، من حمير. وعداده في هَمْدَان... وهو كوفي من التابعين جليل القدر وافر العلم. مر به عبد الله بن عمر بن الخطاب يوماً وهو يحدث بالمغازي فقال: شهدت القوم وإنه أعلم بها مني! والعلامة الزهري — وهو من تعرفون — قال العلماء أربعة: ابن المسيب في المدينة والشعبي في الكوفة والحسن البصري في البصرة ومكحول بالشام. ويقال إنه أدرك خمسمائة من أصحاب رسول الله... عاش أيام عبد الملك بن مروان والحجاج وبعدها...

وران على الأصحاب صمت. سكتوا يستمعون. وقال المتحدث: قرأت في وفيات الأعيان حكاية رواها الشعبي قال: أنفذني عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم فلما وصلت جعل لا يسألني عن شيء إلا أجبته. وكانت الرسل لا تطيل الاقامة عنده فحبسني أياماً كثيرة حتى استحثثت خروجي. فلما أردت الانصراف قال: من أهل بيت المملكة أنت. فقلت لا! ولكن رجل من العرب من الجملة فهمس بشيء فدفعت إلى رقعة وقال لي: إذا أديت

الرسائل إلى صاحبك فأوصل إليه هذه الرقعة. قال فأديت الرسائل عند وصولي إلى عبد الملك وأنسيت الرقعة. فلما صرت في بعض الدار أريد الخروج تذكرتها فرجعت فأوصلتها إليه فلما قرأها قال لي: أقال لك شيئاً قبل أن يدفعها إليك فرويت له ما كان. ثم خرجت فلما بلغت الباب ردني عبد الملك قال: أتدري ما في الرقعة قلت لا قال: اقرأها فقرأتها فإذا فيها عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره؟ فقلت والله لو علمت ما حملتها وإنما قال هذا لأنه لم يرك. قال أفتدري لم كتبها؟ قلت لا قال حسدني عليك وأراد أن يغريني بقتلك. قال الشعبي: فتأدى ذلك إلى ملك الروم فقال: ما أردت إلا ما قال...

ولما حمل الشعبي إلى عبد الملك وصار نديمه قال له: يا شعبي لا تساعدني على قبح ولا ترد على الخطأ في مجلسي. واجعل بدل التعريض صواب الاستماع مني وإذا سمعتني أتحدث فلا يفتك منه شيء. ولا تطرني فإن أسوأ الناس حالاً من شكر الملوك بالباطل وأسوأ منه من استخف بهم...

وكان أعرابي يجالس الشعبي ويطيل الصمت فقال له الشعبي يوماً ألا تتكلم فقال: أسكت فأسلم وأسمع فأعلم. إن حظ المرء في أذنه له. وفي لسانه لغيره! وكانت للشعبي كلمات كالحكم:

قال رجل للشعبي كلاماً أقذع فيه فقال له: إن كنت صادقاً غفر الله لي وإن كنت كاذباً غفر الله لك:

ليست الأحلام في حال الرضى ... إنما الأحلام في وقت الغضب

كان الشعبي يقول: درة عمر أهيب من سيف الحجاج! ويقول أيضاً من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها.

وقد أحضر الشعبي يوماً بين يدي الحجاج وكان قد خرج مع الخارجين ينصرون عبد الرحمن بن الأشعث ضده في ثورته التي انتهت في دير الجماجم.

فسلم الشعبي على الحجاج بالإمرة ثم قال :

أيها الأمير ! إن الناس قد أمروني أن أعتذر إليك لغير ما يعلم الله أنه الحق . وأيم الله لا أقول في هذا المقام إلا حقاً . قد والله خرجنا عليك وجهدنا كل الجهد . وما كنا بالفجرة الأقوياء ولا البررة الأتقياء وقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إلينا أيدينا فإن عفوت عنا فبحلمك . وبعد فالحجة لك علينا !

فقال الحجاج : أنت والله أحب إلي ممن يدخل عليَّ بقطر سيفه من دمائنا ثم يقول : ما فعلت وما شهدت قد أمنت عندنا يا شعبي فانصرف . وقال الحجاج :

يا شعبي ما كان عبد الرحمن يزجر حين رآني نزلت دير قرة ونزل هو دير الجماجم محارباً . وكان أبداً يقول هذا الكلام على سبيل الفأل والزجر .

وكلم الشعبي عمر بن هبيرة الغزاري أمير العراقين في قوم حبسهم ليطلقهم فأبى فقال له : أيها الأمير إن حبستهم بالباطل فالحق يخرجهم وإن حبستهم بالحق فالعفو يسعهم . فأطلقهم .

وربما كان الشيء الوحيد الذي يقرب بين الشعبي وأشعب حب الاثنين للمزاح . وكان الشعبي مزاحاً . قيل له يوماً وكان ضئيلاً نحيفاً . ما لنا نراك ضئيلاً ؟ قال : زوحمت في الرحم وكان قد ولد هو وأخ آخر في بطن واحد . ويقال : إن الحجاج بن يوسف قال له يوماً كم عَطاءَك في السنة ؟ فقال : ألفين فقال ويحك كم عطاؤك قال ألفان . قال الحجاج كيف لحنت أولاً ؟ قال لحن الأمير فلحنت فلما أعرب أعربت . وما كان ممكناً أن يلحن الأمير وأعرب أنا . فاستحسن ذلك منه وأجازه . ويحكى أن رجلاً دخل عليه البيت وفيه امرأته فقال أيكما الشعبي فقال : هذه ! وأشار إلى المرأة !

توفى الشعبي فجأة بعد المائة الأولى للهجرة بسنوات . والغريب أنهم

اختلفوا في ولادته فذكروا عدة سنوات وفي وفاته فذكروا مثل ذلك مع أنه كان من مشاهير التابعين والعلماء ورواة مغازي الرسول... ونسبته ليست إلى الشعب ولكن إلى شَعب وهو بطن من همدان كان ذا شعبتين فمن كان بالكوفة منهم قيل لهم شعبيون ومن كان بمصر والمغرب قيل لهم الأشعوب ومن كان بالشام قيل لهم شعبانيون ومن كان بقي باليمن قيل لهم آل ذي شعبين!

قال صاحبنا هذا كله فإذا به ينتبه إلى أن اثنين عادا إلى لعب الطاولة وهو يتحدث فقال آسفاً:

يا قارئ العلم بين الجاهلين خطا!

وضحك الجميع.

فرنسيس باكون

هل يستطيع العلم والتكنولوجيا أن يغيرا وجه العالم؟ هذا السؤال مطروح اليوم. وثم الملايين ممن يجيبون عليه بالإيجاب. فآلاء العلم والتكنولوجيا تسد علينا الدروب. أما أن يطلق هذا السؤال قبل ٤٥٠ سنة فذلك غريب. لم يكن ثمة من يفهمه أو يجيب عليه. أول من طرحه وأدرك أنه رهان المستقبل هو هذا الرجل فرنسيس باكون.

كان العلم الحديث ما بين أواسط القرن السادس عشر وأواسط القرن التالي له ما يزال يحبو ويتلمس الطريق. وكانت الكشوف والمبتكرات ما تزال كالنجوم تضيء وتنطفىء هنا وهناك. ولم تكن الصناعة قد عرفت آلاتها ولا الفكر العلمي قد استبان المنهج الصحيح. وكانت يد الكنيسة ما تزال آخذة بخناق العلم والعلماء وهم يفلتون منها بين آونة وأخرى. في ذلك الوقت ولد فرنسيس باكون في لندن سنة ١٥٦١ في أسرة ميسورة الحال فأبوه كان أحد كبار الموظفين أيام الملكة إليزابيت، ملكة بريطانيا. وحين بلغ الثانية عشرة أدخله أبوه كلية ترينتي في جامعة كمبردج، وهي كلية الصفوة المختارة. ولكنه ترك الدراسة بعد أربع سنوات دون أن يحصل على شهادة جامعية. فألحقه أبوه بنفوذه بالسفارة البريطانية في باريس، موظفاً فيها ولكن والده توفي بعد سنتين مما اضطره للعودة إلى لندن ليجد الأسرة تنتظر إعالتها. فالوالد لم يترك لها أي مال فعاد باكون يعمل ويدرس في الوقت نفسه القانون حتى تخرج وهو في الحادية والعشرين وسلك في مهنة المحاماة.

لم يكن منتظراً لهذا المحامي أن يصبح فيلسوفاً أو أن يهتم بالعلم ومناهجه ولكن ذلك كان هواية من هواياته ، ولم يكن التخصص الدقيق قد صار سمة العصر فقد كان المجال الفكري مفتوحاً للفكر الموسوعي وأبعاده اللانهائية . لكن باكون لم يغرق في هذه الهواية . فقد اجتذبته إليها السياسة أكثر . فانتخب عضواً في البرلمان البريطاني . وظهر بمعارضته لمشروع قدمته الملكة إليزابيت لزيادة الضرائب مما أوجد نوعاً من النفور بينه وبين الملكة ومن الكره أيضاً . وكان في البرلمان نواة تعارض الملكة وتحاول الخلاص منها فانحشر باكون في هذه الزمرة . وتقرب من المعارضين وأضحى صديقاً ومستشاراً لزعيمها (الايرل اسكس) الأرستقراطي الطموح الذي كان يعطف على باكون ويدعمه .

وقرر الايرل اسكس القيام بانقلاب ضد الملكة إليزابيت . وفاتح باكون بالأمر فرفض الاشتراك معه قائلاً أنه يضع ولاءه للملكة في الدرجة الأولى من سلم الأوليات التي لا تمس . ولكن أسكس مضى في مخططه التآمري . وفشل التآمر وقبض عليه وأحيل للمحاكمة . ودهش الناس حين رأوا باكون يقف بقوة في جانب الملكة ، رغم كثرة من يعادونها وأهميتهم ، ويلعب دوره الهام في ملاحقة صاحبه اسكس قضائياً والحكم عليه بالإعدام . كل إنكلترا تجهمت في وجه باكون وأبغضت فيه هذا التقلب وخاصة بين طبقات الشعب . أضحى منبوذاً من الناس ، لكنه بالمقابل أصبح أقرب إلى أصحاب العرش البريطاني .

وهكذا ما إن توفيت الملكة إليزابيت سنة ١٦٠٣ وجاء بعدها الملك جيمس الأول حتى عين باكون مستشاراً له .. صحيح أن جيمس لم يكن يتبع نصائحه ومشوراته ولكن باكون تمتع بميزات هذا المنصب وتدرج في المراتب الحكومية حتى دخل سلك قضاة الدولة ، ثم أضحى قاضي القضاة . وأخذ لقب بارون أولاً ثم لقب فيكونت . صار من أبرز الأرستقراطيين يرفده في ذلك

لسان ذرب وتنظيم فكري وقوة حجة .

وكان العهد كله عهد فساد ورشوة لا يتورع عنها حتى القضاة . وانطلق باكون مع فساد عهده مع أن العقوبة على ذلك كانت قاسية . وقد استطاع مبغضوه وهم كثيرون أن يوقعوه في الفخ . وقام خصومه في البرلمان يتهمونه بالرشوة لتنحيته عن السلطة . ونجحوا في ذلك . واعترف باكون بالرشوة وحكم عليه البرلمان بالسجن في برج لندن وبدفع غرامة كبيرة وبالمنع من التوظف في أي وظيفة عامة مدى الحياة !!! ومع أن الملك الذي كان يقدره أطلقه من السجن وألغي عنه الغرامة ، إلا أن باكون خسر حياته السياسية لأنه ليس في إمكان الملك ولا غيره إعادته إليها . وكانت تلك الكارثة هي السبب في تحول حياة باكون من العمل السياسي ــ القضائي إلى ميدان المنهج العلمي الذي أبقى اسمه علماً بين رسل عصر العلم الحديث . كانت مصيبة من جهة وخيراً عميماً للفكر الإنساني من جهة أخرى . ولقد علق باكون على قرار مجلس البرلمان قائلاً : « لقد كنت أعدل قاض في بريطانيا منذ خمسين عاماً . ولكن حكم البرلمان على كان أعدل حكم أصدره البرلمان منذ مائتي عام ! » وانتهى بهذا الحكم دوره الأسود ليبدأ الدور الذهبي . كفلت ثروة باكون له حسن العيش فانصرف إلى هوايته الأولى العلم وبدأت بذلك شهرته الفكرية ! كتابه الأول : المقالات الذي أصدره سنة ١٥٩٧ لم يكن شيئاً كثيراً في هذا الميدان . كتب بأسلوب انتقادي لاذع ولكنه لامع جذاب . قال فيه : إن الشباب يصلحون للابتكار أكثر منهم للحكم ، وللتنفيذ أكثر من إسداء النصح ولعمل المشاريع الجديدة أكثر من إدارة المشاريع المستقرة . أما الرجال الكبار فيعارضون كثيراً ويقضون الوقت في الاستشارة وقلما يغامرون . ومن الخير أن يستفيد من فضائل الطرفين فإن بعضها يتمم الآخر .

على أن أهم كتاب أصدره كان في فلسفة العلوم واسمه التجديد العظيم

في ستة أجزاء تناول في الأول حالة المعرفة في عصره وفي الثاني وضع منهج البحث العلمي . وفي الثالث ذكر مجموعة من المعلومات التجريبية التي حصل عليها وفي الأجزاء الثلاثة الأخيرة أمثلة وتوضيحات لمنهجه واستنتاجات وتحليل لمجموعة من المعلومات التي اكتسبها من أتباع المنهج العلمي .

وأعظم كتبه هو الكتاب الذي كتبه عن تقدم المعرفة ولم يكمله ، وكتاب الأدوات الجديدة . وهما دعوة قوية لاستعمال الطريقة التجريبية في العلوم . وكتاب الأطلانطس الجديدة وهو وصف لجمهورية خيالية تقوم سعادتها على التركيز على البحث العلمي . إن السعادة والرخاء إنما يكون عن طريق تقدم العلم والتكنولوجيا ...

على فراش الموت قال هذا الرجل لمودعيه : مهما علمت ! فإني أحس كأني طفل يغرف من البحر المحيط بصدفة ! ...

ألسنا نعرف اليوم معنى هذه الكلمة ؟

بنيامين فرانكلان : القارئ (النهم) الذي لا يشبع

كان أبوه من أهل بوسطن حين يذكر أولاده السبعة عشر يقول : صاروا قبيلة ! وتبرم بهم . كيف يطعم سبعة عشر فماً ويكسو سبعة عشر جسداً وهو مجرد عامل في معمل لصناعة الشمع والصابون ؟ ومع أن اسمه بنيامين أي الابن المدلل فلم يكن مدللاً أبداً وكثيراً ما مشى حافياً وبثياب بعض إخوته ! وحين بلغ العاشرة من العمر وجد أبوه أنه قد نال الكفاية من العلم وليس علمه سوى القراءة والكتابة البسيطة ، فألحقه بأحد المصانع عاملاً ... كانوا يومذاك في مطالع القرن الثامن عشر يقبلون تشغيل الأيدي العاملة الصغيرة فهي أرخص وأقل عناداً ومشاكل . ثم بدل الأب لولده الصنعة بين نجار وحداد أو صانع أحذية ولكن الصغير كان يتمرد على ذلك كله ، فلما قرروا أن يجعلوا منه قسيساً هدأ فترة ثم لم يعجبه التكريز والصلوات وأناشيد الدين فهرب !

وحمله أبوه على العمل معه في مصنع الشمع ففشلت المحاولة أيضاً . وعرف الأب أن في ذهن الفتى محاولة الهرب كما هرب بعض إخوته من قبل وأن الطباعة التي تعلمها أخوه الأكبر جيمس تروقه لا سيما حين أنشأ لنفسه مطبعة صغيرة فألحقه بالعمل مع أخيه . وتعهد الأخ أن يجعل منه طابعاً ممتازاً في تسع سنوات !! لكن العمل كان مضنياً للفتى الصغير كما كان أخوه حاد الطباع شديد القسوة . يريده على فهم صف الحروف ثم توزيعها ، وعلى إدارة آلة الطباعة الثقيلة ويريده فوق ذلك على القيام

بالأعمال المرهقة داخل المطبعة وخارجها كأنه رجل كبير ... ثم لا يتورع عن ضربه بكل قسوة لأي إهمال أو تقصير !!

والغريب أن بنيامين الذي هرب من مجموعة من الحرف لم يهرب من المطبعة ولم يتمرد ، بل أظهر نجاحاً وذكاءً نال عليهما بعض المكافأة . وصار يقضي أمسياته في المطالعة المتنوعة بين علم وأدب وشعر ... وما لبث أن تجرأ على الكتابة ببعض المواضيع لبعض الصحف المحلية التي كان ينشرها أخوه ... ولم يوقع مقاله الأول باسمه خشية منعه ونشره الأخ وهو يحسب أنه لكاتب كبير !! ومارس بنيامين الشعر ونجح ... ثم افتضح أمره فثارت ثائرة أبيه وأقبل ينصحه بترك عمل البطالين هذا وتشدد عليه أخوه في المعاملة فهو يريده طابعاً لا كاتباً . وضاقت الدنيا به لهذا الحصار . وذات صباح بحثوا عنه فلم يجدوه . هرب في الليل إلى غير رجعة . ترك المدينة كلها إلى نيويورك يبحث عن عمل فيها . كان فيها مطبعة وحيدة رفضته عاملاً فيها . فسافر إلى فيلادلفيا .. وكان عليه أن يقطع معظم الطريق إليها على قدميه فقد فرغ ما كان معه من مال قليل . وكم مرة قبض عليه يحسبونه خادماً هارباً وكم مرة شحذ من الجوع ونام على حوافي الطرق . حتى أتيحت له سفينة قبلت حمله إلى فيلادلفيا مقابل أن يعمل فيها باقي الرحلة .

ظل بنيامين يذكر حتى آخر حياته يومه الأول في فيلادلفيا . مد يده إلى جيبه فلم يجد سوى ثلاثة بنسات . ودخل المدينة مشرداً مهلهل الثياب لا يكاد يقوى على المشي من التعب والجوع واشترى بما معه خبزاً من أول خباز وراح يقضم الرغيف ويدخر الباقي تحت إبطه ... ووقعت عليه عين فتاة لفت نظرها فابتسمت ... وبعد سبع سنوات قيض لهذه الفتاة أن تكون زوجة له ... وبحث بنيامين عن عمل في أيامه التالية فوجد عملاً . كان همه ألا يحرمه العمل من القراءة فقد قرر أن يعمل ويتعلم في وقت معاً .

وبدأت في غرفته نواة مكتبة صغيرة. وكثيراً ما كان يؤثر أن يبيت جائعاً ليشتري كتاباً جديداً يقرؤه بدل العشاء!

حين بلغ العشرين خطا خطوته الجريئة الأولى: أنشأ مجلة باسم مجلة فيلادلفيا. وصحف الولايات المتحدة لم تكن يومذاك تزيد على ثلاث. واستطاع في خبرته بالطباعة أن يدخل عليها الكثير من التحسينات والمبتكرات ويزودها بالمقالات التي تهم الناس وينشر فيها من الأنباء ما يثير الاهتمام فاشتد الإقبال عليها. وأيد المجلة بنشر الإعلانات فيها. وكان هذا حدثاً زاد من قيمتها وانتشارها. وأخرج معها نشرات وكراسات مطبوعة كانت نواة الكتب المطبوعة فيما بعد... ولم تكن الكتب يومذاك بضاعة في السوق بعد!! وبضاعة مطلوبة رائجة! وكان ما في الكراسات يتجاوب مع ما في صدور الأمريكيين الجدد من نزعات حرة ورغبات في الانطلاق في أجوائهم الواسعة التي لا تحد.

بعد سنوات، حين اطمأن إلى نجاح المجلة تركها لشريك له وانصرف لإدارتها الفنية ولدراسة اللغات فأتقن الاسبانية والفرنسية واللاتينية والإيطالية وتابع في الوقت نفسه البحث والدراسة. وتفتق ذهنه عن فكرة صارت فيما بعد نواة المكتبات العامة. أنشأ مع بعض زملائه نادياً لتبادل الكتب والآراء سماه نادي الخيتو أي نادي الغوطة البيضاء ونجح النادي زاد تبادل الكتب بين الأعضاء حتى أضحت لهذا النادي أمثال تقلده وتحولت مع الأيام إلى مكتبات عامة.

وجرى حريق في المدينة فأوحى له ذلك بإنشاء اتحاد أهلي لمكافحة الحريق ثم أنشأ شركة للتأمين ضد الحريق. واقترح على المسؤولين عن الأمن نظاماً كان نواة النظام الحديث للشرطة. ثم أنشأ جمعية لدراسة العلوم ودعا في مجلته إلى إنشاء مدرسة عليا صارت فيما بعد جامعة بنسلفانيا. وكانت له اليد

العليا في إنشاء المستشفيات العامة لأول مرة في العالم الأوروبي بعد المستشفيات العامة الإسلامية.

واختير ذات مرة مديراً عاماً للبريد فنقله من حاله البدائية إلى نظام دقيق أسرع وأكثر ضبطاً. وابتدع فكرة طوابع البريد ونفذها فغطى بإيرادها جميع نفقات البريد... كان ذا فكر عملي وتنفيذ منظم فلم يتول أمراً إلا أقام له القواعد العلمية العملية معاً حتى في الزراعة فقد حول بعض الأراضي البور التي اشتراها إلى أرض للفاكهة والزرع. ووضع بحثاً عن حياة النحل قائماً على الملاحظات الدقيقة والإحصاءات الوافية واستطاع أن يستخرج الكهرباء بوسيلة عملية لا تزيد على طائرة حريرية وحبل من القنب ومفتاح من الحديد.

وأغرته السياسة في النهاية. فدخل غمارها وحين بدأت أزمة الشاي المشهورة في أمريكا ضد الوطن الأم إنكلترا لم يجد الأمريكيون أبرع منه في تمثيل رأيهم والدفاع عن مطالبهم لا سيما حين اشتد الخلاف وظهرت بوادر الحرب بين الطرفين.

وإذا كان عناد إنكلترا قد أعاده دون نجاح فقد تسلم حين عاد عضوية المؤتمر الوطني الثاني وأسندت إليه مهمة تنظيم البحرية والجيش وهما كل قوى المستعمرات الأمريكية يومذاك وتدبير المال اللازم لهما. ومع أنه كان في التاسعة والستين يومذاك فقد نجح في هذه المهمة الشاقة ونجح أكثر من هذا في حمل جماعات الكويكرز على الإسهام في الحرب ضد الاستبداد الإنكليزي!

ويوم تآلفت لجنة لإعداد وثيقة الاستقلال كان بنيامين بين أعضائها والموقعين عليها وقد ألهب أكف الأعضاء وحماستهم حين قال:

اسمعوا أيها السادة يجب أن يتعلق بعضنا ببعض حتى لا نعلق فرادى على حبل المشنقة. حين توفي هذا القارئ الفقير لم تبق عين في الولايات المتحدة لم تدمع لفقده...

كلهم يعرف أنه قدم لأمته الكثير... حتى النفس الأخير!

عمرو بن عبيد

المعتزلة، اسم له تاريخه الطويل في العهد الإسلامي الأول وله رجاله. وقد حاول المأمون والذين عاصروا المعتصم والواثق بعده المأمون أن يجعلوا مذهبهم في الفكر والدين مذهب جميع الناس، بل حملوا الناس حملاً على هذا المذهب واضطهدوا وعذبوا بعض معارضيهم كابن حنبل ولم يفلحوا. وانكمشوا وانكمش الناس عن مذهبهم حتى أضحى ذكرى ومحاولة من محاولات الفكر والرأي.

الذين يدرسون تاريخ المذهب يذكرون أن أول من خط خطاً في طريق الاعتزال هو واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري. اختلف معه حول مرتكب الكبيرة مؤمن هو أم كافر. رفض الحسن رأي الخوارج الذين يكفرونه وقال إنه فاسق بل هو في منزلة بين المنزلتين. هو بين الإيمان والكفر. واعتزل في اليوم الثاني حلقة أستاذه الذي قال: اعتزل عنا واصل فسمي هو والذين شايعوه بالمعتزلة... سماهم به قتادة بن دعامة السدوسي.

والواقع أن الاسم لم يلصق بالذين اعتزلوا بهذه السهولة. وإن هي إلا قصة ترمز إلى ما كان وإنما سموا باسمهم هذا لأنهم اعتزلوا رأي السنة والجماعة ورأي الخوارج واختصوا برأيهم في عدل الله وتوحيده وقدمه... وحديثي عن واحد من أوائلهم ليس بالمشهور الآن ولا بالمذكور ولكنه من أقطاب من حملوا هذا المذهب ونافحوا عنه: هو عمرو بن عبيد المتكلم الزاهد أبو عثمان.

لم يكن عربي الأصل كان من موالي بني عقيل، ثم يربوع بن مالك.

كان جده من سبى كابول من جبال السند . وكان أبوه يخلف أصحاب الشرط بالبصرة . فكان الناس إذا رأوا عمراً مع أبيه قالوا : « هذا خير الناس ابن شر الناس . فيقول أبوه : صدقتم . هذا ابراهيم وأنا آزر » .

كان عمرو يختلف إلى الحسن البصري ويتلمذ عليه وقال بعضهم لأبيه ، لعله أن يكون ... فقال : وأي خير من ابني وأنا أبوه ! لكن الخير كان فعلاً ونبغ الابن وبرز في الدين والرأي والفكر . وحين اعتزل واصل كان بين من اعتزلوا معه . وكان الحسن البصري يقدر فكره ودينه وخلقه وقد سئل عنه فقال للسائل : لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته وكأن الأنبياء ربته . إن قعد بأمر قام به وإن قام بأمر قعد به . وإن أُمر بشيء كان ألزم الناس به وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له . ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن ولا باطناً أشبه بظاهر منه ! وله مع ولاة العراق والخلفاء مواقف . ذكروا أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، حين كان أميراً على العراق أرسل إلى عامله في البصرة ــ وهو شبيب بن شبة أن يوفد إليه وفداً منها فأرسل إلى جماعة يأمرهم بذلك ومنهم عمرو بن عبيد فامتنع فأعاد سؤاله فقال : إن أول ما سوف يسألني عنه سيرتك فما تراني قائلاً ؟ ... فكف عنه !!

ويبدو من بعض الملاحظات والقصائد أن عمرو بن عبيد كان في أواخر العهد الأموي يدبر أمراً ضد الأمويين وفيما كان العباسيون يدبرون ثورة في خراسان كان المعتزلة ــ وعلى رأسهم عمرو بن عبيد ــ يدبرون مثلها في المغرب (بمنطقة ما بين ليبيا والجزائر اليوم) وكانت لهم اجتماعاتهم السرية ورسائلهم لأتباعهم وكان لهم نفق أو دهليز في البصرة . يجتمع أنصارهم فيه وعند مدخله جرس معلق ومراقب يرقب مداهمة الشرطة حتى إذا أقبلت قرع الجرس ففتحوا المصاحف وأقبلوا يقرؤون فيها ... وإذا انتهت حركتهم إلى إقامة دولتين خارجيتين في المغرب ، فقد سبقهم العباسيون بالثورة المسلحة في المشرق

وإزالة الأمويين . فلم يكن لهم من القوة ما يجعل ثورتهم واسعة واقتصرت على ما بين جبال نفوسة وأواسط جبال الأطلس وكانت منهم دولة الصفرية (بنو مدرار) ودولة الإباضية (الرستمية) .

على أن هذه الدولة المعتزلة حوربت بشدة من جانب العباسيين وانقطعت عن المشرق وبقى عمرو بن عبيد في البصرة . كافاً يده عن السياسة وأهلها . وكان الخليفة المنصور صاحبه وصديقه قبل الخلافة وله معه مجالس وأخبار ... وقد استدعاه يوماً وقربه وأجلسه ثم قال : عظني فوعظه بمواعظ ما كان المنصور يقصد من سماعها إلا التقرب من ابن عبيد وإلا الاطمئنان إلى تركه أمر السياسة . فقال له عمرو : إن هذا الأمر الذي أصبح في يدك لو بقي في يد غيرك ممن كان قبلك لم يصل إليك فأحذرك ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده . فلما أراد النهوض قال المنصور قد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم قال : لا حاجة لي فيها . قال والله تأخذها قال ابن عبيد والله لا آخذها . وكان المهدي ولد المنصور حاضراً فقال : يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت ؟ فالتفت عمرو إلى المنصور وقال :

ـــ من هذا الفتى ؟

قال :

ـــ هذا ولدي وولي عهدي ! المهدي

فقال عمرو :

ـــ أما لقد ألبسته لباساً ما هو من لباس الأبرار وسميته باسم ما استحقه ومهدت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل ما يكون عنه .

ثم التفت عمرو إلى المهدي وقال :

ـــ نعم يا ابن أخي . إذا حلف أبوك أحنثه (أي قل يمينه) عمك لأن أباك أقوى على الكفارات من عمك .

وقال المنصور :

ــ هل من حاجة ؟

قال :

ــ لا تبعث إلي حتى آتيك .

قال المنصور :

ــ إذن لا تلقني !

قال ابن عبيد :

ــ هي حاجتي ...

ومضى فأتبعه المنصور طرفه وقال :

كلكم يمشي رويد .

كلكم يطلب صيد .

غير عمرو بن عبيد !

ولما خرج محمد النفس الزكية على المنصور وقدم البصرة سراً ثم خرج منها وبلغ المنصور خبره أقبل مسرعاً ورفض ابن عبيد الخروج للقائه . فلما أجبره أصحابه ولقي الخليفة قال المنصور يا أبا عثمان : هل في البصرة أحد نخافه على أمرنا قال : لا ! قال المنصور : أفأقتصر على كلامك وأنصرف قال : نعم فانصرف المنصور ولم يدخلها .

ولعمرو بن عبيد رسائل وخطب وكلام كثير في العدل والتوحيد وله كتاب التفسير عن الحسن البصري . ولما حضرته الوفاة قال لصاحبه : نزل لي الموت ولم أتأهب له ... اللهم إنك تعلم أنه لم يسنح لي أمران في أحدهما رضى لك وفي الآخر هوى لي إلا اخترت رضاك على هواي فاغفر لي ...

ادعوا معي أن يغفر الله له ويرحمه خير الرحمة ! فقد كان أحد الرجال الرجال في هذه الأمة ! والرجال قليل .

الهيثم بن عدي

للفضول ثمنه. كذلك يقولون. وقد يكون هذا الثمن غالياً يصل حتى قطع الرأس أو ما وراء حديد السجن... ولكن للفضوليين لذاتهم الخاصة المرة. وهم يرتضونها إطفاء لفضولهم وقد يكتبون منها الكتب، كما يفعل بعض الصحافيين اليوم ويغامرون بأنفسهم في خطوط النار وراء الخبر... والهيثم بن عدي الذي سوف أتحدث عنه لو كان في هذه الأيام لكان بكل تأكيد من أبرز الصحفيين كان راوية إخبارياً نقل من كلام العرب وعلومها وأشعارها ولغاتها الكثير...

إسمه أبو عبد الرحمن الهيثم ويرجع في نسبه إلى طيء. وقد عاش في القرن الثاني للهجرة. وأبوه كان يسكن واسط، في وسط العراق. لكن الهيثم كان يتعرض لمعرفة أصول الناس ونقل أخبارهم فأورد معايبهم وأظهرها وكانت مستورة فكرهه الناس لذلك. لكن حين نقل عنه أنه ذكر العباس بن عبد المطلب بشيء حبس لذلك عدة سنين... وقد زعموا لتخليصه من السجن أنه صاهر قوماً فلم يرضوه وردوه فذم أصولهم فأذاعوا ذلك عنه وحرقوا الكلام وقالوا ما لم يقله... لكن هذا العذر لم يخفف من سجنه...

على أن الهيثم بن عدي، في فضوله، كان من كبار الإخباريين أي من حملة أخبار التاريخ وناقليها. كتب الكثير جداً من الكتب. منها كتاب المثالب وكتاب المعمرين وكتاب بيوتات العرب، وكتاب بيوتات قريش، وافتراق العرب وتزولها منازلها ونسب طيء ومدح أهل الشام وتاريخ العجم وكتاب من تزوج من

الموالي في العرب . وكتاب ولاة الكوفة وتاريخ الأشراف الكبير ... والخوارج والنوادر . كتب ما يزيد على خمسين كتاباً ...

بعد أن خرج من السجن اختص بمجالسة الخلفاء المنصور والمهدي والهادي والرشيد حوالي أربعين سنة وأدرك زمن الأمين وبعض زمن المأمون أيضاً فقد توفى بعد أن أناف على الثمانين !

روى عن المهدي أنه سأله : ويحك يا هيثم إن الناس يخبرون عن الأعراب شحاً ولؤماً كما يروون كرماً وسماحة . وقد اختلفوا في ذلك فما عندك ، قال على الخبير وقعت . خرجت من عند أهلي ومعي ناقة أركبها إذ ندت وذهبت . فجعلت أتبعها حتى أمسيت فأدركتها فإذا هي عند خيمة أعرابي فأتيتها فقالت ربة الخباء : من أنت ؟ قلت ضيف فقالت وما يصنع الضيف عندنا إن الصحراء لواسعة . ثم قامت إلى بر فطحنته ثم عجنته وخبزته وقعدت فأكلت . ولم ألبث أن قدم زوجها ومعه لبن فسلم وقال من الرجل ؟ قلت ضيف قال مرحباً حياك الله فدخل الخباء وملأ قعبه من لبن ثم أتاني به وقال اشرب . فشربت شراباً هنيئاً فقال : ما أراك أكلت شيئاً وما أراها أطعمتك فقلت لا والله فدخل إليها مغضباً وقال : ويلك أكلت وتركت ضيفك فقالت : وما أصنع به ؟ أطعمه طعامي وجاراها في الكلام حتى شجها ثم أخذ شفرة وخرج إلى ناقتي فنحرها فقلت : ما صنعت عافاك الله ؟ فقال ولا والله ما يبيت ضيفي جائعاً . ثم جمع حطباً وأجج ناراً وأقبل يكبب ويطعمني ويأكل ويلقي إليها ويقول كلي لا أطعمك الله ... حتى إذا أصبح تركني ومضى فقعدت مغموماً فلما تعالى النهار أقبل ومعه بعير ما يسأم الناظر أن ينظر إليه فقال : هذا مكان ناقتك ثم زودني من ذلك اللحم مما حضره وخرجت من عنده فضمني الليل إلى خباء فسلمت فردت صاحبة الخباء السلام قالت : من الرجل قلت ضيف فقالت مرحباً بك حياك الله وعافاك فنزلت ثم عمدت إلى بر فطحنته وعجنته ثم خبزت خبزة

زودتها بالزبد والعسل ثم وضعت بين يدي فقالت : كل واعذر . فلم ألبث أن أقبل أعرابي كريه الوجه فسلم فرددت السلام فقال : من الرجل ؟ قلت ضيف قال : وما يصنع الضيف هنا ؟ عندنا . ثم دخل إلى أهله فقال : أين طعامي فقالت أطعمته الضيف فرفع عصاه فضرب به رأسها فشجها فجعلت أضحك . فخرج لي فقال ما يضحكك ؟ قلت خير قال والله لتخبرني فأخبرته بقضية المرأة والرجل اللذين نزلت عليهما مثله . فأقبل علي وقال : إن هذه التي عندي هي أخت ذلك الرجل وتلك التي عنده هي أختي فبت ليلتي متعجباً وانصرفت !!

وحكى الهيثم أيضاً قال : صار سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي الذي كان يسمى بالصمصامة إلى موسى الهادي بن المهدي . وكان عمرو قد وهبه لولده إلى أن اشتراه الهادي بمال جليل . وكان من أوسع بني العباس كفاً وعطاءً فجرد الصمصامة ذات يوم وجعلها بين يديه وأذن للشعراء فدخلوا عليه ودعا بمكيل (آنية) فيه (بدرة) مبلغ من المال . وقال : قولوا في هذا السيف وأنشده ابن باقي المصري قصيدة منها :

حاز صمصامة الزبيدي من بين جميع الأنام موسى الأمين !

فقال الهادي : أصبت والله ما في نفسي واستخفه السرور فأمر له بالمكيل والسيف . فلما خرج من عنده قال للشعراء إنما حرمتم من أجلي فشأنكم والمكتل ففي السيف غنائي . فاشترى منه السيف بمال جزيل ... اشتراه الهادي نفسه بخمسين ألفاً ...

ويذكر الهيثم رواية عن عمر بن هانىء الطائي قال : خرجت مع عبد الله بن علي وهو عم السفاح والمنصور فانتهينا إلى قبر هشام بن عبد الملك فاستخرجناه صحيحاً ما فقد منه إلا خرمة أنفه فضربه عبد الله ثمانين سوطاً ثم أحرقه واستخرجنا سليمان بن عبد الملك من أرض دابق فلم نجد منه شيئاً إلا

صلبه وأضلاعه ورأسه فأحرقناه. وفعلنا ذلك بغيرهما من بني أمية. وكانت قبورهم بقنسرين ثم انتهينا إلى دمشق فأخرجنا الوليد بن عبد الملك فما وجدنا في قبره لا قليلاً ولا كثيراً واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا إلا شؤون رأسه ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فما وجدنا منه إلا عظماً واحداً ووجدنا مع لحده خطاً أسود كأنما خط بالرماد بالطول في لحده... ثم تتبعنا قبورهم في جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم...

وروى أن أبا نواس الشاعر حضر مجلس الهيثم بن عدي في حداثته والهيثم لا يعرفه. فلم يستدنه ولا قرب مجلسه فقام مغضباً فسأل الهيثم عنه فخبر باسمه. فقال إنا لله هذه والله بلية لم أجنها على نفسي قوموا بنا لنعتذر فصاروا إليه ودق الباب ودخل وتسمى فإذا هو قاعد يصفي نبيذاً له فقال: المعذرة إلى الله تعالى وإليك. والله ما عرفتك والذنب لك حيث لم تعرفنا بنفسك. فنقضي حقك فأظهر قبول العذر فقال الهيثم: استعهدك من قول يسبق منك في فقال: ما قد مضى لا حيلة فيه ولك الأمان فيما استأنف. فقال وما الذي مضى جعلت فداك. وتحايلوا على أبي نواس حتى أنشد:

يا هيثم بن عدي لست للعرب ولست من طيء إلا على شغب
إذا نسبت عدياً في بني شغل فقدم الدال قبل العين في النسب

أي أن الهيثم دعي. وهي قصيدة يقول فيها:

للهيثم بن عدي في تلونه في كل يوم له رجل على خشب
فما يزال أخا حل ومرتحل إلى الموالي وأحياناً إلى العرب
له لسان يزجيه بجوهره كأنه لم يزل يغدي على قتب!!

فعاد الهيثم إلى أبي نواس وقال: يا سبحان الله. أليس قد أمنتني أن لا تهجوني فقال: إنهم يقولون ما لا يفعلون...

ألستم ترون شبه العلاقات بين الهيثم وصحافيي اليوم؟

ابن حــزم

عصر ملوك الطوائف مصطلح راكض على الشفاه كلما تحدث الناس عن التمزق السياسي والمؤامرات من الأخ ضد أخيه . ومن الأمراء ضد أخصامهم على أشبار من الأرض . كان ذلك في الأندلس في القرن الخامس للهجرة . الذي ينساه الكثيرون أن هذا العصر بالذات كان عصر التألق الحضاري والإنتاج الفكري كأنما كان الناس يعدلون بأعمالهم جو السياسة الأسود الذي يعيشون .

ممن عاش في هذا العصر في الأندلس وذاق مر السياسة وحلو العطاء الحضاري معاً هذا الرجل أبو محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم . كانت أسرته كلها موالية للأمويين . فلما تقلقل العرش الأموي مع هشام المؤيد ومن بعده بقيت الأسرة على ولائها لا تغيره فقد ربيت في رعاية بني أمية في قرطبة وعاشت في كنفها . درس ابن حزم الأدب والشعر والمنطق والفقه . وحين توفي أبوه وهو في التاسعة عشرة من العمر سنة ٤٠٢ سنة الفتنة البربرية في قرطبة صار أبو محمد رأس واحدة من الأسر المناصرة للأمويين والمتمسكة بحقوقهم في العرش . ودخل في الجو العاصف بالرغم منه . وجاءته النكبة الأولى ، إذ أخرجوا من قرطبة ونهبت قصورهم وأملاكهم . وتوجه ابن حزم بأهله إلى المرية وانصرف فيها إلى العمل السياسي . وأقبل على تأييد الخليفة عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى ومؤازرة أنصاره . وقد سار مع المرتضى بنفسه يحارب تحت رايته بني حمود المدعين للخلافة . ولكن جيش الخليفة هزم وأسر ابن حزم في من أسر !

حين أطلق سراحه لجأ إلى مدينة شاطبة . وبقي فيها فترة من الزمن وكانت له فيها قصة حب فاشلة سجلها في كتاب رائع التحليل هو طوق الحمامة . لكن الحب لم يشغله عن الدعوة للأمويين وعن الإسهام في دعم عبد الرحمن الخامس المطالب بالخلافة . ونجح مسعى عبد الرحمن فارتقى العرش سنة ٤١٤ وتلقب بالمستظهر بالله وأتى بابن حزم وزيراً له . لكن هذه الخلافة لم تدم سوى شهرين قتل بعدها الخليفة الجديد . ونفى ابن حزم مرة ثانية من قرطبة وهو يتلمس برأسه !

كانت هذه المأساة فراق ما بين ابن حزم والسياسة . آمن بعد اثنتي عشرة سنة من المعاناة أن خلافة أوليائه الأمويين سقطت فعلاً . وليس بين أدعيائها من يستطيع إقامة عرشها من جديد . وأن ما كان يتصور فيها من حق إلهي ليس إلا وهماً . وانتهى ابن حزم الموزع حتى الآن بين السياسة والأدب إلى هجر السياسة إلى الأبد . والانصراف حتى عن الأدب الصرف إلى دراسة الدين والفقه . كرس وقته كله لهذا الفرع العلمي بسبب ما ظهر مرة في المسجد من جهله بفروض الصلاة .

كشف هذا التحول عن ميزة من أهم الميزات في شخصية ابن حزم هي الإخلاص للذات . والعمل بما يعتقد . لا يهمه ما قد يقوله الناس فيه . وكما كان في السياسة مع الأمويين يجدف ضد التيار انقلب في الدين يقوم بالعمل ذاته . وجد من نفسه ميلاً لمذهب الشافعي فاعتنقه ولم تمض على ذلك خمس سنوات حتى نراه يترك الشافعية ليصبح ظاهري المذهب غير آبه بأن الكثرة الكاثرة من الناس كانت على مذهب مالك .

وقامت قيامة الفقهاء المالكيين عليه ومنعوه من التدريس في جامع قرطبة . وقد كانت هذه عقوبة شديدة الوقع على ابن حزم . لكن على الرغم مما أثر موقف الفقهاء فيه وفي خلقه ونفسه حتى كأنها كارثة السياسة قد لحقته في

الدين فقد ظل ابن حزم على موقفه لا يرجع عنه . بل أقبل بالعكس على الجدل فيه ومهاجمة خصومه بلسان قاس شديد كالحسام. صب كل سخيمته السياسية الفاشلة في المنحى الديني كأنما كان يحاول الانتقام لهزائمه السياسية بتحدي الكثرة الكاثرة في مجال الدين والشرع . انقلب داعية صلباً للمذهب الظاهري .

وحين توفى أستاذه أبو الخيار مسعود بن سليمان حمل بعده علم الظاهرية ينافح عنه ، حيث حل ويدعو الناس للأخذ بالمعنى اللفظي الظاهر لكلم القرآن .

وتمكن خلال ذلك من علوم الأوائل ومن المعارف التلمودية والنصرانية . وطاف ممالك الطوائف يدعو ويجادل . وثارت بينه وبين جمهرة الفقهاء المساجلات والمناظرات . وكان لا يمل الجدل لأنه كان يسمح له بكشف علمه الواسع واطلاعه الموسوعي وإبراز تمكنه البالغ من اللغة والأدب والشعر والتاريخ والحديث والفقه وما يتصل بها من العلوم الإسلامية . هذا بالإضافة إلى المنطق والفلسفة والاطلاع على كتب الديانات الأخرى ومعارفها .

صحيح أن جدله كان يعيبه انحرافه عما ينبغي للفكر من أمانة ودقة (فقد كان يحرف الكلم عن مواضعه ويبتر أحياناً النصوص أو يفسرها على ما يشتهي) ، لكن ما كان يأخذه الناس عليه هو حدة ألفاظه وشدة أجوبته القاسية التي جعلت الكثيرين ينفضون من حوله . وقد ذهب مرة إلى جزيرة ميورقة في البحر (من جزر الباليار) يجادل فيها الفقيه المالكي أبا الوليد الباجي . وكانت مناظرة مشهورة لم ينجم عنها اقتناع لا لديه ولا لدى خصمه ... ولكن كان يعذره أنه كان سليم العقيدة ، ولوعاً بالسخر من خصومه ، شديد الاعتداد بمكانته وعلمه . وكان ميله إلى العقل والمنطق ، ومزاجه الرزين وصلابته في الحق ، كل ذلك يبعد ما بينه وبين فيوض الحياة

الروحية الصافية والسماحة الدينية .

ولا شك أن ما عاناه من التجارب السياسية المبكرة ومن تعنت الفقهاء ومن انكماش الدارسين عنه ومن الأذى والاضطهاد في نفسه وكرامته . كل ذلك اجتمع في نفسه الحساسة ودفعه لا إلى الشدة مع خصومه ولكن مع نفسه . وأحس نفسه في غربة تزداد اتساعاً ولؤماً عن مجتمعه وعصره . فلم يجد سوى الانسحاب من المجتمع كله ملاذاً ونجوة .

وهكذا اعتزل ابن حزم وانزوى في موطن أسرته القديم (مونت لشم) وهي بليدة قرب ولبة لا سيما بعد أن صادر المعتمد بن عباد كتبه وأحرقها بناءً على تدخل الفقهاء ..

وفي هذا المعتزل أنهى ابن حزم حياته يكتب كتبه حتى توفى وهو في السبعين تاركاً ما يزيد على أربعمائة كتاب ! وصدىً علمياً ما انفك يقرع عدة قرون . لقد صفع الدنيا وأدار لها ظهره ... وكسب في العزلة أضعاف ما كسب بين معاصريه .

أهم كثيرون أولئك الذين يصفعون الدنيا ويديرون لها ظهورهم كابن حزم ؟

وات .. والابداع من قلب اليأس

لو سألت طالباً في المدارس الثانوية عن مخترع أول آلة بخارية فربما أجابك : جيمس وات ! ولكنك لو سألته كلمة وراء ذلك لتعثرت الكلمة على شفتيه ثم برمهما وسكت ! والرجل منذ قرنين أوجد ثورة في الصناعة ليست أقل أهمية من ثورة الكومبيوتر اليوم .

ولد في اسكتلندة سنة ١٧٣٦ بلد الصقيع والثلج يتراكم بعضه على بعض وينتظر الصيف لينكشف عن الخضرة السهلية . ودخان المداخن يتصاعد فوق جميع البيوت سحابة لا تنقطع ... وكان جيمس أضعف أولاد أبيه جسماً وأرقهم . وقد حال ضعفه بينه وبين المدرسة فقامت أمه بتعليمه القراءة والكتابة في البيت وتركت له هواياته ومنها الرسم وإصلاح الأدوات المنزلية ! ومراقبة الأشكال الهندسية ورسمها على الحيطان أو جدار الموقد . ويسليه أن يراقب غطاء إبريق الشاي والبخار يدفعه تارة ويهمد به أخرى . على أن لذته الحقيقية وكان ما يزال في السابعة إنما كانت قراءة الروايات وقصص ما فيها على إخوته الذين يستمعون إليه بشغف وضحك كثير !

وما لبث الفتى أن أعجب بكتب العلوم والميكانيك والفلسفة فقرأ منها الكثير . وصار وهو في الرابعة عشرة من العمر يفهمها ولا فهم الكبار لها . وزاد على ذلك أن أنشأ في داره معملاً يجرب ما يستطيع من الآلات التي يصنعها بنفسه . بعضها لرفع الأثقال وبعض للصدمة الكهربائية يداعب بها أصدقائه وبعض من المضحكات ! كما صار يستدعى لإصلاح بعض آليات السفن . على

أنه كان دوماً يفكر كيف يستطيع البخار أن يرفع غطاء إبريق الماء الساخن حتى إذا خرج البخار همد؟ على أن كبر العائلة وضيق مواردها كان يلهيه عن ذلك وتدفع بجيمس حين بلغ الثامنة عشرة لأن يفكر في العمل لمعونة الأسرة! وهكذا سافر إلى مدينة غلاسغو ليتعلم صناعة الآلات الرياضية. ولكنه كان من الفقر بحيث وصل تلك المدينة وليس في جيوبه بنس واحد ينفقه للطعام أو المأوى. كانت معه فقط بعض أدوات النجارة. وطاف يبحث عن عمل حتى إذا وجده لم يكن ثم أسعد منه. وما العمل؟ نجار صغير في مصنع صغير لإصلاح شباك الصيد والقيثارات والصفارات. ثم لقيه صديق لأبيه من ربابنة البحر فنصحه أن يذهب إلى لندن فالفرصة هناك أوسع له. وذهب وات يتبع النصيحة فإذا به يلقى أياماً شقية تعسة ولم يظفر بعمل من الصباح حتى آخر الليل إلا بشق الأنفس!

قضى سنة في عمله المرهق أذاب قواه. ولكنه حذق الميكانيك وبرع فيه فكان هذا هو الذي كسبه من لندن. وعاد إلى غلاسغو يمارس هذه المهنة لكن نظم النقابة وقفت في وجهه. إنه لم يمض المدة الكافية للتدرب. فحطمه اليأس لولا أن بعض أساتذة الجامعة أفرد له حجرة في مخبره يمارس فيها تجاربه لحسابه. وصنع وات آلات عديدة حسنة. ولكنها لم تلق الرواج فصار يصلح الآلات الموسيقية! ودرس من أجل ذلك الموسيقى ونجح في صنع أرغن مبتكر لقي الإعجاب ممن جربوه!

وتعطلت مضخة بخارية في الجامعة تقوم بامتصاص المياه من مناجم الفحم وكلف إصلاحها. وأتاح له ذلك الفرصة للدراسة العلمية المتعمقة لاختراع آلة تدور بقوة البخار. وقضى في ذلك عدة أشهر، لكن فقره جعله يعتمد على المواد المبذولة بين يديه من زجاجات فارغة وأنابيب من القصب. وفيما كان منهمكاً بالعمل فوجيء بوفاة مساعده ثم ساءت حال أسرته

وتراكمت عليه الديون. وقد تحمل كل ذلك حتى انتهى من صنع آلته... لكنه ما شرع يجربها حتى فشلت تماماً... ولم يكن ذلك عن نقص في دراستها العلمية ولكن عن هشاشة وضعف المواد التي استعملها فيها!

وغلبه اليأس المرير فترة لولا أن صاحب مصنع للحديد تولى تسديد ديونه التي بلغت خمسة آلاف دولار وأشار عليه بالسفر إلى لندن لتسجيل اختراعه. وحصل على البراءة بعد جهد قاس وعاد إلى غلاسغو يجرب صنعه من جديد ولكن المصاعب لحقت به من جديد. فصاحب مصنع الحديد غرق في الديون فانقطع عن سداد دين وات. وتوفيت امرأته تاركة له ثلاثة أطفال. وفقره يزداد كالغول ولكنه ظل يكافح حتى صنع الآلة التي يرجو سنة ١٧٧١...

وعند تجربتها كانت الصدمة الكبرى. لقد فشلت نتيجة لرداءة أسطواناتها ولأن موادها كان ينفذ منها الهواء والبخار ولم ينجح في سدها فلين ولا خرق مشبعة بالزيت ولا قطع يقتطعها من قبعته!! وفي هذه المرة يئس تماماً ومضى يبحث عن عمل أجدى له ولعائلته. فعمل مهندساً مدنياً.

وذات يوم جاء شريكه الماضي صاحب مصنع الحديد ينقل إليه أن مدير إحدى الشركات على استعداد لمشاركة وات في صنع آلته مقابل أن يأخذ ثلثي الربح ويبقى لوات الثلث. ولم يتردد وات بالقبول.

كان مؤمناً بأن فكرته العلمية صحيحة لولا خيانة المواد... وانتظر وات تردد الشريك الجديد ثلاث سنوات عاشها متأرجحاً بين اليأس والرجاء. وازدادت متاعبه بضعف صحته وكثرة عمله... حتى إذا انتهى تردد الشريك صنعت الآلة الجديدة بالمواد اللازمة لها فأسفرت التجربة عن نجاح باهر... وبكى وات... من الفرح. وأخيراً نجح!!

وذاع خبر الآلة البخارية المحركة فانهالت الطلبات على الشريكين تطلبها

لا في إيرلندا ولندن ولكن من أوروبا وروسيا. وعرضت الحكومة الروسية على وات أن يعمل لحسابها مقابل خمسة آلاف دولار سنوية فرفض. كان المبلغ تلك الأيام ثروة يحلم بها الكثيرون لكنه فضل البقاء في شركته ومؤسسته ولو أن شركات أخرى قلدت الاختراع وأنزلت إلى السوق كميات من الآلات البخارية المضاربة! ارتاحت أمور وات المادية وبقي يشتغل في معمله بالمؤسسة على مخترعات أخرى كان منها:

ـــ آلة للطباعة، بخارية، لكن الإقبال عليها كان فاتراً وبخاصة حين شاع أن استعمالها قد يؤدي إلى انتشار التزوير! وألح عليه شريكه أن يصنع آلة بخارية لطحن الدقيق تحل محل مطحنة الماء ومطحنة الهواء. وقد تم صنع هذه الآلة ولكن على يد رئيس عمال المؤسسة الذي كان بدوره مبتكراً كبيراً ذا حذق عملي مدهش طالما ساعد وات وأضاء له الطريق. مواهبه العظيمة نشرت فوائد الإضاءة بالغاز الطبيعي. وقد صنع أول نموذج للقاطرة التي لم يتح لها أن تسير على السكك الحديدية رسمياً سوى سنة ١٨٣٥ وابتكر استعمال جلد السمك لصنع الفراء بدلاً من الباغة... وقد حصل الشريكان على حق إنتاج هذه الآلة الجديدة... بعد أن كلفهما صنعها ما يزيد على مائتي ألف دولار. وكان رواجها عظيماً أنساهما مالقيا في إنتاجها من الصعاب والعقبات.

بعد ذلك بقليل أخرج وات للصناعة آلتين هامتين في تقدمها هما جهاز الحركة المتوازية الذي سرعان ما دخل مصانع النسيج وغيرها وجهاز التحكم في سرعة الآلة. ثم اعتزل العمل سنة ١٨٠٠ تاركاً متابعته لولديه.

وفي منزله الذي شيده في هينفلد قرب برمنغهام استقر ١٩ عاماً حتى بلغ الثالثة والثمانين...

كم ذا في بني الإنسان من جاهد جهاد وات؟ أو من كشف اكتشافاته العملية؟

ابن تاشفين

الذين يتحدثون عن الصحراء الأفريقية الكبرى يتوقفون طويلاً عند جماعات البدو التي تسكن رمالها يصفون من جلدهم ومتانتهم ما يصفون. فهم جن الصحراء في الحرب والسلم. ويسمونهم بالملثمين لأن الرجال فيهم يتلثمون ولا لثام للنساء. والسبب واضح فالرجال يتعرضون للرمال السافيات باستمرار في حين تبقى النساء في الأخبية ووراء الحجب. ولو سألتهم لعللوا ذلك بأنهم أتاهم الغزو ذات مرة ولم يكن في الحي رجال فتلثمت النساء ولبسن ملابس الرجال وحاربن حتى دحرن الغزاة. فوضعوا اللثام منذ تلك الغزوة!

أول من أدخل الإسلام إلى هذه الجماعة الملثمة شيخ قيرواني اسمه عبد الله الجزولي. علمهم الإسلام لا ركعات وقواعد فقه ولكن بالمثل الأعلى والتقى والكف عن شهوات الدنيا. لم يكن همه في مال أو جاه أو رئاسة ولكن في نشر العقيدة... ونجح الجزولي النجاح الرائع وكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً ويتحول الشيطان فيهم إلى جني ولكن في الدعوة لله. والجهاد في سبيله. وجعل لهم أربطة وحصوناً على الحدود مع الزنج الوثنيين يرابطون فيها وسماهم بدل الملثمين: المرابطين!

وكانت زعامة المرابطين ليحيى اللمتوني فما زاحمه الجزولي عليها ولا كان له أرب بها. وحين توفى تسلمها أخوه أبو بكر اللمتوني والجزولي في ميدانه يعمل. حتى تحولت هذه الجموع الصحراوية المتفرقة كتلة من سيوف ورماح

وقلوب وراءها كالحديد أو هما أشد متانة. تقدمت مسافة طويلة في أرض المغرب في الشمال.

وحين توفى الجزولي وانفرد أبو بكر اللمتوني بالزعامة جاء بابن عمه يوسف بن تاشفين فولاه شطراً من الجيش أبقاه في الشمال على أطراف المغرب وانصرف هو إلى الجنوب، إلى بلاده لمتونة يلبي نداء سمع أن امرأة نادته تستجير من الظلم فقال: لبيك! هكذا قالوا...

ولم يكن في ابن تاشفين من المظهر ما ينبىء عن مخبره فهو نحيل الجسم أسمر اللون. خفيف اللحية دقيق الصوت تقتحمه العين. حتى إذا كانت الحرب واشتد الهول ولمعت السيوف بين النقع كالنجوم الهاوية والتفت الساق بالساق واشتبكت الرماح فهي غابة من الحديد كان هذا الهزيل النحيل الأسمر أباها وأخاها وشيطانها المريد. هذا إلى معرفة باستراتيجية القتال وحب للعلماء وللمنافحين عن الشرع وميل إلى الصفح والتسامح وإيثار للزهد. فلم يتخذ قصراً ولا أكل إلا خبز الشعير ولحم الإبل. حتى لنراه كأنه كتلة من الأعصاب والأوتار المشدودة إلى العظام.

ولسنا نعرف شيئاً عن ابن تاشفين قبل أن يظهر في قيادة الشمال ويسوق جيوشه مخترقاً المغرب حتى فاس فيحتلها. ثم لا يقيم فيها وهي حاضرة المغرب كله بل اتجه شمالاً إلى طنجة فافتتحها. وما هي إلا فترة وانقضت حتى كانت مدن المغرب الأقصى كلها في ظله وأمره. واتجه بالجيش شرقاً يكتسح مدن الجزائر ثم تونس فتتساقط أمام جيشه كممالك الورق ويصبح المغرب كله مملكة واحدة لأول مرة في تاريخه ويصبح اسم المرابطين رعب الأندلس كلها ورعب الممالك الاسبانية فيها...

على الخيل التي خاض فيها المغرب كله عاد ابن تاشفين إلى المغرب الأقصى. ولم يشأ أن يتخذ من فاس على جمالها وكثرة مائها وبساتينها الريا

بالثمر والزهر والخضرة . إنها بعيدة عن بلاده لمتونة ثم إن فيها بقايا من الرفض لهؤلاء الحكام الجدد ، البداة ، رغم ما يظهر فيهم من العدل والإحسان والعمل بكتاب الله وسنته ... ذهب ابن تاشفين إلى جنوب المغرب إلى مكان كان مأوى لقطاع الطرق واللصوص اسمه مراكش (وتعني بالبربرية : مر مسرعاً) فخطط هناك لعاصمة الدولة . سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م .

كان ذلك بعد سنة من نصر السلاجقة في موقعة ملاز كرد الكبرى في المشرق . ولم تكن الحروب الصليبية قد بدأت هناك أيضاً . ولكنها كانت قائمة على قدم وساق في الأندلس . ملوك الطوائف المتناحرون والذين كانوا يتآمر بعضهم على بعض حتى مع الفرنج أعطوا الفرصة لهؤلاء الفرنج كي يهزموهم فرادى ويحرضوا في منتهى المكر إمارة ضد أخرى حتى ضعف الجميع . وتمنى العلماء والفقهاء الخلاص ولات حين مناص وبلغ الأمراء درك الخزي حين أعلن الفرنجة ضدهم حرب الاسترداد ! استرداد الأراضي الأندلسية كلها من المسلمين !

قد تسألون وأين انتهى أبو بكر اللمتوني ؟ صاحب المملكة المرابطية ؟ لقد عاد فوجد تحت يده مملكة شاسعة واسعة ما كان يحلم بها مغربي من قبل . قدمها له ابن تاشفين مع خضوعه ! وفكر في الأمر فوجد ابن عمه أحرى بهذا الملك ولعله وهو الشيخ الكبير خشي أن ينازعه وهو شيخ مثله فترك له الأمر كله وانكفأ راجعاً إلى الجنوب فيما نسميه اليوم موريتانيا والسنغال يجاهد في سبيل الله حتى قضى شهيداً . وورث ابن تاشفين الأرض وما عليها ...

كانت أحوال الأندلس المخزية تأتي ابن تاشفين فتترك في نفسه جراحاً كما تثير فيه مطمعاً . لكنه كان مشغولاً بإدارة مملكته الكبرى حتى إذا كان ذات يوم فوجىء بوفد أندلسي فيه قاضي قرطبة وإشبيلية يطلب منه النجدة . أدرك الأندلسيون بعد أن سقطت طليطلة سنة ٤٧٨ وهي العاصمة الكبرى

في شمال الأندلس بيد القشتاليين أن باب سقوط المدن الأندلسية قد فتح . ولا راد للعدوان القشتالي إلا هذه القوة المفاجئة الكبرى التي تفجرت في المغرب سنابك ورماحاً وسيوفاً وقلوباً من حديد ! كان الزعيم الكبير في الأندلس هو المعتمد بن عباد . إن له أكبر مملكة في السعة ولكن قواها لا تكاد تقف للتحالفات الاسبانية المتربصة بها وبغيرها . ولم يجد مناصاً من الاستنجاد بابن تاشفين ومن إرسال الوفد يستغيث به !

وما كان ابن تاشفين بحاجة إلى من يحرضه على ذلك فقد كانت الأندلس في خاطره شيئاً ضخماً من الحضارة والبذخ حتى إنه قال بعد أن زارها : كنت في المغرب أظن نفسي ملكاً حتى إذ رأيت الأندلس صغرت مملكتي في عيني ! وسرعان ما كانت الجيوش قد أعدت والفرسان استعدت وتهيأ الأسطول للعبور وابن تاشفين بنفسه على رأس القوى النازلة في البر الأندلسي . وقدم أمراء الأندلس عليه يقدمون الولاء وعلى رأسهم المعتمد بن عباد ! وعرضوا على ابن تاشفين أن يبقى فترة فيستريح وأبى . إنه إنما جاء للقاء الكفرة فهو ماض لهم ومشى إليهم ورغاء الإبل وصهيل الخيل يبلغ عنان السماء !

كان الأذفونش ملك قشتالة وكبير الملوك الاسبان يحاصر ابن هود أحد ملوك الطوائف . فترك حصاره واستدعى الحلفاء من كل مكان حتى من فرنسا وإيطاليا والبابوية على وجه السرعة واختار المرابطة في منطقة سهلية قرب بطليوس تعرف بالزلاقة . ووافته الجيوش الإسلامية هناك . الذين حضروا المعركة لم يبق موقع في تلك الناحية لم يكن فيه جندي ولا تلمع فيه السيوف وتتقد الرماح وتصهل الخيل . وأراد المعتمد أن يبرز شجاعته وجيشه فاخترقه الجند الاسباني وكاد يقتل بجرح غائر أصابه . وحسب الأذفونش أن ابن تاشفين معه وأنه هزم المسلمين . لكن الصدمة الكبرى جاءته حين كرت جيوشه مرتين فهزمت ثم لقيه ابن تاشفين وهو يومئذٍ شيخ في الثمانين من العمر ومن حوله

كوكبة من جنده السودان فمزقوا كتلة الجيش القشتالي وقفز جندي بربري بخنجره فضرب الأذفونش من فخذه ضربة جعلته يهرب وساقه تنوح على فرسه ...

وكان نصر الزلاقة سنة ٤٧٩ النصر الذي أبقى على الأندلس ٤٠٠ سنة أخرى ولكنه بعد الزلاقة كان قد ضم الأندلس إليه ورأى قبل أن يتوفى وهو في حيطان المائة مملكته الكبرى تمتد لأول مرة في التاريخ من الأندلس إلى أفريقية إلى أعماق موريتانيا والسنغال ! ونيجيريا ...

وأعجب الأمر أنه لم يكن يجيد من العربية إلا بعض آي القرآن الكريم !

غاريبالدي الثائر الأبدي

الذين شهدوا شيئاً من تاريخ الوحدات في أوروبا يعرفون هذا الاسم دون شك : غاريبالدي . ولكن القلائل جداً هم الذين يعرفون شيئاً عن الرجل الذي لمع اسمه في الوحدة الإيطالية فترة ثم اختفى إلى الأبد . يوم ولد غاريبالدي في نيس ولد مثله مئات الألوف من الفقراء المعدمين الذين لا تأبه الأرض بهم ولا الكوخ الذي ولد فيه . كان نصفه من القصب وأضافه أبوه الصياد الفقير إلى مجموعة إخوته وسماه جوسيبي ! وحين درج جوسيبي من الكوخ كانت ترهبه الظلمات الموحشة حول الكوخ وتلك الصخور والممرات الجبلية المحيطة به . أما عضة الجوع ولسعة البرد فلم تكونا تفارقانه كأنما خلقتا معه .

وكبر جوسيبي وقد اعتاد فقره ولكن خياله كان يمتلىء بقصص البحارة ومغامراتهم المثيرة . كان يعدل الواقع بالحلم . ويشتهي أن يتعلق بأذيال أولئك الأبطال الخياليين ... ولكن من أين لهذا العصفور بأجنحة النسور ؟ ومن ذا الذي يروي مغامراته بين الكوخ والصخور ؟ وكبر غاريبالدي وبلغ الثامنة عشرة دون أن يستطيع القيام برحلة يمضي فيها حيث يشاء . ولو أن المغامرة تغلي في دمه ! كان قد أضحى بحكم مساعدته لأبيه ملاحاً ماهراً كما أضحى بحكم حبه للقراءة العلمية والرياضية على شيء من المعرفة باللغات المختلفة التي يعرفها قدماء البحارة ولكن تنقصه الفرصة ... وانتظرها طويلاً حتى جاءت وهو في الحادية والعشرين . اتخذه ربان بعض السفن معاوناً له في رحلة إلى البحر الأسود . وشاءت المصادفات أن يهاجم القراصنة هذه السفينة في بحر إيجة مرة

ومرتين وثلاثاً. وعلى الرغم من دفاع غاريبالدي والبحارة معه عن السفينة وبضائعها فقد هزموا أخيراً أمام اللصوص وقتلوا وجرحوا الكثيرين وانتهبت حتى الأشرعة والآلات وترك الباقون لا دون سلاح فقط ولكن دون طعام أو ماء أو ثياب لتبتلعهم الأمواج أو يهلكهم البرد والظمأ والجوع! وكافحوا بأجسادهم على الجلد حتى أدركوا القسطنطينية في الرمق الأخير... ورقت لهم قلوب زملائهم البحارة فاستخدموهم على سفنهم. أما غاريبالدي فكان مريضاً فلما شفي التحق بسفينة لملك سردينيا!

في هذه الفترة التي دامت خمس سنوات عرف غاريبالدي أركان العالم الواسعة. وعرف معها العواصف ولؤم الموج وهول الرياح الهوج. والغريب أن ذلك كله لم يشغله عن آلام بلاده. كان قد زار بعضها وهو مع والده وعرف روما وفلورنسة وميلانو. ورأى التناقض بين تاريخها الروماني الذي قرأ وتصور وبين واقعها الممزق الفقير. وفي تلك الفترة نفسها كان زعماء أوروبا بعد أن هزموا نابليون قد اجتمعوا في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ فأيدوا تمزق إيطاليا وحكامها الغرباء وسياساتهم الاستبدادية. وكان غاريبالدي يمتلىء على البعد حقداً وغضباً. ولكن ماذا يستطيع بحار غاضب منثور على الموج أن يفعل تجاه ملوك أوروبا المتكالبين والأمراء الفاسدين وتقاسمهم للغنائم والمناطق! فصقلية كلها من نصيب فرديناند الثاني وبارما ولوكا من نصيب ماري لويز. ولومبارديا والبندقية للنمسا! وباقي الإمارات بين البابا وأمراء لا يهمهم سوى التاج! وساد أوروبا غول الرجعية الأسود يوجهه ويشرف عليه السياسي متيرنيخ النمسوي ثلاثين سنة!...

واستقال غاريبالدي من البحر والبحار ليغامر. كان على صلة مع محام شاب من أهل جنوا اسمه مازيني فدعاه مع من دعا للعمل على تحرير البلاد... وكان الأمل أضأل من سم الخياط. الموت أو ظلام السجن أهون ما لدى الطغاة

من العقوبة لمن يواجه قرارات مؤتمر فيينا الـذي أبلغـه السياسيـون درجـة التقديس، والحل النهائي. سمى الأحرار جماعتهم باسم: إيطاليا الفتاة! وشى بعض الخونة بالجماعة فإذا بهم يسقطون في القفص كالعصافير ويرسلون إلى المشانق وأتيح لغاريبالدي من يساعده على الهرب فخرج ذات مساء من السجن في ثياب ريفية وسلك الدروب إلى جبال الألب وممراته. ثم ركب بعض السفن إلى البعيد البعيد، إلى أمريكا اللاتينية. نزل في ريو دي جانيرو وانضم إلى مواطنيه المهاجرين في البرازيل الذين اشتروا له سفينة صغيرة يعمل عليها في التجارة على السواحل!

هل تاب فما يعاوده الحنين إلى بلاده؟

يبدو أن كل ما اختزن من الحقد على الفقر وعلى السياسة وعلى السجن كان ينقلب في أضلاعه نقمة على الدنيا التي لا تسير كما يجب أو كما يريد. فلا هي تنصف المظلوم من الظالم ولا المسحوق من المستبد. إنها دنيا تسير بالمقلوب وتمد للظلام مداً! ولهذا ما إن سمع أن مقاطعة ريوغرانده ثارت على البرازيل لتتحرر منها، مع أنها قطعة منها حتى تطوع مع الثائرين. كانت الثورة قد أضحت لهباً في دمه. أعد سفينة حربية صغيرة سماها باسم زميله القديم مازيني ودرب على العمل فيها نخبة من الثوار. وكانت مغامرتهم الأولى نصراً باهراً. تمكنوا من أسر سفينة برازيلية واستولوا على حمولتها الثمينة من النحاس. ولكن المغامرة التالية كانت فشلاً ذريعاً لأن سفينة غاريبالدي بكل رجالها أسرت وأصيب أكثر رجالها. وكان غاريبالدي نفسه بين الجرحى بجراح بليغة!

وطال أسر غاريبالدي شهوراً بعد شهور. وقاسى في الأسر العذاب الأليم ألواناً. وتدخلت إحدى السيدات البارزات لإطلاق سراحه، لكنـه ما كاد يجد نفسه طليقاً حتى رجع إلى ريوغراندة وإلى ثوارها يواصل القتال مع الثائرين. ويتزوج أيضاً من إحدى الثائرات! وخمدت الثورة تدريجياً فلم يجد

غاريبالدي سوى الرحيل . نزل في مونتفيديو عاصمة الأوروغواي . وأخذ يعمل في التدريس . ولم يمض قليل وقت حتى ثارت الأوروغواي تريد حريتها وسرعان ما جمع لغاريبالدي من فرقته القديمة التي اشتهرت بالجرأة والفتك فرقة جديدة تحارب بجانب الأوروغواي التي ما إن انتصرت حتى منحت غاريبالدي رتبة جنرال مع قطعة كبيرة من الأرض . ولكنه رفض الأرض قائلاً :

ــ إن جهادنا إنما هو للحرية ولا شيء غيرها !

كان الرجل قد أناف على الأربعين وقد مضى على تركه إيطاليا وهربه من المشنقة إحدى عشرة سنة وسمع أن ملك سردينيا يحرر بلاده من الحكم النمسوي . وينوي منح بلاده الحريات الدستورية . فقرر أن يعود . اختار من جماعته ستة وخمسين رجلاً وأبحر بهم إلى نيس موطنه الأصلي على سفينة سماها الأمل رفع عليها علم سردينيا المثلث الألوان الأبيض والأحمر والأخضر ... وكانت المفاجأة المباغتة أن ملك سردينيا رفض نجدته . سمعته بالمبادئ الجمهورية المتطرفة أثارت مخاوف الملك . لكن الصدمة مالبثت أن تلاشت حين سمع غاريبالدي إعلان الجمهورية في روما سنة ١٨٤٩ فسارع غاريبالدي ورجاله يقاتلون مع شعب روما لتحريرها . كانت القوات الشعبية تقاتل ملكين معاً : فرنسا لويس نابليون وامبراطور النمسا . وتقاتل معهما القوات البابوية !

ثلاثة أشهر من القتال في الشوارع أثبت فيها غاريبالدي أنه جدير بسمعته كثائر . ولكن شعب روما هزم . وعاد البابا يحكم بالحديد والنار فهرب غاريبالدي وفرقته إلى البندقية ... وكانت بدورها ثائرة ! وجاءت فرصة غاريبالدي سنة ١٨٥٩ حين أعلن امبراطور فرنسا نابليون الثالث الحرب على امبراطور النمسا واغتنمت القوات الإيطالية الفرصة فثارت تحرر نفسها من ربقة النمسا امبراطور النمسا . وتسلم الزعامة فيها السياسي كافور الذي استدعى غاريبالدي وجعل له القيادة العامة في جبال الألب . ونجح الرجل في هزيمة

الجند النمسوي وتحرير لومبارديا . ثم انتقل بفرقته إلى صقلية في الجنوب فتطوع الكثيرون جداً معه ضد طاغيتهم الملك فرانسوا بن فرديناند الثاني ... كانت سمعة غاريبالدي الثائر تدوي كالطبل الهادر في إيطاليا كلها ... وحرر غاريبالدي صقلية وسلمها للملك فكتور عمانويل ولو شاء لكان دكتاتور إيطاليا ...

وانتظر غاريبالدي طويلاً أن يزحف فكتور عمانويل على روما ولكن الملك كان يحسب لذلك ألف حساب ويتباطأ فإن البابا هو الحاكم هناك فتولى غاريبالدي المهمة ... قام بالزحف في ثلاثة آلاف من فرقته وتصدى له حتى الملك نفسه يمنعه وأسره ... ولكن غضبة الشعب أجبرت الملك على إطلاق سراحه ليعاود مرة أخرى فكرة الزحف . ونفذها فعلاً سنة ١٨٦٧ ولكن الحظ خانه مرة أخرى فأسر وزج في السجن من جديد !

وأطلق سراح غاريبالدي مرة أخرى ليعيش في قصره في نيس ، حيث كان كوخ والده حتى مات . ولكن بعد أن تحررت روما . بعد هزيمة فرنسا وانسحاب الفرقة الفرنسية منها سنة ١٨٧٠ .

هل كان الملك فكتور عمانويل وهو يدخل روما ما يزال يذكر أن الذي أدخله إليها هو غاريبالدي ؟

الفراهيدي

إذا مررت بسوق النحاسين يوماً وأصمت أذنيك تلك الضربات المزعجة تنزل بها مطارقهم على النحاس لتعطيه الشكل الذي تشاء فهل يخطر في بالك أو بال غيرك أن تستخرج من ذلك علماً له منطقه وأدواته وأوزانه ومصطلحاته وأن يكون أكثر من هذا علماً لصيقاً بالشعر ؟ أيضاً ؟ ...

تلك إحدى قصص ذلك الرجل الذي ترك طابعه واضحاً في الثقافة العربية على الدوام : الخليل بن أحمد الفراهيدي . والرجل من أهل البصرة ولكن منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة . وإذا كان العرب يتمثلون في الذكاء بذكاء إياس فالفراهيدي كان من الذكاء العملي المنتج أذكى وأعظم ...

بدأ حياته مخلصاً لنفسه وهو قمة الإخلاص. أحس أن الخوارج مخطئون فذهب يحاربهم . ثم شعر أن الأعداء الروم أشد كفراً فتطوع يقاتل الروم . ثم اجتذبته حلقات التدريس في المسجد الجامع فانخرط في حلقة أبي أيوب السختياني . ويظهر أنه وجد نفسه هنالك فلزم الشيخ يأخذ عنه اللغة والنحو ولفت الخليل بجده وذكائه نظر الشيخ فإذا به يختصه بالرعاية . وبعد أربع سنوات حسب أنه بلغ من العلم درجة اتخاذ حلقة له ولكن سؤالاً من أحد تلاميذه جعله يفض الحلقة ويرجع للدراسة مرة أخرى ... كان هذا درساً من أهم ما درس . لقد تعلم أن فوق كل ذي علم عليماً !

واشتهر الخليل بالنحو واكتشف فيه قواعد وضوابط مدهشة كما عرف بالفقه والطب والفلك . وجاءه ذات يوم رجل بابنه فربط حماره ببابه ودخل

يقول للخليل: هذا ابني أريدك أن تعلمه علم النجوم وعلم الطب والفقه والنحو. وإن حماري بالباب ينتظر أن أعود به إلى أهله. فعصفت بالخليل عاصفة من الضحك قال: يا بني اعلم أن الثريا في كبد السماء ويكفيك هذا من علم النجوم واعلم أن الإهليلج الكابولي مفيد لعلاج الصفراء ويكفيك هذا من الطب واعلم أنه إذا مات رجل عن ثروة وعقار وبنين فذلك لأولاده حسب سنن الشرع ويكفيك هذا من الفقه أما النحو فاعلم أن الفاعل مرفوع دوماً وبهذا يبدأ النحو ... فشكر الرجل للخليل هذا الدرس الثمين وخرج إلى حماره ليعود بابنه وبالعلم الذي أصابه إلى بلده... ويقول درس ابني على الخليل أربعة علوم!!

لكن هل كان الخليل نحوياً فقط؟ إنه ما إن أدرك أبعاد النحو كلها حتى تحول عنه يبحث في شيء آخر لا علاقة له به... سمع قارئي القرآن يلحنون رغم وجود النقاط الملونة التي ابتكرها أبو الأسود الدؤلي على الحروف. فأقبل يفكر كيف يصلحها وتكتب بحبر واحد... وأغرق في الفكر وكان يسهو فإذا هو كثيراً ما يرى خارج البصرة في الصحراء هائماً. يفكر. وأخيراً قال إنها لا تحتاج إلى عبقرية!! الحل بسيط أما نقاط أبي الأسود فندعها لتمييز الحروف من باء وثاء وجيم وأما حركات الأعراب فنكتبها هي نفسها صغيرة فوق الأحرف. فالضمة واو صغيرة والفتحة ألف صغيرة ومثلها الكسرة وينتهي الأمر. ولما طالع أصحابه برأيه هزئ بعضهم وسكت بعض ورفض بعض، ولكن الحل انتشر فلا نزال نحن عليه إلى اليوم بعد ألف وثلاثمائة سنة!!

ونعود مع الخليل بن أحمد إلى كشفه الثالث. كشفه الذي ألهمه في سوق النحاسين كان ذات يوم في السوق ثم إذا به في اليوم التالي يعود إليه، ثم يعود في يوم ثالث ورابع وخامس. ولقد يطيل الوقوف هنا وينتقل من أمام دكان إلى آخر ثم يعود. وتهذي شفتاه بما ليس يدري المارة بم تهذي؟ ولا بماذا يفكر؟

ولولا أنه أضحى العالم المعروف من الكثيرين لأنكروه وحسبوا فيه الجنون... لا سيما وهو يمر بسوق القصارين الذين يصبغون الثياب. ويضربونها ليدزمها الصباغ جميعاً ويسجل على لوح معه بعض العلامات... وأخيراً وجد ما يبغي من هذا الاستقصاء الغريب.

كان قد مضى على الشعر العربي دهر طويل لا يعلم مداه إلا الله وهو مجرد موسيقى موزونة في نفس الشاعر وفكره. يقول الشاعر شعره لا يعلم له وزناً سوى ذائقية الفطرية والموسيقى المتوازنة بين ألفاظه. وأقبل الخليل يريد أن يجعل لهذه الأنغام اللفظية الموسيقية أوزاناً تحددها وتضبط إيقاعها. والشعر العربي كان بحوراً منذ العهد الجاهلي لا يلم شعثها قيد فمن ذا يحيط بها؟ وشيئاً فشيئاً انتصر ذكاء الخليل على تلك البحور المشعثة. اتخذ من كلمة الفعل وزناً أولياً. إن فَعْـل هي تن تن وبين إسراع بهذا القرع أو إبطاء أو تنويع وجد أوزان بعض القصائد. ثم غير وبدل في التفعيلة فوجد أوزان قصائد أخرى ثم أخرى. واجتمع له من ذاك مادة واسعة وضع بها كتاباً ذهب به إلى بعض معلمي الغناء فما أبه له... كان الذي يهم هذا المعلم هو النقر العملي على العود لا الوزن. وكان المعلمون الآخرون مثله في ذلك يعتمدون فيه على الأذن والأذن وحدها. وكشف الخليل أن الشعر كالموسيقى هو مجرد حركة وسكون... وتم بذلك كشف موازين الشعر التي عدد منها الخليل ستة عشر بحراً. وكان من ذلك علم العروض!

حين خرج إلى الناس بهذا العلم في المسجد الجامع لم يجد صوتاً معارضاً. وبهت الذي كفر! لقد قضى الخليل دهراً وهو يجرب أوزانه وتفعيلاته. في أفواه الآبار ومع المغنين وعلى الطبول والدفوف وعلى أدوات النحاس وبين القصارين حتى استقام له علماً كاملاً لم يضف إليه اللاحقون من بعده إلا الذيول القليلة! وبقي العروض علم الخليل الفراهيدي! ولقد رآه ابنه ذات يوم يهجس ويكلم نفسه ويدخل رأسه في البئر يبغي سماع الأصداء

فحسب فيه الجنون وخرج إلى الناس بالنبأ المحزن وأقبل الجيران فوجدوه على حال من ليس في هذه الدنيا فقال لابنه :

لو كنت تعلم ماأقول عذرتني أو كنت تعلم ماتقول عذلتك
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتك !

وذات مرة خطر في باله مشروع عظيم . لم لا يحصر كل كلام العرب ؟ وهاله أن يقدم من هذا المشروع على بحر لا ساحل له . وكيف يحصر البحر ومع ذلك فقد وضع الطريقة على أساس نطق الحروف وبدأ بالعين لأنها تنطق من الحلق ، وكان من ذلك أول معجم لكلام العرب : معجم العين ! ولو بدأ يجمع حرف إلى حرف لكان عليه أن يستعرض ١٢ مليون ونصف مليون كلمة !

لكن هذا الذكي الفذ انتهى نهاية فاجعة ... علم بأمر جارية اختصمت مع أحد الباعة في ثمن غبنها فيه وأخذ منها أكثر مما يجب أن يأخذ . فأخذ يفكر في طريقة يمتنع فيها هذا الغبن وتنقطع الخصومة ... وفكر ثم فكر . ودخل المسجد الجامع يفكر جيئة وذهوباً وكيف السبيل؟ رأسه كان يغلي بالأفكار وقدمه تسرع به الخطى وفجأة اصطدمت رأسه بسارية المسجد ! ولم تكن الضربة شجاً فقط ولكنها كانت القاضية !

وشيع الناس يوم شيعوه لهباً فكرياً اسمه الذكاء !!

الشاعر الرجيم

رامبو : صفه بما شئت ، هذا الشاعر . من انهيار أخلاقي واستهتار اجتماعي وتشرد ، وجنون فأنت محق ... أغدق عليه كل صفات المنحطين . ولكنك لا تستطيع أن تقول إنه ليس بشاعر . أثر في جيل كامل وفي فترة قصيرة جداً . ثم انسحب من الشعر والأدب ومن حياته الماضية إلى الأبد ... ليموت في مجاهل أفريقية . إنه الشاعر الفرنسي آرثر رامبو .

حياته نموذج غريب للتدفق الشعري في مطلعها حتى العشرين وحتى كأنه شعر كله . ثم صمت فجأة صمت الأبد عشرين سنة كره فيها حتى كلمة شعر وعمل في التجارة والذهب . في حين كانت بلاده تمجده وتدرسه وتتوجه مؤسساً للمذهب الرمزي في الشعر ! وقبل أن يكمل العشرين الثانية مات !

ورامبو ابن أسرة تنافرت طباع الزوجين فيها ما بين ضابط عربيد وأم هادئة فالشجار فيها دائم . وقد نشأ الطفل آرثر وفيه من طباع أبيه السخر وعدم الاستقرار ، ومن صفاته الجسيمة زرقة العينين والجبهة المنتفخة والشعر الكستناوي . وورث عن أمه القوام الفارع والكبرياء المتوحش وجمع معهما معاً تلك الروح المتناقضة ما بين مادية الجسد والروح الصوفية ! أما مقر الأسرة ففي شارلفيل في منطقة الآردن الفرنسية وسوف يتردد اسم هذه المدينة كثيراً في سيرة رامبو ، لأنه مائة مرة هرب منها ومائة مرة عاد إليها نفسها ... وكان آرثر

ضيق الصدر بكل شيء وكان يضايقه خروجه مع أمه وإخوته في موكب منظم صغير كل يوم أحد إلى الكنيسة .

يدخل رامبو المدرسة في الثامنة من العمر كزوبعة من الشر لا تأبه للنظام ولا تحب الاستقرار . ولكنه شعلة من الذكاء يسخر من رفاقه ومن المعلمين ويقضي درس الرياضيات في كتابة أشعار باللاتينية .. وقال عنه مدير المدرسة : هذا إما ملاك أو شيطان ! ومع ذلك كان الأول في الصف ! ونال الجائزة الأولى في الشعر اللاتيني في المدرسة مما جعل شارلفيل كلها تلهج باسمه !

ودخل معهد المدينة وتعرف فيه على أستاذ تعهده بالأفكار فكانت بين المعلم وتلميذه صداقة فتحت لرامبو آفاق الثقافة وآفاق المكتبة فكان القارئ النهم . والمتفرد الذي يهرب من المدرسة إلى الغابات وشاطىء النهر يتأمل . ويكتب الشعر . وحين نادوه في نهاية السنة لاستلام جائزة الشعر صاح : هذه أشياء لا قيمة لها . فدارت الألسن تصفه حتى بالجنون ! وحين قامت حرب السبعين ، وكان ما يزال في السادسة عشرة من العمر ، هرب من شارلفيل وبدأ التشرد ! ... إلى أين؟ ليس يدري ! سار على قدميه مسافات بعد مسافات . وصل بلدة شارلروا وليس في جيبه فلس . كان طعامه من رائحة الطعام في البيوت ومن الدخان . نام على الطريق وفي اليوم التالي تابع السير على قدميه وشحذ الطعام من الفلاحين ونام في الزرائب وشاطر خدم الحقول غذاءهم ... وكانت سلوته الشعر . كتب كثيراً من القصائد . آه لو كانت القوافي تلتهم !

حين وصل بروكسل كانت أصابعه تلعب في جيوب مثقوبة وثياب مهلهلة ممزقة وشعر مشعث وبحث عن من يلجأ إليه فلم يجد أحداً . بلى ! تذكر اسم صديق لأستاذه في المدينة استضافه عنده يومين ثم اشترى له بطاقة في القطار ليعود إلى بلده ! وعاد ولكن إلى الملل لا تخترقه إلا أصوات القنابل

وحرائق الغابات فحرب السبعين بين فرنسا وألمانيا كانت قد اندلعت . وأضحى رامبو كتلة من الحقد على امبراطور فرنسا وعلى الطغاة بكل مكان وعلى السفاحين في الحروب ... وأخيراً هرب مرة أخرى ولكن إلى باريس . كان في السابعة عشرة . ولكنه أيضاً في هذه المرة وحيد جائع على الأرصفة ... يتنقل من رصيف إلى آخر . يتسكع ! وشهد مرسماً مفتوح الباب فدخل ونام على المقعد الذي وجده ... وأيقظه صاحب المرسم وأخرجه بعد أن أعطاه عشرة فرنكات وبعض النصائح ! وافترسه الجوع يوماً بعد يوم كما تعب من النوم على الأرصفة وتحت الجسور . ومن التسكع طول النهار ! قضى أسبوعين من الضياع وأخيراً قرر العودة إلى مدينته ... على الأقدام طبعاً . وعاد بثياب ممزقة وسحنته في شحوب الموتى !

وما طال مكوثه في المدينة حتى يعود إلى باريس فالناس يتحدثون عن ثورة فيها وهو تواق للاشتراك في الثورة . لقد أتقن هذه المرة فن التشرد . الشحاذة والتعلق خلف المركبات . وتسلية أي جماعة يجدها بالحديث لينال العشاء المجاني . ووصل باريس وتطوع مع الثائرين للحرية ثم ... نجده في إحدى الليالي هارباً بمعطف قديم وعند الفجر يرمي نفسه في الطريق إلى بلدته ! ... وصلها محطم النفس وفي منتهى المذلة !

هل انتهى هذا المتمرد الفاشل من تشرده ؟ أبداً . كان في مدينته نفسها متشرداً . غليون في فمه وثياب قذرة ممزقة عليه وشعر طويل أشعث وعينان زرقاوان في منتهى الكآبة واليأس . ولسان ما ينفك يشتم الكنيسة وأثرياء المدينة البورجوازيين البلداء وأصحاب المعامل الوقحين والرهبان الذين يحملون آثام الدنيا ورجال الحكومة الأوباش ورئيس الجمهورية الجبان المهزوم في حرب السبعين !

في هذه الفترة وفي شعره الرائع لم يكن رامبو يعرف أنه إنما يضع الأسس

لنظرية جديدة في الشعر سوف تكون مدرسة كاملة. لم يكن يعرف أن شعره سوف يكون النموذج الأعلى للشعر الرمزي الرائد الأول!

ماذا يهم بعد هذا أن رامبو هرب ثم هرب ثم هرب. وأنه صادق شاعراً آخر اسمه فيرلين فكانا لا يفترقان حتى أكلتهما الظنون. وجرهما التشرد إلى بروكسل وإلى لندن. وأنهما غرقا في الخمر والحشيش وأنهما اصطدما حتى أطلق فيرلين الرصاص على رامبو وأقبل يبكي على قدميه. ماذا يهم؟ الهام أن رامبو عاد ذات يوم إلى بلده فأكمل كتابه الشعري فصل في الجحيم ثم... ثم انقطع فجأة عن التشرد وعن الشعر أيضاً وعن أصدقائه القدامى. وعن كل حياته الماضية جميعاً.. وسافر أولاً في شوارع أوروبا البالية كما يقول ثم اتجه هذا الشاب الغريب إلى الشرق براً يعمل في مختلف المهن ويتحدث في كل شيء إلا الشعر في حين كانت سمعته في فرنسا وأوروبا تنمو كبعض الأزهار الوحشية! وتفتح كل يوم فتحاً جديداً...

وعاد فتطوع في الأسطول الهولندي بحاراً عادياً، ثم هرب منه في جاوا ثم عمل على باخرة إنكليزية تحطمت صواريها قرب رأس الرجاء الصالح وألقت به الأقدار أخيراً في الاسكندرية ليعمل لدى شركة في قبرص مراقب عمال! ثم سافر إلى عدن يتاجر ببعض التجارة الرخيصة. ووصل حبله بامبراطور الحبشة وانفتح عليه الرزق. فإذا هو ذو مشاريع في أفريقية لا يحدها حد وذو ثروة من الذهب كانت بالنسبة إليه خيالية. ولكنه يصاب في ركبتيه بمرض ما يزال يعقده حتى أضحى يتنقل على الحمالات!

ويتحطم رامبو وهو عائد إلى أوروبا بقايا إنسان على محمل وثير من الحرير! وحين وصلت الباخرة به مارسيليا كان الصقيع يدب في عروقه والألم يدمره. وكان يفاوض شركة البواخر ليعاود السفر حين لفظ أنفاسه سنة ١٨٩١.

وكان في السابعة والثلاثين فقط من العمر!

الملكة الحرة

بلقيس اسم يرن في التاريخ العربي رنين الأجراس. يقولون عنها إنها ملكة سبأ في اليمن قبل ألفين وثمانمائة سنة ويروون أنها زارت سليمان النبي في القدس وأنه جعل أرض قصره من الرخام اللامع كالمرايا لينظر إلى ساقيها... .ويروون ويروون... وما تدري أكانت بلقيس ملكة حقاً في اليمن أو مجرد أسطورة لبست ملابس الحقيقة مع الأيام وزينتها القصص الشعبية بما تزين... وليس حديثي عنها على أي حال ولكن عن امرأة أخرى حكمت اليمن فعلاً فترة طويلة جداً وفي نطاق التاريخ الإسلامي هي الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحي.

هذه السيدة ظاهرة عجب في الذكاء والمهابة والحنكة السياسية. تزوجت ولي عهد الأسرة الصليحية التي قامت في اليمن ما بين سنتي ٤٣٩ ـــ ٥٣٢؛ أي قرابة مائة سنة. وقد نقل مؤسس الأسرة علي بن محمد الصليحي اليمن، في أقل من ١٧ سنة من التمزق إلى الوحدة وصار له ملكها بمدنها وقلاعها وحصونها والسهل والجبل... لكنه رغم أنه كان ابن قاض سني فقد داخل الفاطميين الذين حكموا في مصر وصار نائباً لكبير دعاتهم في اليمن فأعانوه ما استطاعوا حتى استتب له الملك لكن بعض أسرة نجاح المنافسة له انتهزت خروجه لزيارة الخليفة المستنصر بمصر فدبرت مقتله. غدر به الأحباش وموكبه لم يجاوز صنعاء إلا قليلاً وأسروا زوجته!

تولى الأمر بعده ابنه أحمد الذي بدأ عهده أسوأ بداية بانتقاض كل القوى عليه.. ولكنه قضى قرابة عشرين سنة حتى أخمدها.. ثم أصابه مس

من الفالج فاعتصم بحصن يعرف بحصن تعكر حتى توفي سنة ٤٧٧ وحتى فلج لم يكن أحد يسمع بالسيدة الحرة أروى. كانت في الظل. وقد كتب السلطان أحمد للخليفة الفاطمي المستنصر فأذن بتفويض شؤون الدعوة الفاطمية والدولة معاً لهذه السيدة...

وبهذا الشكل برزت إلى الصف الأول تبذ الرجال عقلاً وعلماً وإدارة وجميل تدبير وحسن اختيار للرجال... وما أظنكم تحزرون كم بقيت تدير المملكة. لا سنة ولا عشراً ولكن قرابة ستين سنة. وقد توفيت سنة ٥٣٢ وهي في الثانية والتسعين من العمر بعد أن تركت بصمتها واضحة في التاريخي اليمني!

تربت الملكة أروى في بيت الملك. قامت بتربيتها حماتها أسماء بنت شهاب زوجة مؤسس الدولة. يقولون إنه كثيراً ما كان يقول لأسماء: اكرميها فهي والله كافلة ذرارينا وحافظة هذا الأمر على من بقي منا» ويحكى أنها روت لحماتها أسماء رؤيا رأتها قالت فيها: إنها رأت في المنام أن بيدها مكنسة وأنها تكنس قصر الملك فقالت لها أسماء: كأني بك وقد كنست آل الصليحي وملكت أمرهم...

ويقولون إنها كانت جميلة الخلقة، مديدة القامة، جهورية الصوت قارئة كاتبة تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ وأيام العرب. ولها تعليقات على هوامش الكتب تكشف عن غزير مادتها. وكان يقال لها: بلقيس الصغرى! وكانت مستبحرة في علم التنزيل والتأويل والحديث الثابت عن الأئمة والرسول عليه السلام. وكان دعاة المذهب الفاطمي يتعلمون منها من وراء الستر ويأخذون عنها ويرجعون إليها... وقد رفعها الخليفة المستنصر الفاطمي من مقام الحدود إلى مقام الحجج.

ومرتبة الحجة في نظام الدعاة الفاطميين هي بعد رتبة داعي الدعاة في مراتب الدعوة المقسمة إلى ١٢ مرتبة. والطريف أن أحد أقطاب الدعوة في

عهد الملكة الحرة كتب رسالة طويلة يدافع المعترضين القائلين بأن الإناث لا يستحققن رتبة الحجية . وأتى في ذلك على ذكر فاطمة الزهراء وخديجة بنت خويلد أم المؤمنين ومريم ابنة عمران ... وأكثر طرافة أن صداق هذه الملكة كان ارتفاع ميناء عدن أي مجموع ما يأتيها من الضرائب كل سنة إلى هذا الميناء العالمي في ذلك الوقت . وكان دخله السنوي مائة ألف دينار ذهباً . وقد تزوجت الملكة الحرة وهي في الثامنة عشرة وماتت في الثانية والتسعين وظلت تتقاضى صداقها بهذا الشكل أربعاً وسبعين سنة !! وأكثر طرافة من هذا وذاك كله أنها مع إدارة ملك اليمن كانت تدير الدعوة الفاطمية في الهند وفي عمان وفي اليمن نفسها أي تدير المنظمة الشيعية الاسماعيلية السرية وتوجه أعمالها ... فهذه الدعوة ما تزال باقية إلى اليوم !

أما لقيت الملكة الحرة في ذلك المصاعب؟ بلى ! ولقيت منها ما كاد مرات عديدة يزعزع أركان الدولة الصليحية . ولولا ما جبلت عليه من الحنكة السياسية وحسن اختيار الرجال لعصفت بها العواصف وذهبت بها مع الريح ! بالإضافة إلى استنادها المكين على الخلافة الفاطمية في مصر وطلبها العون والمشورة الدائمين منها . كان الفاطميون يمارسون نوعاً من الانتداب على اليمن في عهد الصليحيين وفي عهدها بخاصة . وعلى الرغم من أنه انتداب اسمي إلا أنه كان بالنسبة لخلفاء مصر هاماً . إنه على الأقل يجعل جبهة اليمن التي تأتي منها التجارة العالمية قارة هادئة وفي أيديهم . كما تجعل دعوتهم السرية في حماية القوى اليمنية ! وفي مدى انتشار هذه القوى .

واليمن رغم كتلتها الواحدة تقسمها الجبال والوديان إلى مجموعات بشرية متناحرة وهكذا فهي صعبة الخضوع إلا ليدٍ قوية .. وكانت تتنافس فيها أيام الدعوة الفاطمية دعوة أخرى لآل البيت أيضاً هي دعوة الأئمة الزيدية ، كما كان ثم طامعون في حكم المناطق أقواهم آل نجاح في زبيد عدا الطامعين

الآخرين.. فكان على الملكة الحرة أن تحارب تارةً وأن تهادن تارةً أخرى وأن تغض الطرف عن ثورة هنا تارةً ثالثة وترضى باقتطاع جزء من مملكتها تارة رابعة. وكانت تفعل ذلك كأنه أمر من طبيعة الأمور...

واختارت الملكة لمؤازرتها أول الأمر أبا حمير سبأ الصليحي وهو من الأنجاد الكبار. وحين توفى ابنا الملكة محمد ثم علي وانفردت بالحكم جاء أبو حمير يخطبها في زواج سياسي فأبت وأنكرت غاية الإنكار وجمع الجيش وكاد يحاربها لولا أن أوحى إليه بعض أصحابه أنه لا يزوجها منه إلا الخليفة المستنصر. فكتب إليه فجاء من مقر رسول يحمل الأمر بالزواج وخطب أمام أهل الدولة يقول: أمير المؤمنين يقرئ السلام على الحرة الملكة السيدة الرضية الطاهرة الزكية وحيدة الزمن سيدة ملوك اليمن عمدة الإسلام ذخيرة الدين عصمة المؤمنين كهف المستجيبين ولية أمير المؤمنين كافلة أوليائه الميامين ويقول لها ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً. وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير سبأ... على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف ولطائف وطيب وكساوي...».

غلت الملكة الحرة وحارت وأحنت رأسها للأمر وهي تفور وقالت: بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل وبالله المستعان على ما تصفون. وقبلت بعد لأي أن يعقد العقد امتثالاً لأمر المستنصر على أن لا يتم الزواج أبداً...

وهكذا كان. لقد وهبت نفسها للمملكة كما تفعل الراهبات. ولقد مات أبو حمير قبلها بحوالي ٣٥ سنة وظلت صاحبة الأمر والنهي حتى النهاية.... والهام أنها اهتمت بالزراعة والمراعي والأبقار وجعلت لها أوقافاً ما تزال تعرف إلى اليوم بصلبة السيدة. وعبدت الطرق لعبور التجارة وتنشيطها وأنشأت الكثير من المدارس ووسعت جامع صنعاء وزينته. وبنت المساجد في

بلاد بريك وذي جبلة . على أن عوامل عديدة كانت تعمل على تآكل الدولة . فقد عاد الدعاة إلى استغلال الناس بالإقطاع وضغطت الحروب على موارد الدولة . وكانت كتلة الناس سنية فلم يلتفوا الالتفاف الكافي حولها . وهكذا فشلت محاولاتها الإصلاحية في داخل اليمن . وكانت أبرز خدمة قدمتها الملكة الحرة للدعوة الفاطمية أنها فصلت الدعوة في نهاية عهدها عن إدارة الدولة تماماً . فلما ماتت وسقطت دولة الصلحيين تابعت الدعوة مسيرتها في اليمن وشرقي أفريقية وعمان والهند فما تزال قائمة إلى اليوم . ألا تسمعون بالاسماعيلية ؟

قصة لنكولن الفلاح

في واشنطن، غير بعيد من البيت الأبيض، يقوم بناء إغريقي الطراز تمشي المسافة إليه عبر أرض خضراء، فضاء واسعة، فيها هنا وهناك بعض الذكريات ومنها الجدار الذي نقشت عليه أسماء الآلاف المؤلفة من ضحايا الفييتنام، ويقوم البناء الإغريقي في النهاية على قاعدة من سلم حجري ضخم يصعده معك ألوان من الناس والأطفال إلى حجرة وحيدة في أعلاه واسعة واسعة وفي داخلها. تمثال ضخم لعجوز جالس على مقعد، وقد بسط يديه على المتكأين... ومن ورائه جملة من أقواله بالإنكليزية وتحتها اسم أبراهام لنكولن!

هذا إذن أبراهام لنكولن؟

وتذكرت. في فتوتي كان لنا أستاذ فقير مأخوذ بهذا الرجل يشبه نفسه به. ولعله كان يعتقد أيضاً أنه يمكن أن يقوم بعمل ضخم كعمله. من يدري؟ ولكنه كان يكثر الحديث عنه ويأخذنا على أن نحفظ سيرته وسيرة أمثاله. من الفقراء المساكين الذين أضحوا شيئاً مذكوراً في التاريخ وعلى رأسهم لنكولن. وما زلت أذكر من حديث الأستاذ أن هذا الفتى كان ابناً لأسرة من الفلاحين المتنقلين في شمال غرب أمريكا. وكان أبوه أمياً. ولولا أن أم لنكولن كانت تعرف شيئاً من القراءة لنشأ أبراهام بدوره كأبيه على الأمية. ولكن تعلمه كان في الإنجيل فقط. فلم يكن في الكوخ الذي ينزلونه في البرية غيره مما يقرأ... وتنقلت الأسرة بين كانتاكي، وأنديانا وإيلينوي. وعانت في هذا الانتقال

أصناف البلوى . من السفر الطويل الشاق إلى الجوع الذي كان والده يعالجه بصيد بعض الطير والحيوان إلى الإجهاد الشديد إن وجد عملاً ... أما الليل فكانت الأسرة تقضيه على فراش من ورق الشجر . وأما الملبس فكان دوماً سراويل من جلد الغزال .

أتقن أبراهام الكتابة والقراءة في سنتين . وحفظ جانباً من الإنجيل كتاب الدراسة الوحيد في منزله لكن الدراسة انقطعت فجاءه بموت أمه . وهو لما يزل في العاشرة ورأى أبوه أن يرسله مع من يعملون أجراء في المزارع المجاورة . الأجر زهيد بلى ! ولكنه يساعد الأسرة . ووقع لأبراهام ذات يوم كتاب (طواف الحاج) تأليف بانيان فقرأه ثم قرأه ثم قرأ . أربع مرات . وأعجبته القراءة فصار يستعير كتباً أخرى من بعض رفاقه ليقرأ : روبنسن كروز ، وخرافات إيزوب .

لم يكن في هذا الفتى الفقير الذي يتصبب عرقاً تحت الشمس المحرقة ما يكشف عما سيكون . وكان جسمه القوي يساعده على العمل الشاق . وتزوج أبوه من سيدة جلبت معها إلى كوخهم ثلاثة أطفال وبعض الأثاث . وفرح أبراهام لأنه لأول مرة نام على فراش مريح . وكانت امرأة أبيه عطوفاً فعاش لنكولن العيش الهادئ ولم يكن يبخل عليها بالمساعدة في شؤون البيت . لكنه كان في الوقت نفسه لا يكف عن القراءة . وكان أشد ما أثاره في قراءاته قصة (حياة واشنطن) الرئيس الأول للولايات المتحدة بواقعها وأحلامها . وقد حدث أن تشاجر مع جارة له فقالت من قبيل التحدي :

ــ ماذا تظن نفسك سوف تكون ؟ رئيس بلدية ؟ محافظاً ؟

فأجاب بالتحدي الساخر نفسه :

ــ لا ! سأكون رئيس الولايات المتحدة !

حين بلغ الثامنة عشرة وجد لنكولن لنفسه عملاً خارج المزارع : صار بائعاً في متجر . ثم ترك هذا العمل إلى آخر بعد أن قرأ بالمصادفة كتاب

(القوانين المعدلة لولاية أنديانا) ووجد في نفسه ميلاً إلى دراسة الحقوق . هل نمت في نفسه بذرة العدالة ؟ أم انكشفت ؟ لست تدري ولكن دراسة الحقوق صارت هوساً في نفسه . ولم يكن في قريته محكمة فكان يقطع أحياناً حوالي ٢٥ كيلومتراً كل يوم مشياً ليحضر المحاكمات في البلدة المجاورة . صارت دنياه القوانين والمواد والأحكام . ثم أتيح له أن يزور لأول مرة في حياته ، بعد حياة القرى مدينة كبيرة . كلفه بعض أصحاب السفن أن يكون حارس البضاعة على ظهر سفينته الذاهبة إلى أورلئان . وهناك صدم . لا بحياة الأغنياء المترفين ولا بالأسواق الملأى بأنواع البضائع وبالطرقات المتعانقة لا تنتهي ولكن بأسواق الرقيق والنخاسين . صليل السلاسل ظل في أذنيه طويلاً . ونظرة الذل المنكسرة ظلت لا تفارقه : كيف يباع البشر كالشياه والبقر ؟ عاد أبراهام إلى قريته حزيناً وبدا له أن يغير مسكنه ذلك الكوخ المتداعي فتحمل على عربة ريفية بأربعة ثيران وقضى عدة أيام وليال حتى وصل إيلينوي . وأقام كوخاً آخر من جذوع الشجر وورقه وعاد إلى العمل الزراعي ... ولكنه كان من القدرة بحيث استطاع أن يوفر ثمن بعض الملابس بالأعمال الإضافية التي كان يقوم بها ... وأتاه صاحب مطحنة يوماً بعمل على سفينة أنشأها ترحل إلى أورلئان فقبل العمل الذي أعجب صاحبه فعينه مديراً لمتجر له في بعض القرى . حتى الآن ليس في حياة لنكولن أي شيء غير عادي إن لم يكن تافهاً . حياة عامل قروي ...

لكن لنكولن وجد أن يتطوع لحرب ثورة الهنود الحمر الذين ثاروا بقيادة الصقر الأسود . كان ذلك سقطة في حياته ولكن غره أن يختاره المتطوعون قائداً لهم ! فكان . وقادهم من نصر إلى نصر ! فلما انتهت الحملة وكانت الانتخابات العامة للمجلس التشريعي للولاية رشحوه لعضوية المجلس ونال ٢٧٧ صوتاً من أصل ٢٨٠ في الولاية .

هكذا نقلته عملية الحرب العدوانية من الفلاحة والبيع والتجارة إلى

العمل السياسي. ولم يكن هذا العمل مجزياً فعمل خلاله بالمساحة وتزوج وتابع دراسته الأثيرة: الحقوق ثم أعيد انتخابه ثانية لمجلس الولاية. فأخذ يعمل بالمحاماة وفي سنة ١٨٤٦ نجح نجاحاً هائلاً في عضوية الكونغرس وعرف بمعارضته للحرب مع المكسيك وبمكافحته لتجارة الرقيق!

انغمس لنكولن في الكفاح السياسي والمحاماة ١٤ سنة كان اسمه فيها ينتشر وسمعته تزداد وفي مؤتمر الحزب الجمهوري سنة ١٨٦٠ لم يستطع بلوغ منصة الخطابة إلا بشق الأنفس لأن المتحمسين لانتخابه كانوا أكثر بكثير مما ينتظر. ورشحه الحزب للرئاسة ضد منافسه في الحزب الديمقراطي دوغلاس... وفاز على دوغلاس وصار رئيساً للولايات المتحدة ولكن... كانت القضية أعمق بكثير من النصر والرئاسة فقد كان الرأي العام في البلاد مقسوماً بين الاثنين: الولايات الجنوبية زراعية وفيها أعداد هائلة من العبيد والشمالية صناعية لا تحتاج الكثير من العبيد. واختلف القسمان وكان نجاح لنكولن يعني أنه يصطدما وتعم الاضطرابات وتبدأ الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب.. هذه الحرب عرفت بحرب الانفصال...

وانقسمت الولايات المتحدة بلدين يحارب أحدهما الآخر بشراسة وقسوة. مآسي هذه الحرب ماتزال حتى اليوم تحز في النفوس. الأشلاء. المدافع المحطمة. فظائع القتل. دخان البارود القاتل. تهديم القرى. فرقعة الجماجم كل ذلك عرفته هذه الحرب التي قادها لنكولن الاتحادي ضد الجنوب الانفصالي وأصدر خلالها قانون تحرير الرقيق... بعد أربع سنوات استسلم قائد الجنوب وسلم رايته وسيفه... وبعد قليل من أيام النصر كان الرئيس لنكولن في الأوبرا فانفجرت فيه رصاصة قاتلة أودت به. أطلقها مجهول... جنوبي!

ترى لو لم ينتصر لنكولن في حرب الانفصال وانهزم. فماذا كان مصير الولايات المتحدة الأمريكية؟ وماذا كان مصير الأرقاء فيها؟ ومصير فريقه

الاتحادي واسم « الولايات المتحدة » ؟

بهذه المناسبة أستاذنا الذي كان يتشبه بلنكولن ويحرص على أن ندرس حياته لم يحظ من الشبه به إلا بشيء واحد ... هو الموت . فقد قتل عبثاً في مشادة حارة بين خصمين كان يفصل بينهما ... وتذكرنا جميعاً بموته قصة لنكولن الذي تعده الولايات المتحدة بطلاً ... وكثيرون يرون فيه شبح القاتل للهنود !

خليفة سنتين ... ولا ذكر له !

نحن الآن في بغداد في ما بين السنة الأخيرة من القرن الثاني والأولى من القرن الثالث للهجرة ... بغداد كانت يومذاك عاصمة الدنيا ولكنها مختبطة والجند فيها سارحون في الطرق والأحجار التي جمعت من كل مكان للدفاع عن الخليفة مرمية في السبل مع المخالي والمقاليع ودوى الناس بالأحاديث يهوم كئيباً كئيباً ... لقد قتل المأمون أخاه الأمين . ومئات الألوف من الألسنة ترتفع إلى ربها بالآية لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وأصحاب الرأي والكبراء يجتمعون وينفضون دون قرار . ومن ذا يتخذ القرار وهناك المأمون في مرو قد ادعى لنفسه الخلافة فلم يبايعه فيها إلا بعض أهل خراسان ؟ وقائده عبد الله بن أبي طاهر يستدعيه للقدوم إلى بغداد وهو يبطىء ويبطىء . وانقضت سنة ونصف السنة على مقتل الأمين دون حسم لجانب المأمون أو غيره ؟

وتسامع الناس والعباسيون منهم بصورة خاصة وكانوا يعدون ثلاثة وثلاثين ألفاً في العراق أن المأمون بعد أن استوزر الفضل بن سهل الفارسي استدعى إليه من مكة الإمام علياً الرضا فجعله ولي عهده وألغي السواد شعار العباسيين واتخذ الخضرة شعار العلويين . وشق ذلك على العباسيين . أتذهب منهم الخلافة بهذه السهولة ؟ وتشاوروا مع الكبراء والعلماء ، واتخذوا القرار الحاسم :

ـــ نبايع ابراهيم بن المهدي !

كانوا يعرفون أن ابراهيم هذا همه في صوت يغنيه ، وكان حسن الغناء ،

وفي ضرب يطرب له . ويعرفون أنه ابن جارية سوداء اسمها شكلة . ويعرفون أن بيت شعر عنده يعدل الدنيا وما فيها . ولكنهم يعرفون بالمقابل أنه الأخ غير الشقيق لهارون الرشيد وابن الخليفة المهدي . وأنه وافر الفضل غزير الأدب سخي الكف ولم ير في أولاد الخلفاء أفضح منه لساناً ولا أحسن منه شعراً ... وليكن أسود البشرة فماذا في ذلك ؟ إنه خير من نختار ... إنه عم المأمون على أي حال وأحق منه بالعرش .

نفس عصام سودت عصاما وعلمه الكر والاقداما

وأتوا بابراهيم بن المهدي فألبسوه حلة الخلافة وأطواقها . وبايعوه كيداً بالمأمون الذي انحاز للفرس وحول ولاية العهد إلى الأسرة التي طالما قمعها آباؤه وأجداده .

كان ذلك في أواخر سنة ٢٠١ وبايعه أهل بغداد وخلعوا المأمون وأعلنوا ذلك للناس على المنابر . وصعد ابراهيم بن المهدي المنبر وخطب في الناس وطارت الكتب ببيعته إلى الأقاليم ! وعين القواد ونصب الولاة وختمت باسمه الكتب وتحرك البريد ...

بقي خليفة سنتين إلا أياماً معدودة وأدرك المأمون أن الأمر جد . وأن استمرار عمه في الخلافة قد يحرمه منها فأعلن أنه قادم إلى بغداد ... لكن مسيرته من مرو إلى بغداد التي تأخذ في العادة في تلك الأيام شهراً استمرت سنتين . كان يسير ويتوقف ويبعث المتجسسة من الرسل ويتسمع ما يقال . حملوه جريمة مقتل أخيه . لم يغفروها له .. رغم ما شوهوا من سمعة الأمين ونشروا القصص عن لهوه ولا مبالاته وكلها قصص مخترعة لتهوين أمر هذا القتيل . وأدرك المأمون أن ما يقف بينه وبين بغداد ورضى بغداد عنه شخصان : الفضل بن سهل وزيره الفارسي الذي دبر له الخلافة والإمام علي الرضا الذي عهد إليه بولاية العهد . ونسمع خلال هذه الرحلة الطويلة بين مرو وبغداد موت الفضل

بن سهل ثم موت الإمام علي الرضا ... من الذي دبر قتلهما؟ هل كان المأمون مكيافيلياً والغاية عنده تبرر الواسطة! إن اصبع الاتهام تمتد إليه ولكن من ذا الذي يستطيع الإثبات؟

وحين زال الشخصان المبغوضان في بغداد صار الطريق إلى عاصمة المنصور والرشيد مفتوحاً. وأكمل المأمون الطريق ووراءه جثتان تصرخان: من القاتل؟ أهي مجرد مصادفة أم أن وراءها سراً دفنته الأيام؟

علم الخليفة ابراهيم بن المهدي بقرب وصول المأمون إلى بغداد ولم يكن برجل حرب ولكن رجل طرب. وعرف أنه لا طاقة له بمطاولته أو منازلته في الحرب فليس لديه الجند الكافي ولا المال الكافي فهرب. استخفى عن الأعين أواخر سنة ٢٠٣.

بعد شهرين دخل المأمون بغداد. لم يحاربه فيها سوى وجوه الناس المتجهمة. وتطلبه المأمون يريد قتله لئلا يبقى في بعض النفوس تعلق به وقد تردد طويلاً حين ظفر به ماذا يفعل؟ لا يريد إضافة جريمة جديدة إلى ما يتهم به. وشاور فيه وزيره أحمد بن أبي خالد الأحول فقال يا أمير المؤمنين إن قتلته فلك نظراء وإن عفوت عنه فمالك نظير. وراقته الفكرة التي وجد فيها مخرجاً طيباً من موقفه الحائر فعفا عنه ...

وقد دخل على المأمون مرة بعد العفو عنه فقال المأمون. بازدراء: أنت الخليفة الأسود فقال يا أمير المؤمنين أنا الذي مننت عليه بالعفو وقد قال عبد بني الحسحاس:

أشعار عبد بني الحسحاس قمن له   عند الفخار مقام الأصل والورِق
إن كنت عبداً فنفسي حرة كرماً   أو أسود الخلق إلى أبيض الخلق

فقال المأمون: يا عم! أخرجك الهزل إلى الجد وأضاف:

ليس يزري السواد بالرجل الشهم   ولا بالفتى الأديب الأريب

إن يكـــن للسواد فيك نصيب فبياض الأخلاق منك نصيبي !

والغريب أن المؤرخين لم يعدوا ابراهيم بن المهدي من الخلفاء وأدمجوا أيامه مع أيام المأمون . ولا أتوا عليه بذكر حسن أو سيء كأنما ما كان . ولكنهم حين يذكرون المغنين في ذلك العصر فإنهم يذكرونه في الطليعة هذا الخليفة المخلوع ويذكرون معه أخته علية وكانت من أحسن الناس غناءً... وكلاهما من إخوان الرشيد وأولاد المهدي ...

ولكنهم يعرفونه بابن شكلة !

أليست الدنيا حظوظاً ؟ وتقادير ؟

شيطان البرتغال

في أواسط شهر شباط / فبراير / سنة ١٤٩٨ بعد كشف أمريكا بسبع سنوات ألقت أربع سفن ضخمة مراسيها في ميناء موزامبيق في شرقي أفريقيا ونظر الناس إلى أشرعة ضخمة وإلى أربعة مراكب متينة من الخشب الصلد. عليها أناس غرباء بعضهم في دروع سابغة غريبة وعليها الدرق المتطاول وبعض في قبعات قماشية عراة الأجساد وفي الأعلى أعلام لم يعهدوها من قبل صفراء في حمرة وتصليب. لم يكونوا عهدوا غريباً في المنطقة وحسبوهم مسلمين من بعض الأرض وأقبلوا عليهم فإذا بهم يرطنون بلغة مملوءة بلفظ الشين ومعهم من يترجم...

ـــ إنهم من بلاد البرتغال! وأين تقع بلاد البرتغال. الله أعلم!

كانت معاملة البحارة مع الناس خشنة تتصف بالعدوانية كما كانوا يستعلمون عن كل شيء. سألوا بخاصة عن مملكة القديس يوحنا. الناس لا يعرفونه. ولكنهم كانوا يقصدون بلاد الحبشة! وسألوا عن السفن الأربع الإسلامية في الميناء ماذا تحمل؟ كم من الذهب والفضة والمجوهرات والتوابل وأنها للتجار العرب... بعد أيام، وفي عرض البحر كانت هذه السفن هدفاً للهجوم والنهب من هذا الأسطول الغريب. وبدأت بذلك قصة قتل التجارة العربية في المحيط الهندي وبدأ معها الاستعمار الأوروبي الذي مضى عليه اليوم ٥٠٠ سنة.

هذه السفن الأربع كانت الطليعة الأولى. يقودها رجل شاع اسمه حتى

في الكتب المدرسية: فاسكو دي غاما. ولد في أيمتيخو، في البرتغال، سنة ١٤٦٦ وعمل في الملاحة واستخدم مرة بوصفه من صغار النبلاء المهملين ضد الأسطول الفرنسي. وفي سنة ١٤٨٧ اختاره ملك البرتغال حنا الثاني لإتمام عمل أميرال سابق للأسطول هو بارتلمي دياز، الذي وصل أقصى جنوبي أفريقية ثم عاد...

وأبطأت حملة دي غاما في تجهيزاتها فلم تخرج إلا بعد عشر سنوات بعد موت حنا وتملك عمانويل بعده. خرجت من لشبونة يقود دي غاما السفينة الأولى سان غابرييل في أسطول من سفينتين أخريين سان رافائيل وبيريو وسفينة مخزن. ولم ينس أن يأخذ معه أعمدة يغرسها حيث يصل على الطريق رمزاً للملكية ملكه عمانويل. مرت السفن بجزر كناري ثم جزر الرأس الأخضر ثم اتخذت سمتها نحو الجنوب بعيداً عن الساحل الأفريقي المتعرج الكثير الخلجان. وصلت جزيرة القديسة هيلانة في عرض المحيط الأطلسي، حيث سيسجن نابليون، ألقت مرساتها هناك فترة فإن سوء الرياح منعها من أن تكمل الطريق أسبوعاً ثم اتجهت شرقاً حتى وصلت رأس الرجاء الصالح في أقصى الجنوب الأفريقي. زرع دي غاما عموداً هناك. كان قد غابت عنه اليابسة وعن سفنه ثلاثة وتسعين يوماً وهذه المدة تزيد مرتين ونصف المرة عن مدة رحلة كولومبوس. الفرق أنه كان واثقاً من أنه إذا اتجه شرقاً وجد اليابسة وكولومبوس ليس واثقاً من شيء. دار دي غاما حول رأس الرجاء الصالح حتى وصل ساحل ناتال، حيث وقف خمسة أيام عند مصب نهر النحاس وزرع عموداً آخر. وصلت الحملة ممباسا في شرق أفريقية ثم ماليندي. وبحث دي غاما عن دليل يوصله إلى الهند فوجده في شخص بحار هندي اتخذه دليلاً. وبعد ٢٣ يوماً في المحيط الهندي أطل البرتغاليون على كاليكوت! ونصب دي غاما عموداً من أعمدته في احتفال بوصوله إلى الهند...

رحبوا به هناك وأكرموه. تلقاه زامورين حاكم الهند بالود ولكن بعض الأعمال العدوانية التي بدرت من ملاحيه مع وساوس التجار المسلمين منعته من عقد معاهدة معه بالتبعية لملك البرتغال... وعاد دي غاما وعلى أسطوله خمسة أو ستة من الهنود يريد أن يقنع بهم الملك بوصوله ويريه عاداتهم وأشكالهم... ولكن سوء الرياح تركته تائهاً فوق المياه ثلاثة أشهر حتى اخترق بحر العرب ومات كثير من بحارته بمرض الأسقربوط... حين وصل ماليندي أمر دي غاما بسبب نقص البحارة الشديد عنده بإحراق السفينة سان رافائيل. وأكمل الطريق إلى موزامبيق ودار حول رأس الرجاء الصالح بسفينتين ما لبثتا بعد شهر أن واجهتهما الأعاصير والعواصف وافترقتا...

وتابع دي غاما الطريق بسفينة واحدة وصلت جزر آسور أولاً ثم عادت إلى البرتغال بعد أن سبقتها السفينة بيريو بشهرين! ولم ينج من البحارة الذين سافروا مع الحملة سوى خمسة وخمسين. وهذا هو أقل من ثلث الذين بدأوا الرحلة...

ومع ذلك فقد دخلت سفينة دي غاما مرفأ لشبونة في موكب نصر عظيم واستقبله الملك استقبالاً أعظم ومنحه لقب الشرف (دورن) مع راتب سنوي قدره ألفا كروزادو، مع قطعة واسعة من الأرض...

استغرقت رحلة دي غاما سنتين ذهب من بعده الأميرال كابرال فأنشأ مصنعاً في كاليكوت ولكن الناس ثاروا بالبرتغاليين واستغلالهم الوحشي وذبحوهم. فذهب دي غاما مرة أخرى فهاجم موزامبيق وسفالة وجعلهما مستعمرات لبلاده وضرب كالكوتا بالمدافع حتى جعل معظمها ركاماً ودمر الأسطول المدافع عنها... يريد أن يثأر للذين قتلوا بقتل المدينة كلها، وعقد معاهدة لمصلحة بلاده مع كوشين. لكنه حين عاد سنة ١٥٠٣ أبقى مهملاً عاطلاً عن العمل واحداً وعشرين سنة في بلده!

وأخيراً تذكره الملك فاستدعاه ليسميه نائب الملك في الهند سنة ١٥٢٤ وذهب لكن لكي يموت في كوشين بالهند دون أن يستطيع تنظيم ممتلكات البرتغال هناك ... فقد توفى تلك السنة حول أواخرها . في حين كان برتغالي آخر يفتح بلاد البرازيل للبرتغال هو كابرال . وذهب دي غاما بعد أن جعل ثروة الهند في متناول أوروبا مباشرة .

وبعد أن قطع رزق وطرق التجارة العربية بين المحيط الهندي والبحر المتوسط .

وبعد أن ساعد في نمو ثروة البرتغال وإمبراطوريتها ...

وإذا كان دياز قد وهب مملكة البرتغال نصفها الشرقي الآسيوي فإن كابرال الأميرال الآخر وهبها نصفها الغربي : البرازيل .

ونامت البرتغال على أمجادها بعد هذين الرجلين حتى استفاقت في ما بين القرن الماضي والقرن الحالي وقد خسرت كل شيء !

« وتلك الأيام نداولها بين الناس » !

ابن مقلة : الوزير الخطاط الأقطع

قد أفاجئكم إذا قلت أنكم تقرؤون من الخط العربي ٣٧ نوعاً من الخطوط ! بعضها تقرؤون بسهولة ويسر وبعضاً ببعض الصعوبة في التفكيك ... كل ذلك دون أن تعلموا . ومما تقرؤون بسهولة الخط الرقعي وهو الذي نكتب فيه عامة والخط النسخي الذي تكتب به آيات القرآن والخط الكوفي ذو الزوايا والخط الفارسي الذي يكتب عامة في إيران والخط الديواني الذي كانت تكتب به المراسيم السلطانية وخط الثلث وقلمه يعدل عرضه ثلاث شعرات ويشبه إلى حد ما الخط النسخي وهناك الريحاني والمزهر وغيره وغيره . ولكل خط من هذه الخطوط العربية تاريخ ومبتكر ...

وابن مقلة واحد من مبتكري نو ع من الخط هو خط الثلث ...

عاش ابن مقلة في القرن الرابع الهجري . عصر الألق الحضاري . لكنه غرق في السياسة ولم يكن لها التألق نفسه فذهب في مفرمة الصراع وذاق المر أكثر مما ذاق الحلو منه . اسمه أبو علي محمد بن علي بن الحسين . كان في أول أمره يتولى بعض الأعمال في فارس ويجبي الخراج . وجباة الخراج كانوا يثرون بسرعة . وأثرى ابن مقلة وتطلعت نفسه إلى المناصب العليا في بغداد فانتقل إليها وتنقلت به الأحوال وهو الكاتب القدير الجميل الخط إلى أن استوزره الخليفة المقتدر وخلع عليه سنة ٣١٦ . بلغ الأمر الذي كاد . ومشت بين يديه المواكب سنتين ولما كانت المناصب في ذلك الوقت تشرى وتباع والدسائس كدوامات الهواء تعصف بالناس فقد عزل ابن مقلة ونفي أيضاً إلى بلاد فارس

وصودرت أمواله وأملاكه . ولكن إغراء الحكم يجعل بعض الناس كالفراش حول النار فقد بقي حلم الوزارة يقلق ابن مقلة ويغريه . وجاء خليفة جديد هو القاهر بالله سنة ٣٢٠ فأرسل إليه إلى فارس رسولاً يأتي به ورتب له نائباً عنه . فدخل بغداد في موكب عريض ودنيا من الدنيا حتى بلغ قصر الخلافة وخلع الخليفة عليه الخلع والأطواق ... لكن وساوس القصر والحاشية مالبثت أن أوحت إلى الخليفة بأن ابن مقلة يعاضد بعض من يسعى للفتك بالقاهر ... فلم تمض أشهر على وزارته الثانية حتى وجد نفسه في شباك الشبهات فهرب واستتر .

وجاء سنة ٣٢٢ خليفة جديد هو الراضي بالله واستوزره . بعد أيام من خلافته وعلى الرغم من أن ابن مقلة قد التذع بنار الوزارة في تلك الأيام القلقة فقد قبل الوزارة . إنها الجاه والمال ، بالإضافة إلى رد الاعتبار . لم يأبه لما بينه وبين المظفر بن ياقوت المستحوذ على أمور الراضي من وحشة وتنافر ولا أدخل في حسابه للوزارة أن هذا المظفر مقيم عند أذن الخليفة وأنه ذو مكانة وقول مسموع بين غلمان دار الخلافة ... وهكذا دخل ابن مقلة ذات يوم كعادته إلى القصر . وفيما هو في دهليز الدار وثب الغلمان عليه ومعهم ابن ياقوت نفسه فقبضوا عليه . وأرسلوا إلى الراضي يعرفونه صورة الحال . وعددوا له ذنوباً وأسباباً تبرر القبض عليه وسجنه إن لم يكن قتله !

وجاء رد الخليفة لهم باستصواب رأيهم فيما فعلوه . وكان قد مضى على ابن مقلة في الوزارة سنتان . وسلم الحكم إلى عبد الرحمن بن عيسى من آل الجراح وهي أسرة عريقة في الوزارة وسلم إليه معها أبا علي بن مقلة . وهو خصم سياسي قديم له فأجرى عليه من العذاب ماالله به عليم ولقي من المكاره بالتعليق والضرب والعقوبة شيء كثير . وأخذ خطه بألف ألف دينار . ثم خلص واعتزل بطالاً في داره .

هل أخذ ابن مقلة ما يكفي من الدروس المرة ليعتزل السياسة والسياسيين ؟ أبداً !

لقد رأى أن متسلطاً جديداً عدا على كرسي الخلافة ظهر واستكان له الخليفة الراضي وفرض إليه تدبير المملكة هو محمد بن رائق وجعله أمير الأمراء وخطب له على جميع المنابر وكان ابن رائق هذا صادر أملاك ابن مقلة وضياعه وأملاك ولده أبي الحسين فحضر إليه ابن مقلة وإلى كاتبه وتذلل لهما للافراج عن أملاكه فلم يحصل منهما إلا على المواعيد . فلما رأى ذلك أخذ في السعي بابن رائق نفسه من كل جهة . وكتب إلى الخليفة يشير عليه بإمساكه والقبض عليه وضمن له أنه متى فعل ذلك وقلده الوزارة استخرج له منه ثلاثة ملايين دينار . فأطمعه الراضي بالإجابة إلى ما سأل . وترددت الرسائل بينهما في ذلك فلما استوثق ابن مقلة من الراضي اتفقا على أن ينحدر إليه سراً ويقيم عنده إلى أن يتم التدبير . فركب من داره ليلة عيد الفطر لأن القمر يكون في المحاق والظلام أعمى يصلح للأمور المستورة . فلما وصل دار الخليفة لم يمكنه من الوصول إلى ابن رائق واعتقله في حجرة ووجه من غد إلى ابن رائق يخبره بكل ما جرى وأنه احتال على ابن مقلة حتى حصل في أسره !

بعد أسبوعين من شوال سنة ٣٢٦ أظهر الراضي أمر ابن مقلة وأخرجه من الاعتقال وحضر حاجب ابن رائق وجماعة من القواد وتقابلا . والتمس ابن رائق قطع يده اليمنى التي يكتب بها . فلما انتهى جدلهما في المقابلة قطعت يده اليمنى ورد إلى محبسه ....

ثم ندم الراضي على ما كان وأمر الأطباء بملازمته للمداواة . فلازموه حتى برئ ... مصيبة ابن مقلة في قطع يده اليمنى كانت مضاعفة . لأنه كان فناناً ممن يتقن الخط إتقاناً رائعاً . وقد ابتكر خط الثلث الذي تكتب به حتى اليوم عناوين معظم الكتب واللوحات الدائمة من الرخام . فأراد ابن رائق إصابته في

أوجع المصائب مجسمة بحرمانه من الخط. ولكنه كان بعد ذلك يربط قصبة القلم على يده ويكتب! وكان يدخل عليه في محبسه ثابت بن قرة الطبيب فكان ابن مقلة يسأل عن ولده فيعرفه استتاره وسلامته فتطيب نفسه، ثم ينوح على يده ويبكي ويقول خدمت بها الخلفاء وكتبت بها القرآن الكريم دفعتين ثم تقطع كما تقطع أيدي اللصوص؟ ويقول:

إذا ما مات بعضك فابك بعضاً فإن البعض من بعض قريب...

الغريب في أمر ابن مقلة أنه بعد ما مر به من الشدائد العظام والذل وبعد قطع يده وسجنه عاد يراسل الخليفة الراضي ويطمعه في المال ويطلب الوزارة! ويقول: إن قطع اليد ليس مما يمنع الوزارة! ولكن كل محاولاته فشلت. ولما ظهر متسلط جديد في بغداد اسمه بجكم التركي وكان من المشايعين لابن رائق أمر بقطع لسان ابن مقلة فقطع. وبقي في السجن مدة طويلة ثم لحقه ذرب (وهو مرض جلدي) ولم يكن له من يخدمه فكان يستقي الماء لنفسه من البئر فيجذب بيده اليسرى خدمة وبفمه الأخرى ومن شعره في محنته:

ما سئمت الحياة لكن توثقت بأيمانهم فبانت يميني
بعت ديني لهم بدنياي حتى حرموني دنياهم بعد ديني
ولقد حطت ما استطعت بجهدي حفظ أرواحهم فما حفظوني
ليس بعد اليمين لذة عيش يا حياتي بانت يميني فبيني...

وقد مات في سجنه ودفن فيه. ثم نبش بعد زمان وسلم لأهله!.. وتسأل كيف سعى هذا الفنان إلى حتفه بظلفه؟

نجيب: لهوى النفوس سريرة لا تعلم!

غانـدي

قال صاحبي ونحن نتحدث في جماعة حول التعصب والمتعصبين :

في القصص الشعبي أن الله تعالى حين وزع الأرزاق لم يرض أحد برزقته . وبرم الجميع . أما حين وزع العقول فقد أخذ كل امرئ عقله وطار به ... ولعل الله خلق من العقول بقدر ما خلق من البشر ليرضى جميع البشر فهل رأيت تطابق عقلين أو تشابه شكلين ؟ حتى ولا عصفور مع عصفور أو وردة مع أخرى . كما فاختلاف الناس رحمة . وتصادم الأفكار هو الخصب الإنساني الأعظم و :

ليس يخلو المرء من ضد ولـــو حاول العزلــة في رأس الجبــــل

وقلت : لا بأس بالضد . بالرفض للآخر ...

على أن أكره ما أكره التعصب . ضيق الأفق . أن لا ترى وجهة النظر الأخرى وتحترمها . الذين ابتلوا بهذا يتخبطهم القلق كمن يتخبطه الشيطان من المس . فلا الدنيا تسير كما يشتهون ليستقروا ولا هم بالقابلين للآخرين فتهدأ صدورهم والأضلاع !! ..

أتراهم لا يعرفون أن الدنيا كلها إنما خلقت ألواناً وجعلت أشتاتاً وآفاقاً لا تحد؟ ألم يدركوا أن الإنسانية تكون أبشع ما تكون لو أنها كانت نسخة مكرورة إلى ما لا نهاية ؟ إنها لا تكون إنسانية عند ذلك ولكن جذع شجرة !

ودار الحديث ولست أدري كيف دار حتى وصل قضية القتل على الرأي . قال صاحبي : القتل وسيلة المفلس . الجسد يُقتل . أما الرأي فلا

يمكن قتله . إنه كالماء يفلت من بين الأصابع . يهرب إلى منابع أخرى . أبداً ما استطاع القتل إلغاء رأي . ولعله بالعكس يزداد على القتل لهباً واشتعالاً ! الوسيلة الوحيدة لقتله مجابهته برأي أكثر سداداً منه وأنضج مراساً . إن الشر لا يقمع بالشر أبداً !

وضحايا الرأي تذكروهم . هم قبيل كبير الاغتيالات سلسلة ماشت البشرية خطوة خطوة . نصف قتلى البشر هم ضحايا اصطدام رأي برأي . الغريب أنه لا قبيل الخيل ولا الجمال ولا الذر ولا النمل تقتل للرأي . وحده الإنسان يقتل ... ويسمى صاحب عقل !!

وضحك الجميع إلا صاحبي الذي استطرد :

— لن أستثير في ذاكرتكم قصة يوليوس قيصر ولا السيد المسيح ولا مقتل عثمان أو الإمام علي أو نظام الملك أو الآلاف الآخرين ... حتى الذين هم ضد العنف هم أكثر الناس تعرضاً للعنف . وتحضرني ها هنا قصة غاندي . هل تذكرون غاندي ؟ كنت أمس أقرأ كتاباً ضخماً عنه . وما هو نبي ولا إمام . ولكن مقاومته للعنف رفعته لمرتبة المهاتما أي الروح أو العظيم ، ثم كانت السبب في مصرعه بالرصاص من أعداء فكره السلمي أنفسهم لأنه يحمل رسالة الفكر السلمي !

وقد لا يعلم الكثيرون أن غاندي هو اسم الأسرة وأنه يعني العطار بالهندية . وأسرة غاندي تأتي في الطبقات الاجتماعية الهندية في الدرجة الثالثة بعد البراهميين والكشاترية . وهي طبقة الفايسيا . والأسرة كانت على شيء من الثراء والمكانة والمثالية في الخلق . وقد ولد غاندي (واسمه في الواقع موهانداس) سنة ١٨٦٩ وتوفى والده وهو في حوالي الخامسة عشرة ولكن بعد أن زوجه وهو في الثالثة عشرة من العمر من فتاة في مثل عمره وكان ما يزال يومذاك طالباً في المدرسة الثانوية ! ولم يكن بالطالب النابه فقد كان

يجد مشقة في حفظ جدول الضرب وإن كان لا يجد المشقة في رمي أساتذته بالنكات اللاذعة .

في الثامنة عشرة أرسلته أمه للدراسة في لندن . وكان هناك يحاول تقليد الإنكليز حتى في اللكنة والملبس . ولكن سحنته الشديدة السمرة وشعره الشديد السواد كانا يفضحان « هنديته » بالإضافة إلى أنه كان نباتياً وهندوسياً شديد التدين . ومع أنه كان يريد دراسة الطب إلا أنه درس الحقوق فأخوه محام لامع وحين عاد إلى بلاده بعد التخرج خيب أمل أخيه المحامي . ظل سنتين لا يعرف كيف يتكلم أمام القضاة أو كيف يكسب دعوى !

وأتيحت له فرصة . أن يذهب إلى جنوب أفريقية محامياً عن شركة لبعض التجار المسلمين ... فانتهزها وسافر واعداً زوجته بالعودة القريبة ... لكن هذه السفرة دامت عشرين سنة وكانت الحد الحاسم في حياته . هناك تبلورت هنديته وهناك تكونت عقيدته في اللاعنف . وفي دفع الاضطهاد بالسلم والحسنى !

هناك طرد من عربة القطار في الدرجة الأولى لأنه ملون ، ثم منع من الركوب في قلب عربة الجياد ومنع النزول في فندق للبيض ... وهناك بدأ أول دعوة لاجتماع الهنود ليقفوا في وجه هذا التمييز العنصري ... كان الهنود هناك قلة ولكنها نشيطة فعالة واشتهر غاندي بينها بأنه محامي المظلومين . كان يخطب ويكتب وينشر ويقدم المذكرات ويجمع التوقيعات على العرائض لمنع الحكومة من تحويل التعصب البغيض إلى قانون . وقد عاد في إجازة إلى وطنه في وقت انتشر فيه الطاعون في بومباي فلم يتردد في الدعوة إلى النظافة وإلى تنظيف المراحيض وقام بذلك بنفسه ! وكتب كتاباً عن محنة الهنود في جنوب أفريقية . وحين عاد إلى تلك البلاد وصل معه حوالي ألف مهاجر فثارت الغوغاء من البيض مما

أوقف الباخرة أياماً في الميناء وحين نزل منها غاندي رموه بالبيض والحجارة ثم أشبعوه لكماً ورفساً حتى أغمي عليه. وكادوا يحرقون البيت الذي ألجأته السلطة إليه... ولكنه وهو يعرف بعضهم رفض إقامة الدعوى عليهم... قال إنهم ضحايا تضليل الزعماء!!

كانت هذه أول خطواته نحو عقيدة اللاعنف!! ولكنها خطوة تبعها من بعدها ألف ميل من النصب والسجن والضرب والإهانات... سيق إلى السجن في جنوب أفريقية ١٣ مرة. حصل على ما يريد مرات وهزم وخدع مرات. عاش في النعيم تارة وفي الأكواخ معظم عمره. وصله من الهدايا ثروة فباعها وأنشأ منها ومن تبرعات مواطنيه مؤسسة للمنافع العامة لكل مواطنيه في جنوب أفريقية. اشترى مزرعة وأنشأ مطبعة ومجلة تدافع عن أفكاره في جوهانسبورغ وأقام مع أنصاره المقربين في المزرعة. كاتب تولستوي واتصل بطاغور. وكانت له مع الجنرال سمطس مواقف. زحف بأنصاره من بلد إلى آخر يتحدون القوانين الجائرة... وأخيراً عاد سنة ١٩١٥ إلى الهند عودة نهائية ليستأنف العمل لجميع الهنود.

كان معروفاً في بومباي وكالكوتا ومدارس جيد المعرفة فمعظم مهاجري الهنود كانوا من هناك لكن لم تمض سنة واحدة حتى صار معروفاً في الهند كلها. أقام في كوخ كالصومعة واستأنف ها هنا دورة المرور على السجون والدفاع عن المضطهدين من الفلاحين والمنبوذين. وحين تمكنت سمعته وكثر بمئات الألوف أنصاره استخدم سياسة الصوم التهديدي عشرين مرة. جاب الهند كلها طولاً وعرضاً وهو فوق الستين من العمر. قاوم العنف في مواطنيه وفي الحكم الإنكليزي على السواء. وصل درجة التقديس فإذا ظهر للجموع ركعت...

ومع ذلك فماذا كان جزاؤه؟

ذات يوم من سنة ١٩٤٨ خرج إلى الصلاة في أنصاره وهو في التاسعة

والسبعين. وفيما كان هؤلاء يركعون لرؤياه انطلقت ثلاث رصاصات هتف على أثرها غاندي: يا إلهي! وسقط.

ما من قوة على الأرض كان بإمكانها أن تفعل له شيئاً. في بحر من البكاء والدموع وضعوه فوق المحرقة. على ضفة نهر جمنا. ثم جمعوا رماده فألقوه في الماء.

وراح الروح العظيم رماداً في الماء!.

وأضاف صاحبي: ماذا ترون؟ حتى من كان سلاماً كله يموت بغير سلام ورسول اللاعنف يموت بأعنف العنف! أرأيتم الحقد الإنساني الأسود: حقد الرأي؟

ابن تومرت

هذا الرجل كانوا في المغرب ، في مطلع القرن السادس للهجرة يعتبرونه من الأقطاب الأولياء. ولكنهم في المشرق كانوا يعتبرونه صاحب مؤامرات ، إن لم يكن صاحب شعوذة. وقد لقب نفسه بالمهدي وله نسب يتصل عبر القرون إلى الإمام علي بن أبي طالب .. أما اسمه فهو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود وأما أصله فمن جبل السوس في أقصى بلاد المغرب. نشأ هناك ثم رحل في شبابه إلى المشرق... والمشرق كان في عهده كعبة العلم والعلماء ويكاد لا يعتبر العالم المغربي عالماً إلا إذا قام بهذه الرحلة الشرقية. يحج فيها ويلتقي بعلماء بغداد والشام ومصر ويعود وفي جعبته إجازاتهم له... وقد قام ابن تومرت بهذه الطقوس العلمية كاملة. حج ثم انتهى إلى العراق بعد أن أقام فترة قصيرة بمكة. وحصل طرفاً صالحاً من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين وقصته أشبه بالروايات.

إذا رأيته رأيت إلى رجل لا يصحبه من متاع الدنيا إلا عصا وركوة. ورع ناسك مخشوشن كثير الإطراق بسام في وجوه من يلقاه. فصيح بالعربية والبربرية. مشكلته التي جرت عليه الأذى أنه شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع. يلتذ بذلك ويتحمل نقمة الناس بسببه. ناله بمكة شيء من المكروه فيه. وفي بغداد. وحين خرج إلى مصر بالغ في الإنكار فزادوا في أذاه وطردته الدولة... وكان إذا خاف البطش به في هذا السبيل خلط في كلامه

فينسب إلى الجنون ... ولقب نفسه بالمهدي اللقب الذي كثيراً ما استعير للثائرين باسم الدين .

ركب البحر من الاسكندرية عائداً لبلاده وكان قد رأى فيما يرى النائم أنه شرب البحر مرتين فأخذ ركاب السفينة بتغيير المنكر وإقامة الصلوات . وقراءة القرآن حتى وصل المهدية سنة ٥٠٥ سنة وفاة الغزالي في بغداد وبعد بدء الحروب الصليبية في المشرق باثنتي عشرة سنة فنزل في مسجد معلق وهو على الطريق وجلس في طاق ينظر إلى المارة فلا يرى منكراً من آلة الملاهي أو أواني الخمر إلا نزل إليها وكسرها . فتسامع به الناس في البلد فجاؤوا إليه وقرأوا عليه بعض كتب الدين وبلغ خبره الأمير يحيى بن تميم الصنهاجي فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء فلما رأى سمته وسمع كلامه أكرمه وسأله الدعاء فقال له ابن تومرت : أصلحك الله لرعيتك . ولم يقم بعد ذلك في المهدية إلا أياماً يسيرة ثم انتقل إلى بجاية وأقام بها مدة وهو على حاله التي نعرف من الإنكار . فأخرج منها إلى بعض قراها . وهناك التقى بالرجل الذي كان قرأ في كتاب « الجفر » صفاته ! ..

وكتاب الجفر فيما يزعمون كتاب تنبوأت تكتب ملامحها بالرموز فيه وقد قرأ فيه ظهور رجل في السوس من المغرب الأقصى من ذرية الرسول بمدينة تنملل واسمه عبد المؤمن فكان لا يمر بموضع إلا استعرض الناس وسأل عنه حتى رأى عند المؤمن الكومي فأوقع الله في نفسه أنه وجد ضالته . وكان مقصد الشاب الشرق يدرس فأقنعه أن يبقى معه . وكان ابن تومرت قد صحب رجلاً يدعى عبد الله الونشريسي فاتفق معه أن يتصنع العي والحصر والتعري عن الفضائل . ليفاجىء الناس ذات يوم بطلاقة لسانه فتكون كالمعجزة للمهدي . وتجمع حول ابن تومرت عدة شباب أنجاد تخيرهم ورحل بالجميع إلى أقصى المغرب !

توجهوا أولاً إلى مراكش وملكها يومئذٍ أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين. وكان ورعاً عادلاً حليماً وكان من خلصائه المقربين عالم أندلسي هو مالك بن وهيب. وشرع ابن تومرت في الإنكار على ما جرت به عادته ورأى ذات يوم موكباً من النساء ومعه من الجواري كثير وهن سافرات — وهذه عادة الملثمين: يتلثم الرجال وتسفر النساء — فأنكر ذلك وأمرهن بالستر وصرف دوابهن وسقطت سيدة الموكب عن دابتها. ولم يكن ابن تومرت يعلم أنها بنت أمير المسلمين. فبلغ الأمير الخبر وقال صاحبه الأندلسي: نخاف من فتح باب يعسر سده فلنجتمع بهذا الرجل ونرى ما يريد فهو يتحدث عن تغيير الدولة. واجتمعوا به فقال ابن تومرت: إنكم تزعمون للملك أنه يقوم بطاعة الله وينقاد للحق فليعلم أنه مغرور بما تقولونه له وتضرونه به فهل بلغكم أيها القضاة أن الخمرة تباع جهاراً وتمشي الخنازير بين المسلمين وتؤخذ أموال اليتامى. وذكر من ذلك شيئاً كثيراً.

وأطرق الملك يفكر وفهم الحاضرون من فحوى كلام ابن تومرت أنه طامع بالملك لنفسه.. فلما خرجوا قال الأندلسي للملك: إني خائف عليك من هذا الرجل. وأرى أن تعتقله وأصحابه وتنفق عليهم كل يوم ديناراً لتكتفي شره وإن لم تفعل فسوف تنفق خزائنك كلها ثم لا ينفعك ذلك! فقال الوزير لا يصح أن تبكي من موعظة الرجل وتسيء إليه في وقت واحد وأن تظهر الخوف منه... فقنع الملك وصرفهم. فلما خرج ابن تومرت وأصحابه قالوا: لا نأمن البقاء في مراكش والأندلسي عند أذن الملك. فخرجوا إلى مدينة أغمات عند فقيه من أنصارهم فقال هذا الرجل: هذا المكان لا يحميكم ولكن على مسافة يوم منا بلدة أشد حصانة هي تنملل فلما سمع ابن تومرت الاسم قصدوا هذه البلدة. وتسامع أهل الجبل من قبيلة المصامدة بوصوله فجاؤوه من كل فج يتبركون به. وكان يستميل الأحداث وذوي القوة ويهمل أهل العقل

والحلم ... وطالت المدة وخشي ابن تومرت أن يطرأ على أهل الجبل من الملك ما يجبرهم على تسليمه ... ورأى بعض أولادهم شقراً زرق العيون فسأل عن ذلك فقالوا إن الملك يرسل كل سنة مماليكه لجمع الخراج ويبيتون بالرغم منا في بيوتنا. فقال ابن تومرت: إن الموت خير من هذه الحياة وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالرمح. فلو جاءكم ناصر لكم فماذا تصنعون؟ قالوا نقدم بين يديه أرواحنا قال: أنا ناصركم. فإذا جاؤوكم فأكثروا لكم من الخمر حتى إذا بلغ منهم الخمار مبلغه ذبحناهم عن آخرهم..

وكذلك كان ... وأفلح واحد من المماليك في الهرب إلى مراكش وأخبر الملك. فجند جنده لكن أهل الجبل كمنوا على مرتفعاته. فما وصل الجيش حتى انهمرت عليهم الحجارة كالمطر. وتشتتوا ممزقين شر ممزق! وعند ذلك استدعى ابن تومرت صاحبه الونشريسي الذي كان يتصنع العي وعدم الفهم فإذا به فصيح بالعربية، حافظ للقرآن والفقه. لا عجمة فيه ولا لكنة فاعتبروا ذلك معجزة فتنتهم. وقال لابن تومرت ـــ حسب اتفاقه معه.

أنت المهدي القائم بأمر الله من تبعك سعد ومن خالفك هلك. اعرض على أصحابك لأميز أهل الجنة من أهل النار ... وهكذا قتل ابن تومرت وأصحابه المعارضين لهم. وخاف أن يكون بين الباقين أقرباء للقتلى فوعدهم بأن يملكوا مراكش ويغنموا أموالهما فسرهم ذلك.

جهز ابن تومرت بعد ذلك من هؤلاء جيشاً من عشرة آلاف بين فارس وراجل وبقي هو في الجبل وأرسلهم بقيادة عبد المؤمن والونشريسي إلى مراكش لحصارها. فأقاموا شهراً ثم كسروا كسرة شنيعة وهرب من سلم منهم من القتل إلى الجبال. وكان عبد المؤمن في الهاربين وقتل الونشريسي. وبلغ ابن تومرت الخبر وقد حضرته الوفاة قبل عودة أصحابه فأمر أن يبلغوا أن الله سيفتح على أيديهم المملكة! فلا يضجروا ولا ييأسوا وليعاودوا القتال ...

توفي ابن تومرت ... انقطع حلمه بالملك دون تحقيق . عبد المؤمن هو الذي تابع الحكم وأسس ملك الموحدين مبتلعاً أملاك مملكة المرابطين ، لكنه لم يكن بتقشف ابن تومرت الذي كان يعيش على الخبز والزيت ولا بزهده في الدنيا يوم رأى أصحابه يميلون إلى الغنائم فجمعها وأضرم فيها النار وقال من كان معنا لله فله أجره في الآخرة ! ومن كان يبغي الدنيا فليس له عندي إلا ما رأى ...

وليس نادراً في التاريخ أن يأتي رجل فيضع الأسس ويأتي آخر فيقطف الثمار !

ويقولون عمن عمر وما سكن وعمن مون وما أكل .

وهذا من هيأ الملك ولم يملك .

ابن الابـار

ذات يوم من سنة ٦٣٥ . كانت مدينة بلنسية على الساحل الأندلسي الشرقي مختبطة كلها . أهلها يبيتون على الأسوار والمجانيق تترى على أبوابها والحرائق تأخذ جانباً منها هنا وجانباً هناك . حتى أمير المدينة ابن مردنيش كان في حيص بيص . كل جند مملكة الأراغون المجاورة تجمعوا عند أسوار بلنسية يريدون احتلالها سدوا حتى المرفأ بالسفن . كان يتمنى لو أنه كان على الود مع أمير مملكة الموحدين بالمغرب . ولكن ... ليس أمامه سوى سلطان تونس أبي زكريا الحفصي . وتسلل من المدينة وفد إلى تونس يستنجد بهذا السلطان . كان على رأس الوفد كهل في الواحدة والأربعين من العمر دخل المدينة في استقبال حافل . طبول وألوية وملابس مزركشة . وفي قصر السلطان أنشد هذا الكهل قصيدة مطلعها :

أدرك بخيـلك خيـل الله أنـدلسا   إن السبيـل إلى منجـاتها درسا
يا للجزيـرة أضحـى أهلهـا جزراً   للحادثات وأضحى جدها تعسا...

أنشد سبعين بيتاً . استمع إليها السلطان حتى دمعت عيناه وتحمس وأمر على الفور بإرسال خمس سفن مشحونة بالمال والعتاد والزاد والسلاح إلى بلنسية ...

في الحاشية وبين المستمعين سرت الوسوسة : إنه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الآبار كبير الكتاب في بلنسية . نجحت السفارة . وعاد الوفد يسبق السفن إلى بلنسية مبشراً بوصول النجدات . ولكن الأسطول الحفصي وصل

وقد أحكم الأراغونيون حصار الميناء فما من فرجة ولا طريق. وتراجع الأسطول بحمولته كلها إلى ثغر دانية في الجنوب. أما أهل بلنسية فأشرفوا على الهلاك جوعاً ومرضاً وقرروا التسليم للعدو المحاصر. وخرج وفد منهم يتفق مع ملك الأراغون على شروط التسليم: أن يتسلم الطاغية خايمة المدينة سلماً بعد عشرين يوماً ينتقل أهلها أثناء ذلك بأموالهم ومتاعهم إلى حيث يشاؤون. وحضر ذلك كله ابن الأبار نفسه وتولى كتابة العقد في ذلك...

كان هذا الكاتب يعرف أن حكام المدينة السابقين لم يكونوا مخلصين إلا لعروشهم التافهة. ويعرف أنه ذهب مع واحد منهم إلى الأراغون فإذا به يتنصر هناك. ويعود ابن الأبار صامتاً إلى مدينة ليخدم الأمير الجديد ابن مردنيش! ويعرف ألا أمل بعد اليوم في استرداد بلنسية: فحاول لفترة قصيرة أن يجد عملاً لدى بعض الأمراء المسلمين فلم يحظ بجواب. فقرر الركوب إلى تونس. حسب أن الزيارة الأولى تمهد له الطريق عريضاً ليكون نجماً لامعاً هناك.

ركب ابن الأبار البحر والآمال تدغدغه. أيقن ألا أمل في البقاء في الأندلس وأما في أفريقية فهناك إمكان للعيش الرغد. لم يدرك أن الأشرعة التي كانت تغيب عنه آفاق الأندلس لآخر مرة كانت تغيب عنه، في الوقت نفسه، آخر أيامه الحلوة التي عرفها في حياته. وأن التعاسة والمرارة والحسد هي التي تنتظره على الشاطىء الآخر! وسوف يصلى هناك «ناراً ذات لهب»! كانت جموع كثيرة أخرى من الأندلسيين قد هاجرت قبل ابن الأبار ومعه. ونزلت في بنزرت. وكتب من هناك إلى وزير السلطان الحفصي بقدومه وانتظر الرد. ولكن الرد جاء بأن ينتظر في بجاية!! وانتظر ثلاثة أشهر وأربعة واضطر خلال ذلك وهو المفلس للتدريس والإقراء ريثما وصله الأذن بالمثول إلى حضرة تونس ليكون كاتباً في الدولة.

على أنه وصل العاصمة في جو مشبع بالحسد له والحقد عليه . كبار الكتاب والأندلسيون معاً استطاعوا قبل وصول ابن الأبار أن يوغروا صدر السلطان ضد هذا « الفأر » والفأر كان لقباً ينبذ به لأنه ذو وجه ضيق رفيع . فلم يلق من السلطان الترحاب الذي كان يأمل وينتظر . وكان وزير تونس يحقد عليه لكلمة سمعها على لسانه ــ وكم كانت له من سقطات لسان ــ فما زال حتى جعله السلطان يعمل في بجاية . وعاد ابن الأبار إلى بجاية مكرهاً غاضباً لهذا المنفى وهو الذي كان يأمل في أن يكون نجم السلطنة في العاصمة . وقد أرجع إلى تونس بعد فترة لكنه ، وهو الشديد الاعتداد بأندلسيته ومكانته السابقة لم يكن يستطيع كبح نزوات غضبه . ولا فلتات لسانه ، مما زاد في جو الكره له والغضب من تصرفاته . وقد تولى للسلطان كتابة الإنشاء والعلامة السلطانية على المراسيم . وكان السلطان يحب كتابة العلامة على الطريقة المشرقية في الخط ووجد من يكتبها له فأعفاه من كتابتها لكنه ظل يكتبها كما تعود بالخط المغربي وروجع في ذلك فاستشاط غضباً ورمى القلم وأنشد :

اطلب العز في لظى وذر الذل ولو كان في جنان الخلود

وما أسرع ما وصلت هذه الكلمات إلى آذان السلطان :

مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل !

فأمر السلطان بوقفه عن العمل . ولم يجد ابن الأبار من وسيلة لاسترضاء ولي أمره سوى القصائد . فلما لم تفد كتب وكتب وتذلل واستطالت الكتابة حتى أضحت كتاباً هو « اعتاب الكتاب » يتحدث فيه عن هفوات الكتاب وتسامح الملوك والأمراء معهم . وتوسط له ولي العهد فعفى عنه .

هل استفاد ابن الأبار شيئاً مما مر به؟ أبداً لقد أخذ يعمل ويكتب للسلطان ضد الغساني الكاتب الآخر الذي أصبح وزيراً . فصدر الأمر بنفيه مرة أخرى إلى بجاية !! وهناك كتب العديد من كتبه التي تعد ٤٥ كتاباً .

وعاد ابن الأبار بعد فترة لكن مرارته من وضعه كانت قد زادت وحقده كان قد اشتد. واشتد بالمقابل كره الناس والحاشية له فسلقوه بألسنة حداد. وعادت السعايات إلى السلطان تترى وشنعوا عليه بأنه ينظر في النجوم ويتوقع طالع النحس لدولته! وأراد السلطان قطع الشك باليقين فأمر بإيقافه وتفتيش بيته. وقام بالمهمة عدوه الغساني. بحث في كتبه ودفاتره ورقعه. وخرج من ذلك بيت شعر واحد هو:

طغى بتونس خلف ... سموه ظلماً خليفة!

وقيل إنهم وجدوا كتاباً في التاريخ فيه ما يسيء إلى السلطان. ولم يكن في هذا كله ما يقتضي إهدار دمه. ولكن الكره كالحب أعمى. ولم يجد ابن الأبار من يدافع عنه فأذى لسانه أبعد الناس عنه. فأمر السلطان أن يضرب بالسياط حتى الموت. ثم بأن يحرق شلوه وبأن تحرق معه كتبه ودفاتره ومؤلفاته. وفي ساحة البلد ضرب ونصبت له المحرقة. وذهب معه معظم تراثه الفكري فلم يبق منه سوى ما كان تناقله الناس من قبل وهو ستة كتب من خمسة وأربعين!

يموت الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجل!

مكيافيلي المفترى عليه

هذا الاسم الذي تنزل عليه السخط من الناس تنزيلاً. ودرج على الألسن وكأنه عديل للشيطان أو أجير من أجرائه هو لكاتب سياسي ورجل دولة إيطالي الأصل من فلورنسا ولد سنة ١٤٦٩ وتوفي سنة ١٥٢٧ وعاصر سقوط غرناطة في الأندلس والفتح العثماني للبلاد العربية واكتشاف أمريكا سنة ١٤٩٢ واكتشاف رأس الرجاء الصالح... عاصر أحداثاً انقلابية جساماً في العالم ولم يكن له يد إطلاقاً فيها ولا اهتم بها — كما يبدو — ولم يعمل عملاً أبداً يستحق عليه السخط أو ينبىء عن طبيعة شيطانية. كل ما في الأمر أنه كتب كتاباً اسمه كتاب الأمير صب فيه ملاحظاته السياسية على كيفية إدارة الدولة فإذا بالكتاب يطير بين أيدي الحكام والملوك وإذا بالمكيافيلية تصبح مذهباً سياسياً غير أخلاقي وإذا بنصائحه تصبح شتائم لكل حاكم يتبعها أو يشتبه الناس أنه يتبعها!

وجد مكيافيلي في إيطاليا في أوج عصر النهضة الأوروبية. ولكن إيطاليا كانت في أيامه مقسمة إلى إمارات كثيرة وصغيرة متناحرة، خلاف ما كانت عليه الحال في فرنسا أو اسبانيا أو إنكلترا، حيث نشأت ملكيات راسخة قوية. لذلك لم يكن غريباً أن تكون إيطاليا في أيام مكيافيلي ضعيفة من الوجهة السياسية وإن كانت بعض مدنها مثل البندقية أو جنوة قوية في الأسطول والتجارة. وكانت من الوجهة الثقافية لامعة لامعة فيها الكثير من الكتاب مثل بوكاشيو ويتكاثر فوق أرضها الفنانون المبدعون كرافائيل وميكل آنجلو وليوناردو دافنشي.

في شباب مكيافيلي كان حكام بلده فلورنسة هم آل مديتشي وأبرزهم لورنزو العظيم ولكنه توفى في سنة ١٤٩٣ ولم تمض سنوات حتى طرد آل مديتشي من المدينة التي أعلنت الجمهورية . وفي هذه الفترة حصل مكيافيلي على وظيفة عالية في الدولة . وأضحى سفيراً لبلاده يتنقل بين فرنسا وألمانيا وإيطاليا في مهمات دبلوماسية . استمر ذلك ١٤ سنة . لكن الجمهورية التي أعلنت هزمت سنة ١٥١٢ ورجع آل مديتشي إلى الحكم . وطبيعي أن يطرد مكيافيلي من وظيفته ثم أن يعتقل في السنة التالية ، اتهم بأنه متورط في مؤامرة ضد حكام آل مديتشي الجدد ولقي في السجن العذاب المرير وتعاور عليه المحققون كما تناوشته آلات التعذيب ...

وأخيراً برأته المحكمة وأطلق سراحه فانزوى في قرية قريبة من فلورنسا يكتب تجاربه وآراءه : صورة الأمور في ألمانيا ، صورة الأمور في فرنسا ... إلخ . لم يكن انزواؤه طوعياً فقد حكم بالإقامة الجبرية واستمر هذا الحكم ١٤ سنة ، لا يفارق فيها ضيعته سان كاسيانو . هذا السجن كان امتحاناً قاسياً جداً على مكيافيلي ولكنه سمح له بأن يطلق العنان لآرائه وفكره . وفي هذه العزلة كتب كتابه الذي اشتهر به وسبب دون مبرر سوء سمعته : كتاب الأمير . كتبه سنة ١٥١٣ وكتب كتباً أخرى غيره منها عن أشكال الحكومات المختلفة . وإقامة الدول وأسباب انهيارها . وعن فن الحرب الذي بقي فيه حتى سنة ١٥٢٠ وسجل فيه أفكاراً كانت دوماً تقلقه ويؤمن بها حول خطر الاعتماد على المرتزقة وأن خير الجيوش ما قام على المواطنين أنفسهم .

وتقرب سنة ١٥١٩ من الأسرة الحاكمة بعض التقرب وخرج من سجنه الإجباري وقام ببعض الخدمات للدولة لكنه ظل مشبوه الخطوات باعتباره جمهوري النزعة فأبعد عن الأعمال مرة أخرى . وتوفي في السنة نفسها ... وكتاب الأمير الذي يزعمون أنه كان لا يفارق موسوليني وأن كثيراً

من الشخصيات السياسية الكبرى كانت تعتبره إنجيلها السياسي فيقولون إن نابليون كان ينام ونسخة منه تحت وسادته وأن هتلر كان كذلك وأن ستالين كان يراجعه دوماً ... هذا الكتاب «الشيطاني» الذي يعزون إلى كل حاكم مستبد مطالعته والعمل بما فيه، خلاصته جملة أو جملتان :

إن الحاكم الذي يهتم بالإبقاء على سلطته وزيادتها يجب أن يصطنع الغش والخداع والدهاء والكذب يرافقها استعمال القوة دون أي شفقة أو مرحمة. أو بكلمة أخرى إن الغاية تبرر الواسطة! وعلى هذا الأساس قامت شهرة الكتاب والكاتب. لقد انبرى أعداد من المعلقين عليه بعضهم يشجب آراءه ويسفه فكره وبعض يمتدحه بأنه كان رجلاً واقعياً، صعب المراس تجاسر على أن يصف العالم كما هو بكل معائبه ودخائل نفسه. وزاد آخرون فوجدوا في الكتاب ترجيحاً وتأييداً لجانب الشر في الإنسان فهو يبرره ويدعو إليه والواقع أن مكيافيلي من الكتاب القلائل الذين درست أعمالهم دراسة مسهبة ودرس كتاب الأمير منها بصورة خاصة وأثارت الفلاسفة والسياسيين على السواء. فأما الفلاسفة فلهم آراؤهم. وأما السياسيون فمعظمهم وبخاصة ذوي الميول الدكتاتورية كانوا يجدون في الكتاب أنفسهم ومبررات إرهابهم. وبهذا الشكل صارت «المكيافيلية» مذهباً ذا سمعة سيئة. وصار أوسع كتب الفلسفة السياسية انتشاراً وتداولاً وقراءة.

ونصائح مكيافيلي في الكتاب نصائح عملية لرؤساء الدول وليست للناس. والنقطة الرئيسية في الكتاب أنه إذا أراد الحاكم أن ينجح، فيجب أن يضع وراء ظهره الاعتبارات الأخلاقية ويتجاهلها كلياً ويعتمد بدلاً منها على القوة والدهاء. والغش إن لزم الأمر. ويؤكد مكيافيلي على تسلح الدولة الجيد ويقول: إن الجيش الذي يعتمد عليه هو الجيش الذي يؤخذ بالقرعة من

الأهلين . فالدولة التي تعتمد على المرتزقة أو على فرق من دولة أخرى هي بالضرورة ضعيفة ومعرضة للأخطار .

وينصح مكيافيلي الأمير بأن يؤمن في الدرجة الأولى تأييد شعبه لأنه إذا لم يفعل ولم يكن شعبه معه فليس له أي معين ولا ملاذ وقت الشدة . ولا بد للحاكم أن يمارس بعض الشدة والبطش وبخاصة في أول عهده لئلا يضطر لأن يبطش كل يوم فتسوء سمعته . وأما الفوائد والخدمات فيجب أن تقدم تدريجياً للشعب ليتمتع بها ويرى فيها كل يوم عملاً حسناً جديداً من الحاكم ولكي ينال النجاح فلا بد أن يحيط نفسه بحاشية قادرة موالية له . وينصح الأمراء بأن يتجنبوا التملق للناس ويقدم بعض الطرق لكيفية الخلاص من التملق ويستطرد فيرى أن الأمير يجب ألا يعتمد على الاحتفاظ بإيمانه ودينه إذا كان ذلك يتعارض مع مصلحته ...

لا شك أنه في كتاب الأمير الكثير مما يتعارض مع الأخلاق ومع الدين أيضاً . ولا ندافع عنه إذا قلنا إنه إنما كان يكتب لعصره متأثراً بالضعف السياسي الذي كان عليه وطنه وكان يتوق لوجود أمير قوي يوحد البلاد ويطرد عنها الغزاة الأجانب وينقذها من الأخطار التي تحدق بها . فقد كان له تأثيره الواسع في عصره وفيما بعده . فهو من أكثر الأذكياء نشاط فكر وجرأة قول . كما أنه ذو ذهن واقعي وطني .

وإذا تشوه اسمه ، مع الأيام ، وأخذت « الميكافيلية » السيئة السمعة من اسمه ، فإنه لم يكن يقصدها ولكن كان ينظر في أعماق نفوس الحكام ويحاول أن يجد الرابطة بين أعمالهم وبين بقاء الدول ونجاحها .

ولعل مما يبرئه أنه دخل الخدمة العامة فقيراً وخرج منها فقيراً ... والحكام الظلام هم الذين حملوا كتابه الأمير وطافوا به أنحاء العالم ... معتذرين به ، ومتسترين وراءه !

أكانوا في حاجةٍ إلى الاعتذار ؟ والاختباء وراء مكيافيلي وكتابه الشيطاني ؟

معن بن زائدة

الناس، كل الناس، قصص وأحاديث ... يأتون ثم يمضون. ويبقى من المرء الأحاديث والذكر ...

وإنما المرء حديث بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى

والناس إذا تحدثوا يقيس بعضهم بعضاً بالمثل العليا التي يؤمنون بها. وكان المثل الأعلى في العصر الإسلامي الأول بجانب التدين يقوم على الكرم والشجاعة والنسب. فإن اجتمعت هذه الخصال في رجل برز بين أوجه الرجال. ومن هؤلاء معن بن زائدة من بني شيبان. وثم إجماع على أنه كان الجواد الشجاع وحسبك بذلك ذكراً وفخراً.

كان معن في أيام بني أمية والياً يتنقل بين الولايات الشرقية، لكنه منقطع إلى أمير العراقين يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري. وظل معه حتى اللحظات الأخيرة وهو يقاوم القوى العباسية التي طوقته، في ثورتها على الأمويين، في مدينة واسط قرابة السنة حتى عرفت بمقتل مروان بن محمد آخر الأمويين في مصر فاستسلمت. وكان لمعن في رد العباسيين يد واضحة وبلاء حسن فلما قتل يزيد خشي معن على نفسه فاستتر مدة تزيد على أربع سنوات. وكان المنصور يتتبعه فيمن يتتبع. ويحكي معن قصصاً عن أيام الاختفاء. فمن ذلك أن المنصور جد في طلبه وجعل لمن يحمله إليه مالاً جزيلاً «فاضطررت لشدة الطلب إلى أن تعرضت للشمس حتى لوحت وجهي وخففت عارضي ولبست جبة صوف وركبت جملاً وخرجت متوجهاً إلى البادية لأقيم بها. فلما

خرجت من باب حرب، أحد أبواب بغداد، تبعني أسود متقلد بسيف. حتى إذا غبت عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه وقبض على يدي فقلت له: ما بك؟ قال أنت طلبة أمير المؤمنين فقلت ومن أنا حتى أطلب فقال أنت معن بن زائدة فقلت له اتق الله عز وجل. وأين أنا من معن؟ فقال: دع هذا فوالله إني لأعرف بك منك. فلما رأيت منه الجد قلت له: هذا جوهر قد حملته معي بأصناف ما جعله المنصور لمن يجيء بي فخذه ولا تكن سبباً في سفك دمي. قال: هاته فأخرجته إليه فنظر فيه ساعة وقال: صدقت في قيمته ولست أقبله حتى أسألك عن شيء فإن صدقتني أطلقتك. فقلت قل. قال إن الناس قد وصفوك بالجود فأخبرني هل وهبت مالك كله قط؟ قلت لا قال فنصفه؟ قلت: لا قال فثلثه؟ قلت لا. حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت: أظن أني فعلت هذا! ما ذاك بعظيم. أنا والله راجل ورزقي من أبي جعفر المنصور كل شهر عشرون درهماً وهذا الجوهر قيمته ألوف الدنانير قد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس. ولتعلم أن في هذه الدنيا من هو أجود منك. فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته... ثم رمى العقد في حجري. وترك خطام الجمل وولى منصرفاً. فقلت يا هذا قد والله فضحتني ولسفك دمي أهون علي مما فعلت. فخذ ما دفعته لك فإني غني عنه فضحك وقال أردت أن تكذبني في مقالي هذا؟ والله لا أخذته ولا آخذ لمعروف ثمناً أبداً. ومضى لسبيله.

قال معن: فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن يجيء به ما شاء فما عرفت له خبراً وكأن الأرض ابتلعته...

ولم يزل معن مستتراً حتى كان يوم الهاشمية (وهي مدينة بناها أبو العباس قرب الكوفة)، يوم ثار جماعة من أهل خراسان الراوندية على المنصور وقالوا: أنت ربنا الذي يطعمنا ويسقينا فلما فرقهم ثاروا وهاجموه في قصره ووثبوا

به وجرت بينهم وبين أصحاب المنصور مقتلة حامية. وكان معن متوارياً بالقرب منهم ورأى الهجوم. فخرج متنكراً معتماً ملثماً وتقدم القوم وقاتل قدام المنصور قتالاً أبان عن نجدة وشهامة وفرقهم. فلما نجا المنصور قال من أنت؟ ويحك! فكشف لثامه وقال: أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة. فأمنه المنصور وأكرمه وكساه وزينه وصار من خواصه. ثم دخل عليه بعد ذلك في بعض الأيام فلما نظر إليه قال: هيه يا معن تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله:

معن بن زائدة الذي زيدت به		شرفاً على شرف بنو شيبان

فقال: كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته لقوله في هذه القصيدة:

ما زلت يوم الهاشمية معلناً		بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه		من وقع كل مهند وسنان

فقال المنصور: أحسنت يا معن! وقال له يوماً: ما أكثر وقوع الناس في قومك فقال يا أمير المؤمنين:

إن العرانين تلقاها محسدة		ولا ترى للئام الناس حساداً!!

وقد عينه المنصور والياً على اليمن وعلى سجستان وله فيها آثار وماجريات وقصده الشعراء فيهما. وأخباره في الكرم طويلة عديدة. وفد أعرابي عليه فمدحه وطال مقامه على بابه ولم يحصل على جائزة فعزم على الرحيل. فخرج معن راكباً فقام إليه الأعرابي وأمسك بزمام دابته وقال:

وما في يديك الخير يا معن كله		وفي الناس معروف وعنك مذاهب
ستدري بنات العم ما قد أتيته		إذا فتشت عند الإياب الحقائب

فأمر معن بإحضار خمس نوق من كرام إبله وأوقرهم له ميرة وبراً وثياباً وقال: انصرف يا أخي في حفظ الله إلى بنات عمك فلئن فتشن الحقائب ليجدن فيها ما يسرهن!

ودخل معن مرة على المنصور وقد أسن فقال له: كبرت يا معن فقال:

في طاعتك يا أمير المؤمنين. قال: وإنك لجلد فقال: على أعدائك يا أمير المؤمنين قال المنصور وفيك بقية قال: هي لك يا أمير المؤمنين. وحدث صاحب شرطة معن قال:

فيما أنا على رأس معن إذا هو براكب يوضع فقال: معن ما أحسب الرجل يريد غيري ثم قال لحاجبه: لا تحجبه. قال فجاء حتى مثل بين يديه وأنشد:

أصلحك الله قل ما بيدي ... فما أطيق العيال إن كثروا
ألح دهر رمى بكلكله ... فأرسلوني إليك وانتظروا

فقال معن: وقد أخذته الأريحية: لا جرم لأعجلن أوبتك. ثم قال يا غلام: ناقتي الفلانية وألف دينار فادفعها إليه. فدفعها إليه وهو لا يعرفه.

وكان معن قد ولي سجستان في أواخر أمره فلما كانت سنة ١٥١ أو سنة ١٥٢ كان في داره صناع يعملون فاندس بينهم قوم من الخوارج وكان معن قد قاتلهم وفتك وهزم. وكان معن يحتجم. فوجدوها غرة فطعنوه بالمدى!... حتى مات!

وأعول من بعده الشعراء. حتى إن شاعره مروان بن أبي حفصة حرم العطاء بعده والنوال لأنه حيثما ذهب كانوا يذكرون له بيته في معن القائل:

وقلنا أين نرحل بعد معن؟ ... وقد ذهب النوال فلا نوال

كل الناس رفضوا مروان إلا جعفر البرمكي الذي ضاعف له الجائزة أربع مرات!

كذلك كان الكرماء!

ابن بقيـة

قصص الوزراء أيام ضعف الخلافة العباسية كثيرة عديدة. وكانت معظمها تنتهي بالمآسي. ومع ذلك فقد كان بعض من تغريهم المناصب يتهافتون عليها ولا تهافت الفراش على النور أو الذباب على الجيف من ذلك قصة ابن بقية.

وهو وزير كان لعز الدولة البويهي وله لقب هو نصير الدولة. ويصفونه بأنه كان من جلة الرؤساء وأكابر الوزراء وأعيان الكرماء لفرط كرمه. كان يشتري الثناء شراء. وهو في الأصل من أهل بلدة أوانا من أعمال بغداد. توصل في أول أمره إلى أن صار صاحب مطبخ معز الدولة (والد عز الدولة). ثم تنقل إلى غيرها من الخدمات والوظائف. وحين مات معز الدولة تحسنت حال ابن بقية ورعى عز الدولة خدماته وكان فيه توصل وسعة صدر. وتقدم إلى أن استوزره سيده فقال الناس: من الفخارة إلى الوزارة؟ لكن كرمه ستر عيوبه فقد خلع في عشرين يوماً عشرين ألف خلعة. وذكروا عنه أنه كان يشرب في بعض الليالي وكلما لبس خلعة خلعها على أحد الحاضرين فزادت على مائتي خلعة فقالت له مغنيته: يا سيدي الوزير. أفي هذه الثياب زنابير ما تدعها تثبت على جسمك فضحك وأمر لها بحقة حلي!

وسئل باعة الشمع عن راتب عز الدولة من الشمع في الشهر (أي كم يصرف منه) فقالوا: كان راتب وزيره محمد بن بقية ألف وحدة وزن في كل شهر. فإذا

كان هذا راتب الشمع خاصة مع قلة الحاجة إليه . فكم يكون غيره مما تشتد الحاجة إليه ؟

وابن بقية أول وزير لقب بلقبين معاً فإن الخليفة المطيع لله لقبه بالناصح ، ثم جاء ابنه الطائع لله فلقبه بنصير الدولة . ولما كانت العداوة بين المتخاصمين لا تصيبهم وحدهم في تلك الأيام ، بل تصيب رجال حاشيتهم وأطرافها فقد اصطدمت رغبات عضد الدولة البويهي برغبات ابن عمه عز الدولة وكان عضد الدولة يطمح أن يحل في بغداد مكان ابن عمه واشتدت الأزمة حتى تحاربا . وكان ابن بقية أحد الداعين للحرب المحرضين لعز الدولة عليها والتقى الجيشان عند الأهواز وكسر عز الدولة كسرة شنيعة فنسب ذلك إلى رأي ابن بقية ومشورته . وفي ذلك يقول الشاعر البصري أبو الغسان الطبيب :

أقام على الأهواز خمسين ليلة ... يدبر أمر الملك حتى تدمرا
فدبر أمراً كان أوله عمي ... وأوسطه بلوى وآخره هو خـ....

وقد قبض عز الدولة على وزيره هذا أواخر سنة ٣٦٦ بمدينة واسط وسمل عينيه وألزمه بيته . وكان في مدة وزارته يبلغ عضد الدولة عنه أمور يسوءه سماعها منها أنه كان يلقبه أبا بكر العذري ، تشبيهاً له برجل أشقر أزرق ، أنمش يسمى أبا بكر كان يبيع الغدد برسم القطط والسنانير ببغداد . وكان عضد الدولة بهذه الحلية . وكان الوزير ابن بقية يقول ذلك تقرباً إلى قلب مخدومه عز الدولة لما كان بينه وبين عضد الدولة ابن عمه من العداوة . فلما قتل عز الدولة وملك عضد الدولة بغداد ودخلها طلب ابن بقية في بيته . ورغم نكبته بالعمى فقد أخذه وألقاه تحت أرجل الفيلة . فلما قتل صلبه عند المارستان العضدي ببغداد بعد أن كان قد شهره وعلى رأسه برنس ممزق وكان عمره نيف وخمسون سنة .

ولم يزل ابن بقية مصلوباً إلى أن توفى عضد الدولة . فأنزل عن الخشبة

ودفن في موضعه. وقد عمل كرمه الواسع عمله الطيب بعد صلبه فقد انبرى أبو الحسن محمد بن عمر الأنباري فرثاه بقصيدة اشتهرت بين الأدباء وكان أبو الحسن من العدول في بغداد يقول فيها:

علو في الحياة وفي الممات ... لحق أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود فداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيباً ... وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء ... كمدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ... عن الأكفان ثوب السافيات
لعظمك في النفوس بقيت ترعى ... بحفاظ وحراس ثقات
وتشعل عندك النيران ليلاً ... كذلك كنت أيام الحياة!

ولما أنزل عن خشبة الصلب قال فيه أبو الحسن:

لم يلحقوا بك عاراً إذ صلبت بلى ... باؤوا بإثمك ثم استرجعوا ندماً
وأيقنوا أنهم في فعلهم غلطوا ... وأنهم نصبوا من سؤدد علما
فاسترجعوك وواروا منك طود علا ... بدفنه دفنوا الأفضال والكرما

والغريب أنه لما صنع أبو الحسن المرثية الأولى كتبها ورماها في شوارع بغداد خوفاً من عضد الدولة. فتداولها الأدباء وحفظوها إلى أن وصل الخبر إلى عضد الدولة. فلما أنشدت بين يديه تمنى أن يكون هو المصلوب دونه وقال: علي بهذا الرجل. فطلب سنة كاملة. واتصل الخبر بالصاحب بن عباد وهو بالري فكتب له الأمان فلما سمع أبو الحسن الأنباري بالأمان قصد الري فقال له: أنت القائل هذه الأبيات. قال أنشدنيها من فيك. فلما أنشد:

ولم أر قبل جذعك قط جذعاً ... تمكن من عناق المكرمات

قام إليه الصاحب وعانقه وقبل فاه وأنفذه إلى عضد الدولة. فلما مثل

بين يديه قال له : ما الذي حملك على رثاء عدوي به قال : حقوق سلفت وأياد مضت . فجاش الحزن في قلبي فرثيت . فقال : هل يحضرك شيء من الشموع ، والشموع تزهر بين يديه فأنشأ يقول :

كأن الشموع وقد أظهرت ... من النار في كل رأس سنانا
أصابع أعدائك الخائفين ... تضرع تطلب منك الأمانا

فلما سمعها خلع عليه وأعطاه فرساً وبدرة

وهكذا كان ابن بقية كريماً في حياته ، ومسبباً للكرم بعد مماته .

السلطان سليم

بعض الأسماء الكبرى التي تقرع لها الطبول في التاريخ وتمشي أمامها الأعلام والموسيقى ليست في الواقع أسماء كبرى. فوراء هذه الأسماء يختفي أحياناً مجرمون يجرون وراءهم أقسى الجرائم وحكام ظلام تحترق وراءهم جهنم ولا يحترقون. ويلعب الحظ كما يلعب المؤرخون دورهم في تلميع هذا الاسم وتلوين ذاك وإضفاء الجلالة على هذا المولى وكشف فضائح الآخر. والتاريخ كتلة من صخر ينقشون عليها ما ينقشون وهي تنظر إلى كل شيء بعيون من حجارة!!

وتمر في الخاطر أسماء عدد من الملوك اللامعين. شاه جهان الذي قتل إخوته وإيفان الرهيب والظاهر بيبرس والمعتضد بن عباد والمقتدر العباسي وآخرين كثيرين. وسأتحدث عن واحد من هذا الرعيل الشيطاني هو السلطان سليم العثماني! تاسع سلاطين بني عثمان...

الناس يعرفون عنه أنه السلطان العظيم ويلقبونه بالتركية ياوز أي الصاعقة، أو الذي لا يلين. ولم يبق على العرش طويلاً فقد قضى تسع سنوات فقط (١٥١٢ ـــ ١٥٢٠) ولكنه جعل هذه السنوات التسع حافلة حافلة. هزم صاحب العرش الفارسي اسماعيل الصفوي في موقعة غالديران سنة ١٥١٤ بتفوق الجند العثماني بالمدفعية على الفرس، ثم احتل أرمينيا وكردستان. ثم ألغى سنة ١٥١٦ ـــ ١٥١٧ دولة المماليك في مصر والشام بعد معركة مرج دابق مع السلطان المملوكي قانصوه الغوري ذي الثمانين سنة، ثم مع من خلفه في مصر طومان باي... وصار حامي الحرمين الشريفين في الحجاز. وامتد نفوذه

حتى مشارف اليمن. وألغى الخلافة العباسية الصورية في القاهرة وأخذ مخلفاتها المقدسة إلى استامبول... وكان يعد العدة للهجوم على جزيرة رودوس حين وافته المنية. كان في سباق مع الزمن فقد ضاعف في تسع سنوات مساحة الدولة العثمانية وجعل الدولة العثمانية تتألف من قسمين: تركي في الأناضول والبلقان وعربي في مصر والشام والحجاز. وكان يعرف ضعف المماليك فخاف أن يسبقه السلطان الصفوي فيمتد من العراق إلى مصر والشام. فسبق سليم وقتل قانصوه الغوري في المعركة، ثم شنق خليفته طومان باي على باب زويلة في القاهرة...

هذه هي قصة السلطان السياسية في اختصار. ويضيفون أحياناً أنه كان ذا مواهب فكرية وأدبية رفيعة. أما قصة السلطان سليم الإنسان فوجه آخر هو إلى الشياطين أقرب. نفاه أبوه بسبب الخلافات بين الأسرة الحاكمة إلى القرم فلما مات الأب بايزيد خان تسلم سليم العرش، فكانت أول أوامره قتل جميع إخوته ومن قد يتطلع إلى العرش من أهله. قتل سبعة عشر من البيت العثماني. ثم قتل سبعة من وزرائه، ثم قتل أربعين ألفاً لأن مذهبهم يخالف مذهبه السني. دخل حلب بعد معركة مرج دابق وكانت المدينة قد استسلمت له بالأمان ففرض ضريبة سماها ويا للسخرية مال الأمان استغرقت بضخامتها أموالهم كافة. أرسل إلى قانصوه الغوري بعد أن أسره يطلب منه الدعاء له ثم أمر بقتله. ثم قتل الجندي الذي نفذ الأمر. وصل بلدة الرملة في فلسطين وجاء واش يخبره أن بعض جنده قتلوا فيها فأمر فأبيد سكان المدينة عن آخرهم.

وعند خان يونس تجرأ الصدر الأعظم يونس باشا أن يصحح له كلمة كان الحق فيها مع الوزير فأمر بضرب عنقه وقبل أن يتم كلامه. ودفن الصدر الأعظم في موضعه بخان يونس. ولما أبقى للمماليك الشراكسة أوقافهم وأموالهم

قال الصدر الأعظم الجديد يا مولانا فني مالنا وعساكرنا في حربهم وتبقى عليهم أوقافهم يستعينون بها علنياً ؟ وكانت رجل السلطان في الركاب فأشار إلى الجلاد فقطع عنق الوزير وطار إلى الأرض قبل أن يصبح السلطان على ظهر الفرس. وصار من يسمون للوزارة يكتبون وصاياهم ويعدون أكفانهم ويودعون أهلهم قبل الذهاب إليه فهم لا يدرون إن ذهبوا أن يعودوا على أقدامهم أم في المحفة. وصار مثلاً في الناس أنه من أراد الموت فليصبح وزيراً للسلطان.

شخص واحد فقط كان يوقف هذا السلطان الدموي. يمسك يده عن سفك الدماء. هو الشيخ علاء الدين بن علي الجمالي مفتي السلطنة. كان مفتيها ستاً وعشرين سنة من أيام السلطان بايزيد والد سليم إلى أيام سليم نفسه، ثم إلى أيام ابنه سليمان الكبير القانوني وتوفي سنة ١٥٣٢. كان الجمالي في الأصل مدرساً في عدد من المدارس بعد أن درس في استامبول وبروسه، وأعطاه السلطان مراد المدرسة الحجرية في أدرنة يديرها وله كل يوم ثلاثون درهماً كما أعطاه خمسة آلاف لفقره. وتنقل في المدارس فأنقصوا راتبه فاشمأز. ورآه بايزيد خان في المنام فاستدعاه إليه فلم يلب ثم أجبره إجباراً على إدارة مدرسة أماسية ثم بروسه. ثم ازنيق... فلما توفى مفتي الدولة سماه السلطان بايزيد لمنصب الفتوى بمائة درهم كل يوم وأضاف إليه التدريس في استامبول بخمسين درهماً وعارضه بعض حساده. فزعم أن بينه وبين الله مكاشفة وتركه إلى الله فاتفق أن توفي الرجل بعد أسبوع فصارت لعلاء الدين نوع من القدسية والرهبة في النفوس. وكان يوصف بالعبادة وكرم النفس والخشوع والتواضع.

وذات يوم أمر السلطان بقتل ١٥٠ رجلاً من حفاظ الخزائن. وعرف المفتي بالأمر فذهب إلى الديوان العالي ولم يكن من عادتهم أن يذهب إلا لحادث عظيم ولما دخل سلم على الوزراء فأجلسوه في صدر المجلس وسألوه

حاجته فقال : أريد أن أدخل على السلطان فأذن له فدخل وقال : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان لا على دنياه فحسب وقد سمعت أنك أمرت بقتل ١٥٠ رجلاً لا يجوز قتلهم شرعاً فعليك بعفوهم فغضب السلطان سليم وكان صاحب جده وقال : إنك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك فقال : بل أتعرض لآخرتك . فانكسر غضب السلطان وعفا عنهم ثم قال المفتي وهو خارج : هل يليق بالسلطنة أن يتكفف هؤلاء الناس قال السلطان : لا وقال المفتي : إذن قررهم في مناصبهم قال السلطان لا بد أن أعذبهم لتقصيرهم قال ذلك لك ومن حقك ...

ولقي المفتي في الطريق وهو يودع السلطان الذاهب إلى أدرنة ٤٠٠ رجل مشدودين بالحبال ، لأنهم خالفوا أمر السلطان واشتروا الحرير . وكان قد منع ذلك . فذهب المفتي إليه وهو راكب فكلمه فيهم وأنه لا يحل قتلهم فغضب سليم وقال : أما يحل قتل ثلثي العالم لنظام الباقي قال نعم ولكن إذا أدى إلى خلل عظيم قال السلطان وأي خلل أعظم من مخالفة الأمر . قال الشيخ لم يخالفوا أمرك وقد نصبت الأمناء على الحرير فالقبض عليهم تم عن طريق الدلالة . قال السلطان ليس هذا من وظيفتك . فذهب الشيخ ولم يسلم . واحتد السلطان حدة عظيمة ووقف على فرسه مدة . ولما وصل قصره أصدر أمره بالعفو عن هؤلاء وزاد في مناصب الشيخ وفي رواتبه وأكرمه بخمسمائة دينار ...

لكن كم هم يا ترى أولئك الذين صدر أمر السلطان سليم الشيطاني بقتلهم فقتلوا ولم يتفق أن شهدهم المفتي أو عرف أمرهم؟ آه للدم ما أبشع مسيله !

محمود بن سُبكتكين

الاسم أعجمي دون شك . أما حامل الاسم فمسلم قوي الإيمان وقائد في الذروة من القواد . فإن وجد في السند منارة للإسلام فإنما تعود بعد محمد بن القاسم الثقفي إلى هذا الرجل أبي القاسم محمود بن ناصر الدولة سبكتكين . . .

كان الأب قد ورد إلى بخارى أيام السامانيين هناك في القرن الرابع الهجري . وكان حاجباً لأبي اسحق بن ألبتكين . صاحب بلدة غزنة يدير أموره . وقد عرف بالشهامة والصرامة . ولما عين أبو اسحق هذا والياً على غزنة انصرف معه إليها متزعماً رجاله . ولم يلبث أبو إسحق أن قضى نحبه ولم يكن له من قرابته من يصلح لمكانه واحتاج الناس إلى من يتولى أمورهم فاختلفوا في من يصلح لذلك ثم وقع اتفاقهم على تأمير سبكتكين فبايعوه على ذلك .

فلما تمكن شرع في الغزو والإغارة على أطراف الهند . فافتتح قلاعاً كثيرة منها . وجرت بينه وبين الهنود حروب عديدة اتسعت على إثرها رقعة ولايته . وعمرت أرض خزائنه . وأشفقت النفوس من هيبته ! وكانت بست بين البلاد التي افتتحها ومنها اختار الشاعر أبا الفتح البستي ليكون كاتبه وأمين سره . وكان سبكتكين في مدينة بلخ حين مرض فطلب أن يعودوا به إلى مدينة غزنة ولكنه مات في الطريق ! سنة ٣٨٧ .

كان ابنه اسماعيل معه فعهد إليه بالأمور وجمع حجابه وقواده وأوصاهم بطاعته . فبايعوه بالسلطنة وتسلم بيوت الأموال في غزنة . ولكن أخاه محموداً الذي كان يحكم خراسان أيام أبيه كتب إلى أخيه اسماعيل يلاطفه ويقول إنه

الابن الأكبر وإنما أعطاك أبونا ما أعطاك لأنك كنت معه ولو كنت موجوداً ما عداني . ومن المصلحة أن نتفق ونتقاسم الميراث . وتكون أنت مكانك بغزنة وأكون أنا مكاني في خراسان . ونتفق على المصالح كي لا يطمع فينا عدو . وإذا اختلفنا قلت حرمتنا .

فأبى اسماعيل ذلك . وكان فيه لين ورخاوة فطمع فيه الجند وشغبوا عليه وطالبوه بالأموال فاستنفذ ما في الخزائن في مرضاتهم . وخرج أخوه محمود إلى هراة بجيشه وجدد مكاتبة أخيه فكان لا يزداد إلا رفضاً : ولكن عمه وأخاه الثالث وافقاه ، فقصد بالجيوش كلها أخاه في غزنة . وحاصرها واشتد القتال بين الأخوين وانتشر اللهيب وتناثر الأشلاء وداست السنابك الجثث ، فلما سقطت الأسوار انحاز اسماعيل إلى القلعة وبعث يطلب الأمان . فأجابه محمود إلى سؤاله وتسلم منه مفاتيح الخزائن ورتب في غزنة النواب وانحدر إلى بلخ !

اجتمع بعد ذلك الأخوان أحدهما بالآخر فقال محمود : ماذا كان في خاطرك أن تفعل بي لو ظفرت ؟ قال وهو في نشوة السكر : أسيرك إلى بعض القلاع وأعطيك فيها ما تشتهي فقال محمود قد حكمت بنفسك وبعث به إلى قلعة وأوصى الوالي أن يمكنه من جميع ما يشتهي فيها . . .

لم يكتف محمود بما ورث من شرقي الأفغان إلى خراسان ، فقد حارب آخر السامانيين واستصفى منهم تركستان كلها أواخر القرن الرابع الهجري . وأراد أن يجمع إلى الفتح شرعية الحكم فأرسل إلى الخليفة القادر في بغداد الهدايا والأموال فأجابه الخليفة بإرسال خلعة السلطنة له ولقبه بأمين الدولة ويمين الملة .

خف الدراهم في أيدي خليفتنا هذا فوزع بين الناس ألقابا!

كذلك كانت العادة . وقام أمراء خراسان بين يدي محمود بن سبكتكين سماطين مقيمين برسم الخدمة وأجلسهم بعد الأذن العام على مجلس

الأنس وأمر لكل واحد منهم ولسائر غلمانه وخاصته ووجوه أوليائه وحاشيته من الخلع والصلات ونفائس الأمتعة ما لم يسمع بمثله .

على أنه فرض على نفسه كل عام غزو الهند . فملك أولاً سجستان (شرقي أفغانستان) ودخل أمراؤها في طاعته دون قتال . ودخل ما وراء السند في أرض الهند حتى بلغ ما لم تبلغه في الإسلام راية . ولم تتل به قط سورة ولا آية . وبنى هناك المساجد والجوامع وأدخل الناس في الإسلام طوعاً . وكتب إلى بغداد يذكر أنه كسر الصنم المعروف بسومنات . وهو في معتقد الهنود يحيي ويميت ويبرئ من جميع العلل إذا شاء . وإذا فارقت الأرواح الأجسام اجتمعت إليه وهم يحجون إليه من كل صقيع بعيد ويتحفونه بكل نفيس وقد بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية مشهورة . وامتلأت خزائنه وفي خدمته من البراهمة ألف رجل للخدمة وثلاثمائة يحلقون للحجيج رؤوسهم ولحاهم وثلاثمائة رجل وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون عند بابه . وبين المسلمين وبين القلعة التي فيها هذا الصنم مسيرة شهر ... والطريق قليل الماء صعب المسلك . سار إليه السلطان محمود في ثلاثين ألف رجل وفتحه في ثلاثة أيام فدخل المعبد ومن حوله أصنام كثيرة من الذهب المرصع بالجوهر تحيط عرشه ويزعمون أنها الملائكة . فأحرق السلطان الصنم وقد وجدوا في أذنه نيفاً وثلاثين حلقة زعموا أن كل حلقة منها تعني عبادة ألف سنة ...

وأذعن الهنود حين رأوا ما يعبدون لا ينفع ولا يضر ولا يحيي ولا يميت ، فأسلموا لله الواحد القهار . ويذكرون أن بعض ملوك الهند صاروا يرسلون للسلطان محمود الهدايا خيفة مسيرته إليهم . ومن هذه الهدايا تمثال طائر على هيئة القمري من خصائصه أنه إذا حضر الطعام وفيه سم دمعت عينا الطائر وجرى منها ماء وتحجر فإذا حُك ووضع على الجراحات الواسعة التحمت .

بلغت أملاك محمود بن سبكتكين ما بين منطقة دلهي إلى سجستان وشملت خراسان وأطراف خوارزم وبلاد تركستان حتى بخارى وسمرقند . وبدا في

لحظة من اللحظات أن امبراطورية شاسعة قد قامت في الشرق عليها سلطان سريع الجيوش داهية في الحرب. ولكنها امبراطورية لم تدم بعده سوى ثماني سنوات. ورثها ابن سيىء التدبير منهمك في الملذات فعزله الجند وولوا ابنه الآخر. لكن هذا الابن ما لبث أن قتل في معركة مع السلاجقة الذين اندفعوا سنة ٤٣٠ كالسيول مكتسحين إيران كلها إلى آسيا الصغرى والعراق والشام... فلم يبق من هذه الدولة سوى قطعة ما بين غزنة والهند. دعيت بالدولة الغزنوية...

أتراه كان يجهد نفسه بكل تلك الحروب والفتوح لو أنه عرف أن امبراطوريته ستذوب بعد بضع سنين.

العالم الذي قتله الموز

بين علماء العصر العباسي الأول عالم كان ظاهرة عجباً هو علامة قال الجاحظ فيه: لم يكن في الأرض أعلم منه. ومع ذلك فقد كان سيىء الأخلاق والفسوق. يستقدمه الخلفاء ليتعلموا منه، وهو يؤلف في مثالب العرب الكتب. يدرس الناس عليه أيام العرب وأخبارها في حين يخطىء في القرآن الكريم. ويكاد لا يقيم بيتاً من الشعر إلا كسره. جباهاً للناس ولكن لم يكن بالبصرة أحد لا يداجيه ويتقيه على عرضه. وكان وسخاً ألثغ مدخول النسب مدخول الدين يميل إلى مذهب الخوارج. ولا يقبل شهادته قاض. ومع ذلك كان علمه الغزير يفتح له كل الأبواب. هذا الرجل هو أبو عبيدة معمر بن المثنى...

ولا نعرف شيئاً عن نشأته وحياته ولكن ما أكثر النوادر والقصص التي تروى عنه. فكأن حياته كانت قصصاً متصلاً. قال مرة أرسل إليَّ الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه ببغداد والفضل وزير الأمين الخليفة وابن وزير أيضاً. قال فقدمت عليه وكنت أخبر عن تجبره فأذن لي فدخلت عليه وهو في مجلس طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه وفي صدره فرش عالية لا يرتقي عليها إلا بكرسي وهو جالس على الفرش فسلمت عليه بالوزارة فرد وضحك إلي واستدناني، حتى جلست معه على فرشه ثم سألني وتلطف بي وقال: أنشدني فأنشدته من عيون أشعار جاهلية أحفظها فقال لي قد عرفت أكثر هذه. وأريد من ملح الشعر، فأنشدته فطرب وضحك وزاد نشاطاً، ثم دخل

رجل في زي الكتاب وله هيئة حسنة فأجلسه إلى جانبي وقال له : أتعرف هذا قال لا . فقال : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه . قال الرجل : كنت إليك مشتاقاً . وقد سئلت عن مسألة أفتأذن لي أن أعرفك إياها ؟ قلت هات . قال قال الله تعالى طلعها كأنه رؤوس الشياطين . وإنما يقع الوعيد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف . فقلت إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط . ولكنه لما كان يهولهم توعدهم به . فاستحسن الفضل ذلك والجليس وأجازني .

هذا النموذج من علم أبي عبيدة يحكي علم معاصره الأصمعي المعروف والذي اشتهر أكثر منه لا لشيء إلا لأنه أحسن منطقاً وبياناً وحين خير هارون الرشيد في ندمائه اختار الأصمعي ، ويقولون إن طلبة العلم كانوا إذا أتوا مجلس الأصمعي اشتروا البعر في سوق الدر وإذا أتوا مجلس أبي عبيدة اشتروا الدر في سوق البعر لأن الأصمعي كان حسن الإنشاد والزخرفة لرديء الأخبار والأشعار حتى يحسن عنده القبح والفائدة عنده قليلة وأبو عبيدة كان معه سوء عبارة مع فوائد كثيرة وعلوم جمة !

ولقد أدخل أبو عبيدة على هارون الرشيد وعنده الأصمعي . فقال الخليفة له : بلغني أن عندك كتاباً حسناً في صفة الخيل أحب أن أسمعه منك فقال الأصمعي : وما تصنع بالكتب ؟ يحضر فرس ونضع أيدينا على عضو عضو منه ونسميه ، ونذكر ما فيه . فقال الرشيد : يا غلام . فرس . فأحضر . وقام الأصمعي فجعل يضع يده على عضو عضو منه ويقول : هذا كذا . قال فيه الشاعر كذا . حتى انقضى قوله . يقول أبو عبيدة فقال لي الرشيد : ما تقول فيما قال ؟ فقلت أصاب في بعض وأخطأ في بعض والذي أصاب فيه

مني تعلمه . والذي أخطأ فيه ما أدري من أين أتى به ؟

وكان الأصمعي يتحماه وكان إذا أراد دخول المسجد قال : انظروا لا يكون فيه ذاك ! يعني أبا عبيدة خوفاً من لسانه . أو لم يكن غريبا أن نجد أبا نواس يتعلم من أبي عبيدة ويصفه بالعلم ويشنأ الأصمعي ويهجوه وقد قيل له ما تقول في الأصمعي فقال : بلبل في قفص .. قيل فما تقول في أبي عبيدة قال : ذاك أديم طوى على علم . ومثل ذلك شهادة اسحق الموصلي الذي قال يخاطب الفضل بن الربيع الوزير :

عليك أبا عبيدة فاصطنعه ... فإن العلم عند أبي عبيدة
وقدمه وآثره عليه ... ودع عنك القريد بن القريدة !

يقصد الأصمعي . وأنت ترى أن جماعة اللامبالين وقليلي الدين والمبغضين للعرب كانت في ذلك العصر بجانب أبي عبيدة . فالعصر كان عصر هزة الشعوبية والتبسط وقلة التزمت والفسوق . وكان هذا العالم ــ على غزارة علمه ــ نموذجاً لها .

وكان إلى ذلك من أصحاب الأجوبة المسكتة اللاذعة . لما جمع كتاب المثالب قال له رجل بلغني أنك عبت العرب جميعها فقال : وما يضرك ؟ أنت من ذلك بريء . أي أنه ليس بعربي !! وخرج أبو عبيدة إلى بلاد فارس قاصداً بعض كبار الوجهاء فقال هذا الرجل لغلمانه احترزوا من أبي عبيدة فإن كلامه كله دق . ثم حضر الطعام فصب بعض الغلمان على ذيله مرقاً فقال له صاحب الدعوة قد أصاب ثوبك مرق وأنا أعطيك عوضه عشرة أثواب . فقال أبو عبيدة لا عليك فإن مرقكم لا يؤذي (أي ما فيه دهن !) فخرس الرجل ! وقال أبو عبيدة قدمت على الفضل بن الربيع مرة فسألني من أشعر الناس ؟ قلت الراعي النميري قال وكيف فضلته على غيره قال : لأنه ورد على سعيد بن عبد الرحمن الأموي ؛ فأعطاه صلته في يومه الذي لقيه فيه وصرفه . فقال

الفضل : ما أحسن ما اقتضيناه يا أبا عبيدة وبادر إلى الخليفة الرشيد فأخرج لي صلة وأمر لي بشيء من ماله وصرفني . وكان أبو عبيدة من موالي أحد بني تميم فقال له بعض الأجلاء ـــ أنت تقع في الناس وتثلبهم فمن أبوك ؟ قال أخبرني أبي عن أبيه أنه كان يهودياً من أهل باجروان (وهي محلة رديئة السمعة) فمضى الرجل وتركه !

ومن أعجب أمور هذا العالم أنه بقي طول حياته يصنف الكتب حتى مات وتصانيفه تقارب مائتي تصنيف أكثر من نصفها عن العرب . وقد مات ميتة غريبة . وسبب موته أن محمد بن القاسم النوشجاني أطعمه موزاً فأكثر منه حتى مات . وقد جاء أبو العتاهية إلى هذا الرجل نفسه ، فقدم إليه موزاً فقال له : ما هذا يا أبا جعفر ؟ قتلت أبا عبيدة بالموز وتريد أن تقتلني ؟ لقد استحليت قتل العلماء ؟

ولما مات أبو عبيدة لم يحضر جنازته أحد ، فلم يكن يسلم من لسانه شريف ولا غيره .

هل انتصف الناس منه بعد الموت ؟

ابن المسيب

حديثي اليوم عن سعيد بن المسيب . أتعرفون سعيد بن المسيب ؟ لو عدتم إلى القرن الأول الهجري لوجدتم الآلاف ممن يعرفونه ويحنون الرؤوس . إنه من تلك الجمرة الأولى التي تربت في مدرسة الرسول الأعظم وإذا نسيه النسيان فإنه يبقى من كبار التابعين وممن وهبوا أنفسهم للعلم هبة ما كان أقسى تبعاتها يوم حملها هذا الرجل . كان جمع الحديث النبوي غاية حياته . وكان يمشي في طلب الحديث الواحد الأيام الطويلة حتى بلغ من العلم به ما لم يبلغه أحد على الأرض . وكان إلى هذا فقيهاً أديباً شاعراً .

عاش في أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد والحجاج بن يوسف أي في النصف الأخير من القرن الأول وكانت له جرأة على الملوك والأمراء لا تدانيها جرأة وكانوا يحتملونه . ويتهيبون قوله . سمي للقضاء فتولاه لوجه الله وقد تراكمت له من رواتبه ثلاثون ألف درهم فما مس منها درهماً . كان يعيش من ٤٠٠ درهم يتاجر بها في الزيت كأبيه . وبقي أربعين سنة لا يسمع الأذان إلا وهو في المسجد قبل الناس ! وقد طلبه عبد الملك بن مروان مرة فأرسل مدير شرطته يستدعيه فجاءه في المسجد وأشار إليه أن يتبعه فما أبه للإشارة وكررها الشرطي ، ثم قال : هيه أنت قم أجب أمير المؤمنين . أيدعوك ولا تجيب ؟ فقال : إن كان يدعوني ليعطيني شيئاً فهو لك وإن كان لشر فوالله لا أحل حبوتي حتى يقضي الله ما يشاء ... وذهب مدير الشرطة إلى عبد الملك يروي ما كان فقال عبد الملك : دعه . فهو في دنياه أكبر منا نحن في دنيانا !

وذات يوم أراد عبد الملك بن مروان أن يعقد ولاية العهد لولديه الوليد ثم سليمان؛ فعرف سعيد بن المسيب بالأمر وقال: إن الرسول ﷺ نهى عن بيعتين. وأعلنها جهاراً. ولكن جمهرة الناس تابعت الخليفة الذي طلب من أمرائه في الأمصار أخذهم بهذه البيعة وأبى سعيد بن المسيب هذا العمل وظل على فتواه. فلا مداراة ولا رياء ولا محاولة لطي المسألة.

وبذل له أمير المدينة ما بذل يرهبه ويرغبه فما أثر فيه ترغيب ولا ترهيب فهدده بالجلد العلني وضج العلماء. أسعيد بن المسيب يضرب وهم شهود؟ ففوضهم الأمير أن يقنعوه. وذهبوا إليه وفيهم عروة بن الزبير وسالم بن عبد الله بن عمر وسليمان بن يسار. فعرضوا عليه أن يسكت عن لا وعن نعم!

قال: وهل أنا الذي يسكت عن الحق؟

قالوا: فاعتزل في بيتك حتى ينتهي الأمر.

قال: أبقى في بيتي فلا أخرج إلى الصلاة وأنا أسمع حي على الصلاة حي على الفلاح وما سمعتها من أربعين سنة إلا وأنا في المسجد. لا!

قالوا: فبدل مكانك في المسجد حتى إذا جاء رسول الأمير لم يجدك فيه فقال: لم أجده.

قال: أخوفاً من مخلوق؟ لا. لا أتقدم عن مكاني شبراً ولا أتأخر شبراً.

ودعاه الأمير فهدده بالقتل فقال: نهى رسول الله عن بيعتين! فأمر بأن يساق إلى ساحة العقوبة ويجرد من ثيابه ويضرب. وضرب خمسين سوطاً وطافوا به أسواق المدينة ثم سيق إلى السجن.

وجاء عالم إليه وهو يضرب فسأله عن مسائل فقهية فكان يجيب عليها والدم يسيل من ظهره وسئل هذا العالم أن يبتعد فقال أخشى أن يموت فيموت منه علم كثير! وجاءته ابنته بطعام إلى السجن فرده وقال: انظري ماآكل كل

يوم فأتني به . واستمرار هذا الطعام قد يفقرني ولا يذل العلماء إلا إذا جتاحوا أموال الملوك .

وبلغ عبد الملك ما جرى على سعيد بن المسيب فكرهه . وعبد الملك كان أحد فقهاء المدينة السبعة فلام الأمير على عمله واستبدل به عمر بن عبد العزيز . فجمع سعيد بن المسيب أولاده وأهله ينهاهم عن التعرض للأمير المعزول أو الشماتة به . وقال : أدعو لله يحكم بيننا .

وبعد فترة أقبل رسول من لدن أمير المؤمنين عبد الملك إلى المدينة . يسأل عن سعيد بن المسيب وقال له الناس : تجده في المسجد الجامع . فأقبل الرسول حتى وقف على حلقة الرجل وهو يحدث . فقال :

ــ إن أمير المؤمنين يقرئك السلام . وقد أرسلني أطلب يد ابنتك لابنه الوليد . ولي عهد المسلمين . وسرت في الحلقة همهمة سرور . إنه في زعمهم تشريف . وارتقبوا أن ينفرج فم ابن المسيب عن ابتسامة رضا إن لم يكن عن سرور . ولكن ابن المسيب أطرق يفكر . وفكر ثم فكر . ورفع رأسه في النهاية ليقول للرسول الذي ينتظر وقال :

ــ أبلغ أمير المؤمنين التحية وقل له : إن ابنتي ليست أهلاً لما يتيح لي ولها من التكريم . إني أرفض .

وبهت الرسول ومكث ساعة يتلبث ثم انصرف . وحلقة ابن المسيب سكوت كأن على رؤوسهم الطير ! وسرى الخبر في المدينة سريان البرق : رفض ابن المسيب مصاهرة أمير المؤمنين ! فالناس بين راض لذلك ومنكر له . أما ابن المسيب فبات تلك الليلة مرتاح الضمير ! .. كل خشيته كانت أن يعاود عبد الملك الطلب . فماذا يفعل ؟ لم يفتح الله عليه إلا بالرفض لا سيما حين أرسل عليه من ضربه في يوم شديد البرد وصب عليه الماء .

وكان لابن المسيب تلميذ يدعى أبا وداعة يركن ابن المسيب إلى خلقه ويثق بدينه وقد انقطع عن درسه أياماً طويلة . فلما حضر الحلقة انفرد به

وسأله عما أخره ومنعه الحضور فقال الرجل :

ـــ مرضت زوجتي فقعدت أمرضها وأعني بها ثم توفيت فقمت بدفنها وبما يجب لها . يرحمها الله .

قال سعيد :

ـــ هل تزوجت غيرها ؟

قال :

ـــ ومن يزوجني ولست أملك سوى أربعة دراهم ومن يزوجني بها ؟

قال سعيد وقد وجد الفرج في هذا القول : أنا أزوجك .

وحسب أبو وداعة أن سعيداً يمزح أو أنه سيزوجه إحدى قريباته . ما خطر في باله وقد عقدت المفاجأة لسانه أن سعيداً يعني تماماً ما يقول وأنه يعني بالذات ابنته !

ولكن ابن المسيب سرعان ما دعا بشاهدين من تلاميذه في الحلقة فعقد عقد أبي وداعة على ابنته ! والرجل ما يزال بين مصدق ومكذب . ثم انصرف إلى بيته . وفيما هو يعد عشاءه طرق الباب ولما فتحه بهت . إن سعيد بن المسيب جاء بنفسه وما كان طرق باب أحد من خمسين سنة ولا شوهد إلا في بيته أو في المسجد أو فيما بينهما . وقال سعيد لابنته التي كانت ترافقه .

ـــ ادخلي دار زوجك كريمة مكرمة . يا أبا وداعة كرهت أن يسألني الله عن وحدتك ولك زوجة فجئتك بها . وسقطت الفتاة من الحياء .

ـــ ولكني ... لكني لا أملك سوى أربعة دراهم !

فقال سعيد : رضيتها صداقاً لها . وانصرف . فلما أصبح أبو وداعة وأراد الخروج إلى حلقة سعيد قالت امرأته .

ـــ اقعد أعلمك علم أبي . وتبين أبو وداعة أنها من أكمل النساء علماً وأروعهن مناقب وخلقاً وكفى سعيد شر معاودة عبد الملك الطلب .

كم ذا بين الناس من يفضل أبا وداعة على ولي عهد المسلمين ؟

عروة بن الزبير

في أواسط القرن الأول الهجري وفي ظل الحرم المكي، تحلق ذات يوم أربعة شباب يتسامرون ويهزلون. ثلاثة منهم أخوة من ولد الزبير بن العوام وذات النطاقين أسماء بنت الصديق أبي بكر. هم عبد الله ومصعب وعروة أما الثالث فأموي صميم هو عبد الملك بن مروان بن الحكم. وبين الهزل والجد والحديث عن معاوية بن أبي سفيان الخليفة في دمشق يومذاك وعن آل البيت الذين حرموا الخلافة وأراد أحدهم أن يبث الهزل إلى حده الأقصى فقال:

ــ تمنوا على الله ونحن في طلبه: ماذا تريدون أن تكونوا؟

فقال مصعب: أتمنى أن أحكم العراقين وأتزوج عقيلتي قريش وأجمل جميلاتها سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة!

وقال عبد الله أنا أتمنى أن أنال الخلافة وأملك الحرمين!

وقال عبد الملك: أتمنى أن أقعد مقعد معاوية وأحكم الأرض.

أما عروة فصمت طويلاً ثم قال: لا أتمنى إلا أن أكون عالماً وأن يدخلني الله الجنة...

وكرت السنون وكأن الله استجاب لهذه الأماني. فإذا بها تتحقق! وسواء كانت الحكاية صحيحة أو موضوعة فقد كان لكل من الشباب الأربعة ما أراد حين كرت السنون...

فقد بويع عبد الله بن الزبير بالخلافة في الحجاز والعراق ومصر وأطراف الشام لولا أن قام مروان بن الحكم ثم ابنه عبد الملك في الشام وهزمه الحجاج في

مكة وانتهى على خشبة الصلب شهيد المبدأ .

وأما مصعب أخوه فقد حكم العراقين وتزوج العقيلتين . لكن الله لم يتم عليه أمنيته فقتل في المعركة دون النصر هناك . وأما عبد الملك فقد جلس في مقعد معاوية بالفعل قرابة عشرين سنة ، وجدد العهد الأموي في الشام بعد أن كاد يزول . وأما عروة فقد صار عالم العلماء وأحد فقهاء المدينة السبعة . وأحد من رويت عنهم المغازي وسيرة الرسول تضرب للقائه آباط الابل وله الإجلال ، حيث حل . فقد كان ميسور الحال لا هو في حاجة إلى ذل السؤال ولا إلى جاه السلطان . ويذكرون أنه كان إذا نضج الثمر ثقب حائط بستانه فيدخل من يدخل فيأكل ما شاء ويحمل ما شاء ... واحتفر بئراً في وادي العقيق لذة للشاربين ما تزال ثرة إلى اليوم .

ولما قتل أخوه عبد الله في مكة قدم على عبد الملك بن مروان بدمشق وقال له يوماً أريد أن تعطيني سيف أخي عبد الله فقال عبد الملك هو بين السيوف ولا أميزه من بينها . فقال عروة : إذا حضرت السيوف ميزته أنا فأمر عبد الملك بإحضارها فلما حضرت أخذ منها سيفاً مغلل الحد فقال : هذا سيف أخي فقال عبد الملك : كنت تعرفه قبل الآن فقال : لا فقال وكيف عرفته إذن قال : يقول النابغة الذبياني :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب !

ولم يكن له شأن في السياسة أو دخل . ترك دنيا الناس للعلم فكان عبد الملك بن مروان يكرمه غاية الإكرام لا سيما بعد مصرع أخويه عبد الله ومصعب . ولقد استقدمه الوليد بن عبد الملك بعد أن استقرت له الخلافة إلى الشام يستفتيه في بعض الأمر . فقدمها وهو مريض يعرج ويشكو الأكلان في رجله ، فما تركه الوليد إلا في قصر الملك ، في الخضراء الملاصق للجامع الأموي . لكن علته زادت عليه والتوجع منها أرهقه . وجاء الوليد بالأطباء

ينظرون أمره فخرجوا وقد قرروا أمراً خطيراً . ورأى عبد الملك في وجوههم أنه الموت ولكنهم كانوا يسرون ما هو أدهى : قالوا لا خلاص له إلا بقطع رجله !

وتردد الوليد أمام الفاجعة . وإنها لفاجعة أن يأتيه صديقه العالم الضخم على رجلين فيخرج من قصره على رجل واحدة . وحاول مع الأطباء أن يجدوا من ذلك مهرباً أو يصطنعوا دواءً فاستحال عليهم ذلك . لا بد من قطع الرجل !

كان عروة قد اعتاد أن يقرأ كل ليلة ربعاً من القرآن ودخل عليه عبد الملك وهو يقرأ وأبلغه بصوت لا يكاد يبين قرار الأطباء . ولم يكن وقع القرار سهلاً على عروة ولا كانت وسائل الأطباء في تنفيذه ، في تلك الأيام بالأمر الهين . إنها الآلام التي لا يدرك مداها إلا الله والصبر الذي لا ينفد . فأدوات الأطباء بدائية ، ولا تخدير مما يخدرون أو تعقيم مما يعقمون . قبل اليوم بألف وثلاثمائة سنة ونيف .

واقترح الأطباء أن يخدروه . ببعض الخمر فيخف عليه الألم فأبى وقال : لا أستعين على قدر الله بمعصية الله ! وقالوا نسقيك بعض (المرقد) كالخشخاش فقال : لا والله . فإني لا أحب أن أسلب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك . لأحتسبه عند الله ! وحار الأطباء في إقناعه . وبينوا له مبلغ الآلام التي قد يعانيها فلم يغير رأيه ولكنه قال :

ـــ سأدخل في ذكر الله . فإذا رأيتموني استغرقت فيه فشأنكم بها !

وبدأ يذكر الله فيما كان الأطباء يعدون عدتهم بقطع الرجل المصابة . واستغرق عروة واستغرق حتى لم تعد الدنيا عنده حبة خردل . فارقها محلقاً في الملأ الأعلى فيما كان الأطباء يحمون السكاكين بالنار ثم يقطعون بها اللحم . وحين وصلوا العظم لم يكن لهم من وسيلة سوى المنشار . نشروه والعرق يغرق المريض ولسانه لا يفتر عن التهليل والتكبير . فلما فرغوا جاءت أصعب المراحل

وهي التعقيم: يحمى الزيت في مغارف الحديد ويكوى الجرح به. وكذلك كان ...

وأغمي على عروة!

حضر الوليد هذه المجزرة الحية وبكى. لم يشعر أن الرجل قطعت إلا حين وجد رائحة الكي... وأفاق الشيخ من غشيته ثم غشي عليه مرات. وطلب حين صحا أن يرى ما قطع منه... وقلب الرجل المبتورة بين يديه قائلاً:

إن الله ليعلم أني ما مشيت بك إلى معصية قط!

ولم يكن بعد قد برئ من هذه العملية الجراحية البدائية حتى أتاه خبر زلزله: ابنه محمد! دخل الاسطبل فرمحه فرس بضربة فمات لساعته. فما زاد عروة على ترنح ثم تماسك وعاد إلى ذكر الله! ثم قال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً!! والله المستعان على ما تصفون!

اللهم إن كنت أخذت طرفاً لقد أبقيت أطرافاً. وإن كنت أخذت ولداً لقد تركت أولاداً. ولك الحمد على ما أعطيت وما أخذت. لئن أخذت لقد أبقيت ولئت ابتليت لقد عافيت.

وعاد عروة بعد أن تعافى إلى المدينة. وتلقاه الناس في ظاهرها وواكبوه إلى داره يعزونه. وكان أبلغ ما سمع قول ابراهيم بن محمد بن طلحة الذي قال له:

والله ما بك حاجة إلى السعي. ولا أرب في السباق. وقد أبقى الله منك ما كنا والله له فقراء وعنه غير أغنياء من عملك ورأيك وفضلك. وإن الله ولي ثوابك والضمين بحسابك!

عاش عروة بعد قطع رجله ثماني سنين.

قصة عروة هي قصة الإيمان المحض فهل فينا من يسمو بذاته إلى مثل هذا الإيمان؟

العز بن عبد السلام

هذا الرجل لم يكن من بيت علم ولا كان ابن أسرة كبيرة ولا اشتهر بطلب العلم إلا على كبر. وقد كان من الفقر، بحيث يبيت في مدرسة بجانب الجامع الأموي بدمشق. وقد أفرز التاريخ الإسلامي عشرات بل مئات الألوف من الفقهاء أمثاله ومع ذلك فما يزال اسم هذا العالم الفقيه يجتاز القرون قرناً بعد قرن منذ ثمانية قرون حتى الآن. ويذكر في حين انطفأت ونسيت أسماء تلك المئات من الألوف فما يذكرها أحد...

فمن هو عز الدين بن عبد السلام وما الذي خلد اسمه؟

هو شيخ من دمشق عاش في أواخر العهد الأيوبي. طلب العلم ثم طلبه وطلب على كبر في السن، فكان يسهر ليله كله يحفظ ويدرس ويجتهد حتى غدا في عشر سنوات من أعلام العلماء. وقد زهد في الدنيا وفي المال وفي الجاه، فاستطاع بذلك أن يسمو على المغريات وعلى نفسه فهو يجرؤ على الملوك والأمراء ويقول الحق في وجوههم يصفعهم به صفعاً...

وقد قربه الملك الصالح اسماعيل الأيوبي وولاه القضاء وخطابة الجامع الأموي فلم يقبل حتى تطلق يده في قمع البدع وفي الإصلاح... وذات يوم كان الملك الصالح خارجاً إلى الصلاة يوم العيد، الموكب موكب ملكي تصطفق فيه السيوف على الخيل وتلمع السروج كالشمس تحت الشمس. وجوه المملكة وراء فرس الملك صفوف وقع سنابكها يصم الآذان والأعلام الملونة تموج فوق الرؤوس وتخفق. وإذا بشيخ يصيح فيستوقف الموكب كله.

ويلتفت الملك الصالح والناس سكوت ، فإذا الذي يصيح هو العز بن عبد السلام . واقفاً بباب مدرسته .

قال للملك : ما حجتك عند الله وقد بوأك الملك أن تباع في مملكتك الخمور . وأنكر الملك ذلك فقال العز بلى ! الخمارة الفلانية والخمارة الفلانية ... قال الملك : إنها من زمان أبي فقال الشيخ :

ـــ أنت أيضاً ممن يقولون : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ .

ولم يسع الملك إلا أن أمر بإغلاقها !

ولما سألوا العز : كيف أخفت الملك . قال وضعت خوف الله بين عيني ! فصار السلطان أمامي كالقط !

وذات يوم عرف ابن عبد السلام أن الملك وكان على خصومة مع ابن عمه صاحب مصر قد تنازل للفرنجة الصليبيين عن مدينتين ليكونوا في حلف معه ضد ابن عمه . وثارت ثورة الشيخ . وفي خطبة الجمعة كان الجامع الأموي يموج بالمصلين والملك الصالح نفسه يحضر الصلاة ووقف العز يخطب فماذا قال ؟

بصوت مجلجل خطب يذم من يوالي الأعداء وتلا قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ وأخذ يندد بالخونة المارقين وبالتحالف مع أعداء الله . وأعلن أن الملك قد خان وأن الخائن لا ولاية له وأعلن إسقاطه من الحكم . وهاج الجامع وماج . وتقدم الجند فقبضوا على الشيخ وذهبوا به إلى السجن وضج الناس وذهب وفد من العلماء إلى الملك « الصالح » يتوسطون . فقبل الصالح العفو عنه بشرط أن يقبل يده . ونقل الوسطاء ذلك إلى الشيخ الذي قال :

يا مساكين ! والله ما أرضى أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده ...

وجرجره الملك الصالح معه إلى جبهة القتال مع ابن عمه وجعله في فسطاط قريب منه فكان يتلو القرآن الكريم في سجنه . واتفق إن حضرت

بعض وفود الفرنج عند الملك الصالح وسمعوا صوت القارئ فقال لهم أمس : هل تسمعون هذا الصوت؟ إنه أعظم قساوسة المسلمين وقد حبسته لإنكاره تسليمي الحصون لكم وعزلته من منصبه فقال واحد منهم :

والله لو كان قسيساً عندنا لغسلنا رجليه وشربنا ماءهما . . .

وضاق الملك الصالح بنقد الناس له وكرههم حبس الشيخ ، فأطلق سراحه على أن يغادر دمشق . وغادرها إلى مصر . وما لبث ملك الشام كله أن زال . . .

المغول القادمون من أقصى الشرق كالعواصف ونبت الشياطين ، مع هولاكو اقتلعوا الخلافة العباسية في بغداد وداسوها بالأرجل وذبحوا حولها ما يزيد على مائتي ألف في الطرقات كالأغنام ، ثم انساحوا على بلاد الشام فدمروا معالمها الحضارية ومشوا كالوباء في البشر ، حتى دقوا أبواب مصر . . . كان الحكام هناك هم بعض مماليك الأيوبيين وتقاعسوا وهم أدوات الحرب وعدتها فمشى الشيخ فيهم شعلة نار . فلما شكوا قلة المال وطلبوا جمعه من الناس قال العز بن عبد السلام :

— لا والله . لا أطلب درهماً من أحد حتى تخرجوا كنوزكم أنتم وما ادخرتم وهذا الذهب الذي تتزينون به أنتم ونساؤكم فتبيعونه !

وتلاوموا وباع بعضهم بعض ما عنده ثم جاؤوه . فقالوا المال لا يكفي . والحرب تأكل المال كما تأكل النار الحطب فقال الشيخ ابن عبد السلام :

— أنتم في معظمكم لا تزالون في نظر الشرع عبيداً مماليك وما حرركم مالكوكم . ومع ذلك فأنتم تحكمون الناس الأحرار . وأعلن بوصفي القاضي بيعكم بالمزاد . لجمع المال اللازم !

وحسبوا قوله نوعاً من الهزل فإذا به جاد كل الجد . فشكوه إلى السلطان فأتى بالشيخ ونهاه . ولكنه لم ينته . واستمر يعلن رأيه للملأ فأتى به السلطان مرة أخرى وقال له كلمات فيها تهديد وغلظة فماذا كان من

الشيخ؟ إنه لا يملك مالاً ولا قوة ولا رجالاً ولا ما يدفع به عدوان الحكام. وقد قال رأيه الشرعي وهو عدته الوحيدة من الحق ولكن من ذا الذي يدافع عنه؟ ما من أحد!

وقرر الهجرة من مصر. حمل متاعه ومتاع أهله على حمارين وخرج. وتسامع الناس بخروج العز بن عبد السلام من بينهم فتجمهروا ولحقت به جموع لا تحصى بين الضجيج والعويل والرجاء. واهتز البلد كله وزلزل... وأسرع الخبر إلى السلطان: تدارك ملكك فابن عبد السلام ارتحل!

وأرسل السلطان كوكبة من الخيل عادت به وأجابته إلى طلبه... أن يباع المماليك ونودي عليهم في سوق العبيد. واجتمع للدولة المال... وامتلأت مصر جنداً ومدربين وأعوان حرب وخرج الجيش بقيادة أمير من المماليك عرفه التاريخ باسم قطز وقد سموه السلطان وأطلقوه على رأس الجيش حتى بلغ حوالي بيسان من فلسطين وهناك لقيه وحوش المغول كالصواعق. وتراجع أمامهم حتى حسبوا أنهم هزموه. ولكنها كانت خدعة. فقد استدرجهم إلى واد كان قد بث فيه الكمائن فما دخلوه وهم يحسبون أنهم ظافرون حتى انقض عليهم البلاء الأعظم من الجانبين ومن أمامهم ومن خلفهم، فما يدرون كيف يحاربون. ولا أيان يهربون. وهزم المغول هزيمتهم التي لم يهزموا قبلها أبداً وتوقف بعدها المد المغولي الذي لا يغلب وبدأ تراجعه النهائي!...

كانت هذه هي معركة عين جالوت التاريخية سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠م آخر معارك الإسلام الكبرى وسمي العز بن عبد السلام من يومها سلطان العلماء.

ترى لو وقف نصف العلماء، ربع العلماء، عشر العلماء، من عدوان الحكام هذا الموقف الحق فهل كان الإسلام يهون على الأنفس كما قد هان؟

فولتير عبقري وشيطان

على مرمى العين من جنيف، على الحدود بين فرنسا وسويسرا، تقوم قرية هادئة تحمل اسم فولتير. وما هذا كان اسمها من قبل فهي قرية فرني. ولكن رجلاً «مشاغباً» مثيراً للجدل حل هارباً منذ أقل من مائتي سنة في هذه القرية واستقر فيها... فاتخذت اسمه وأكرمته كل الإكرام ونصبت له تمثالاً على مقربة من باب الكنيسة. كان اسمه فولتير!

ولم تكن شيطانية هذا الرجل، بابتسامته العجوز، ولا أفكاره الثورية، ولا التهابات المدائح والأهاجي على السواء خلفه بالتي تتناسب مع وجوده في هذه القرية مع سكونها وحياتها الهادئة الرتيبة وغاباتها المياسة من الشجر الأخضر. ولكنها قبلت بسرور بالغ هذا اللاجىء الطريد يقضي سنواته الأخيرة فيها... وهي تفخر اليوم بأن عصره من بعده عرف باسمه فأضحى عصر فولتير! وهو النصف الأول من القرن الثامن عشر.

وليس اسم الرجل فولتير ولكنه لقب تلبسه. اسمه الأصلي فرانسوا ماري أرويه. وكان عمره لا يجاوز ست سنوات حين أتت سنة ١٧٠٠ ولكنه كان قد حفظ بعض الشعر ضد الأديان!! العصر كان ردة على عصر الجفاف والتزمت الذي سبقه. كان الاستهتار هو السيد فيه حتى لدى النساء. زعموه عصر «العقل» وما فيه من العقل سوى رفض كل تقليد والتنكر لكل فضيلة! وفقد فولتير أمه وهو في السابعة فلم يعد ثم من رقيب على تصرفه ونزعات نفسه.

وعلى الرغم من أن أباه كان من البروتستانت فقد أدخله وهو في العاشرة

من العمر في كلية الآباء اليسوعيين الكاثوليكية. قضى سنتين هناك ملأهما بالنكات على الآباء والكيد لهم. كانت نزعة التطاول والتمرد هي الطاغية عليه وعجز الآباء عن إصلاحه أعني عن هدايته إلى الطريق القويم. كل ما كسبه منهم شيء من البلاغة ومن اللغة اللاتينية. لكنه التهم ما في الكلية من دواوين الشعر والمسرحيات التمثيلية... وكان في الثانية عشرة ينظم الشعر بسهولة مدهشة! على أنه كان خفيف الروح سريع البديهة حاضر النكتة والسخرية! كما كان واثقاً كل الثقة من نفسه. وقد رضي أبوه أن يكون الابن شاعراً على أن يكون الشعر ملهاة له لا عملاً واحترافاً. ولكنه لم يفلح وحاول أن يبعده عن جو باريس فألحقه ببعثة دبلوماسية في هولندا. ولكنه رجع من هناك بفضيحة. أحب ابنة سيدة أفاقة جميلة، ولم يعجب ذلك أمها فأثارت عليه السفارة ولما حرض فولتير البنت على الهرب معه، كشف الأمر وأعيد إلى باريس...

بعد سنة كان في السجن. فقد نزل ميدان النقد بقلمه اللاذع واتهم بنظم قطعة من الشعر في هجاء الملك لويس الرابع عشر أو الملك الشمس كما يدعونه فقضى سنة في سجن الباستيل. ويبدو أن سجنه أفاده فقد كتب مسرحية اشتهرت عند تمثيلها كما بدأ بعض الأعمال الأدبية.

واتفق وهو في الخامسة والعشرين أن اشتبك مع أحد النبلاء في خصومة فأمر النبيل خدمه بضربه وتحلق الآخرون حوله ساكتين أو كالشامتين. ولما طلب النبيل للمبارزة كان نصيبه أن يقبض عليه مرة أخرى ويودع في سجن الباستيل!

وحين خرج من السجن آلى على نفسه أن يغادر فرنسا إلى إنكلترا وهي في زعمه بلد الحرية السياسية والفردية. وأودع نقوده لدى يهودي مراب على أن يتسلمها في لندن. فما وصل هناك حتى وجد أن اليهودي أفلس... وبقي فولتير لا يملك شروى نقير!

واستضافه بعض محبي أدبه وانتهز المناسبة للاطلاع على الفلسفة الإنكليزية والأدب. وكان معجباً بالنظام السياسي الذي لا يضاهيه نظام الملكية المطلق في فرنسا فكتب يؤيده ويؤيد الديمقراطية والحرية ... لكنه بعد أقل من ثلاث سنوات وجد نفسه ضيفاً ثقيلاً فعاد إلى فرنسا في السر. واختبأ في أحد الأحياء وكتب إلى أحد الوزراء أن يسمح له «بجر أغلاله في باريس» وعفى عنه ونزلت إلى السوق منه عدة مؤلفات منها واحد في التاريخ ومنها عدة مسرحيات ومنها رسائل فلسفية نالت ضجة واسعة، لأنها طعن في الدين المسيحي! فاضطر للاختفاء في شرقي فرنسا عند سيدة ما لبث أن عقد معها صلة حب استمرت طول حياته. وعلى الرغم من أن ملك بروسيا وعدداً من أمرائها دعوه وألحفوا في دعوته للإقامة عندهم فقد آثر الدفء عند هذه السيدة مدام شاتليه التي ما لبثت بعد خمس عشرة سنة أن ملته وخانته ولكنه ظل مع ذلك على خدمتها وهنائها، بل أحرقت ثماني مجلدات من رسائلهما المتبادلة وقبل ذلك، لم ينتقل من جوارها إلا حين ماتت ... فانتقل إلى ضيافة ملك بروسيا وقامت بين الاثنين علاقة عجيبة من الود الشديد والعداء الشديد في وقت معاً. وهرب فولتير إلى فرنسا وهجر الملك لكن الرسائل بين الطرفين ظلت متصلة تنم عن كبرياء الاثنين وإعجابهما بنفسيهما وتقديرهما أحدهما للآخر ... ولعلماء النفس أن يحللوا ما شاؤوا هذه العلاقة الغريبة التي جعلتهما كقطبي المغناطيس ما إن يتقاربا حتى يتنافرا أشد التنافر.

انسحب فولتير أخيراً إلى قصر له في فرني على الحدود السويسرية، بقي فيه ست سنوات يعمل دون كلل ثماني عشرة ساعة في اليوم. وكثيراً ما كان يوقظ سكرتيره في الليل ليملي عليه بعض خواطره على أنه لم يكن معتزلاً فلم تكن تفوته المنتديات والصالونات والبلاطات! كان عبقرياً يسكنه الشيطان. وكانت خباثة الشيطان فيه تروق للكثيرين ... وفي هذه الفترة أغرم بالزراعة

والأبقار حتى أضحت توازي عنده مسرحياته وأدبه وأولع فترة بتحسين المركبات الحربية ووضع نماذج لها قدم بعضها لملك بروسيا وبعضها لكاترين امبراطورة روسيا في حروبها ضد العثمانيين .

وكان كلما تقدم في السن زادت مشروعاته فأقام مصنعاً للحرير وآخر للساعات وطرق أبواب الشرق : « استامبول . تونس . الجزائر » لبيع بضاعته .. وأنشأ عدداً من المدارس ... أكان يلهو بكل ذلك . قد يكون . ولكنه في الواقع إنما كان قبل كل شيء وفوق كل شيء يهوى حرية الفكر .

لو كان كل الناس على حرية الفكر مثل فولتير فماذا كان يجري في العالم ؟

طغرل بك

السلاجقة أسرة تزعمت قومها من الترك الخزر شغلت التاريخ الإسلامي في المشرق أكثر من قرنين. وتلقوا بصدورهم وسهامهم البعيدة المرمى حدة الحروب الصليبية ومعظم صدماتها الأولى. طغرل بك (وبك في التركية تعني الأمير) كان زعيم الاختراق الأول للسلاجقة عبر البلاد الإسلامية في أقصى الشرق، في بلاد التركستان. ببلاد الصحارى الرملية والقفر هناك. قبل ذلك كانوا جماعة بشرية متكاثرة بعد ما وراء النهر إلى الشرق. وتكاثروا ثم تكاثروا وضغطت عليهم القبائل المغولية والتركية في شرقهم فتحركوا في اتجاه الغرب ولم يكن في غربهم سوى التركستان فتسللوا إليها. كانوا شياطين لتلك الصحارى. ينهبون حتى إذا لحقهم الطلب غلغلوا في المفاوز وراء كثبان الرمال وفي التيه فلا يصل إليهم أحد!

ويبدو أنهم كانوا على البوذية في الأصل ثم تسللت إليهم بعض اليهودية وأخيراً وعن طريق التجارة والتبادل الاقتصادي اعتنقوا الإسلام وصاروا يدخلون البلاد الإسلامية جنوداً مرتزقة لمن يريد الجند. ولما ملك السلطان محمود بن سبكتكين (الغزنوي) صاحب خراسان بلاد ما وراء النهر وبلاد التركستان وجد زعيم السلاجقة قوي الشوكة كثير العدد كثرة هائلة. يتصرف على المخاتلة والمراوغة وينتقل من أرض إلى غيرها ويغير على البلاد فاستماله إليه ولم يزل يخادعه حتى أقدمه عليه فأمسك به واعتقله في بعض القلاع. واستشار أصحابه في الحيلة بهذا العدد الضخم ماذا يفعل به؟ فمنهم من أشار بإغراقهم في نهر

جيحون ومنهم من أشار بقطع إبهام كل رجل منهم ليتعذر عليهم الرمي بالنشاب وأخيراً وقع الاتفاق أن يعبروا نهر جيحون ويفرقوا في النواحي. ويوضع عليهم الخراج. فقبلوا وانساحوا في أرض تركستان.

غير أن العمال كانوا يظلمونهم وأيدي الناس كانت تمتد إليهم وتسلب أموالهم ومواشيهم فانفصل قسم منهم هربوا إلى كرمان في الجنوب الإيراني وانفصل قسم ثان توجه إلى منطقة أذربيجان. وانحاز من بقي منهم إلى جبال قريبة من خوارزم. ولحقهم السلطان محمود بنفسه ولم يزل في أثرهم حتى شردهم وشتت جموعهم...

وتوفي السلطان محمود وخلفه ابنه مسعود واحتاج للجند فكتب إلى من في أذربيجان فجاءه منهم ألف فارس واشترط عليهم الطاعة. وكانت زعامة القوم في أسرة بني سلجوق زعامة بدوية في ما وراء النهر لا تدري بما يجري. وقد اصطدموا بصاحب بخارى في موقعة عظيمة قتل فيها الكثيرون من الطرفين وقرروا اللحاق بأصحابهم في خراسان ووعدوا السلطان مسعوداً الوعود الجميلة واعتذروا له وضمنوا له أخذ خوارزم وطلبوا إطلاق زعيمهم المعتقل من أيام أبيه. فأطلقه... وأخيراً قدموا عليه في جيش ضخم لم يكن يستطيع مسعود القيام له وجرت لهم معارك مع نوابه ثم معه كسبوها واستظهروا عليه وامتلكوا طوس والري ثم نيسابور. وكان زعيم هذه الحركة وقائدها طغرل بك.

منذ هذه اللحظة صار اسم طغرل بك يسري في الناس سريان الراجفة وانتصاره على السلطان مسعود في معركة (دانداكان) فتح له الآفاق والآمال. وجلبت الغز الترك البعيدين إلى زعامته. ولم يكن طغرل بالزعيم الظلوم، بل كان حليماً كريماً ديناً محافظاً على الصلوات في أوقاتها جماعة. ويقول استحي من الله أن أبني لي داراً ولا أبني إلى جانبه مسجداً. وأعلن التبعية للخليفة العباسي في بغداد ليكسب شرعية الحكم في حين انصرف مسعود الغزنوي إلى الهند...

وانساح السلجوقيون في إيران كلها وتجمعت جماهير منهم في أذربيجان يخرجون في غارات نهب في اراضي أرمينيا وشرقي الأناضول. يغدون خفافاً أول الصيف بعجلاتهم ويعودون وهي مثقلة في مطالع الخريف إلى مستقراتهم في أذربيجان حتى ترك السكان أراضيهم وهربوا شرقاً فلم تبق إلا القلاع تدافع... ولكن عمن تدافع؟ لقد هرب حماتها بدورها. ورأى السلاجقة الشقة ضوية بين أذربيجان والبلاد التي ينهبون وهذه البلاد فارغة وهكذا استقروا فيها وتقدموا في استقرارهم التدريجي فلم يمض نصف قرن حتى كانت الأناضول وآسيا الصغرى تنغل نغلاً بهؤلاء الترك الأقوياء... وانفلتت منهم فرق تسللت من أذربيجان إلى الموصل والجزيرة وتطوع بعضها مرتزقة لدى أمارات هذه البقاع: العقلية والمروانية والمرداسية. يعملون وينهبون. وأخيراً وجد طغرل بك أن الطريق إلى بغداد لا عقبة فيها سوى طيف المتحكم بها بجانب الخليفة من بني بويه. وقد اضطربت أمورها وظهر فيها قائد بويهي هو البساسيري الذي طرد الخليفة منها ودعا للفاطميين على المنابر... فالفرصة إذن سانحة لطغرل التركي أن ينزل بغداد.

وساق جيوشه وبينما قتل البساسيري وانتهى أمره كان طغرل يدخل بغداد سنة ٤٤٧ في موكب فخم من الألوية الملونة والسناجق وأرجل الخيل توقع له نشيد النصر! واستقبل دار الخليفة القائم فقبل الأرض بين يديه. فأعطاه الخليفة يده فقبلها... فيما كان طيف البويهي الأخير هارباً من المدينة ليقتل.

هل كان ذلك يعني إعادة السلطات التي سلبها البويهيون ومن قبلهم من الخليفة. أبداً لقد حل مستبد جديد تركي محل مستبد قديم بويهي فقط! وخرج طغرل من عند الخليفة وهو يحمل لقب السلطان ومعه أن يحكم كل ما تحت يدي الخليفة من الأرض الإسلامية! ولعل الخليفة وجدها فرصة للخلاص من التسلط البويهي الشيعي عليه بالاندفاع إلى ظل سلطان سني!

لكن بعد خمس سنوات عنت لطغرل خاطرة شيطانية : لم لا يتزوج ابنة الخليفة وينجب منها ولداً عباسياً سلجوقياً له كل الشرعية والقوة في أن يحكم البلاد ؟ وبعث يخطب الفتاة . فشق ذلك على الخليفة القائم واستعفى منه لكن الرسل ترددت بين الطرفين . وألح طغرل . لم تبق له سوى هذه الأمنية . واستكان الخليفة أخيراً وزوجه . وعقد العقد بظاهر مدينة تبريز ، حيث كان يقيم طغرل ، ثم توجه إلى بغداد بمواكبه ودبيب الطبول وعليه الأطواق ومن حوله وورائه آلاف الفرسان . وطلب إقامة الزفاف وحمل مائة ألف دينار ذهباً برسم حمل القماش للعروس وثقله . فزفت إليه بدار المملكة . وجلست على سرير ملبس بالذهب . ودخل عليها السلطان طغرل وقبل الأرض بين يديها ولم يكشف البرقع عن وجهها في ذلك الوقت . وقدم لها تحفاً يقصر الوصف عن ضبطها . ثم قبل الأرض مرة أخرى وانصرف وهو في منتهى السرور . كان في السبعين من العمر .

لقد حقق حلمه . لكن العبد يقدر والرب يدبر . فقد توفى طغرل في الري بعد الزواج بستة أشهر ... ولم يثمر الزواج ثمرته لا من بنت ولا ولد ... وتقدرون فتضحك الأقدار !!

وورث الملك كله ابن أخيه ألب أرسلان !

الفتح بن خاقان

هو رجل له وصفان متناقضان . خلق في الثرى وكتابة في الثريا . له حياة مشرد يتحامى أصحاب التراجم ذكرها . وأدب في الدرجة العليا من الجودة والروعة . نواسي في مباذله وحياته مستهتر ، خليع . ولكنه قلم هو القمة في البيان يعدل الجاحظ والتوحيدي .

وقد يجمع الله النقيضين بعدما　　يظنان كل الظن ألا تلاقيا

وقد جمع الله النقيضين معاً في هذا الرجل .

وابن خاقان ليس اسمه ولكنه لقب نبذ به للزراية وللتنقص من قدره بهذا اللقب التركي الامبراطوري وإلا فهو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي . عربي النجار . وليست أسرته من الأسر البارزة فهو من قرية قرب غرناطة . ولعله لم يدرس كثيراً كغيره على الشيوخ . وحياته تكشف عن قلق مبكر وعن استهتار لا يستقر على حال . وهي إلى الفقر والمتربة أقرب . ولكنه كان يعرف كيف ينتزع عيشه من أفواه الأمراء وكان لا يمل من المغامرة والقصف والإسراف في الملذات فالحياة عنده حانة خمر ومجلس لهو . ولقد دخل مرة على القاضي واشتم منه بعض الحاضرين رائحة الخمر وتثبت القاضي من ذلك فحده الحد الشرعي . ولكنه بعد ذلك أرسل إليه ثمانية دنانير وعمامة ... خوفاً من لسانه .

كانت حياته مأساة مبعثرة على ظهور الدواب وعلى أبواب البلاطات وعلى أعتاب من يتعاطون الراح من أولى الأمر والكبراء . ولست تدري هل كان

ذلك عن يأس مصيري أم عن تهتك أصيل ونفس خليعة. عاش عصر المرابطين كله في الأندلس ومع أنه كان عصر تزمت وسيطرة للفقهاء وأهل الدين إلا أنه كان لا يأبه ليومه ولا لغده. وكان نقلة وهجرة متصلة كما تنتجع الأباعر مواطن الكلأ لا تكاد تودعه بلد حتى يستقبله آخر. وبهذا الشكل القلق زار الأندلس كلها براً ومدناً وبلاطات وموانىء ومجالس خلاعة وخمر. زار إشبيلية وطليرة. وبلنسية وأبحر إلى جزيرة ميورقة وعاش في سرقسطة حيث التقى بابن باجه الفيلسوف المعروف وكانت له معه العداوة القاسية ونال منه بلسانه الحاد كل منال. وغادر سرقسطة قبل سقوطها بعامين في يد الاسبان ليتوجه إلى شاطبة، ثم عاد إلى إشبيلية ومنها إلى غرناطة ومنها إلى بجانة ثم بايرة ثم لورقة... وغادر الأندلس إلى المغرب مسترفداً الأمراء...

ولم يكن هذا التجوال المتصل تجوال هواية ولكنه تجوال «شحاذة» ملكية أدمنها الفتح حتى راقته كما أدمن الخمر والرذيلة والدنية حتى استولت عليه. وهذه السمة سمة التكسب بالأدب ارتبطت مع شخصيته بأسلوب يتسم بالصغار والتذلل «حتى هان قدره كل الهوان وابتذلت نفسه وساء ذكره» وتحامى الكثيرون الاسهاب في ترجمته وكان يخيف الناس بطول لسانه وقوة بيانه واشتهر بذم ذوي الأحساب والطعن بالأدباء وذوي الرتب...

ولقد أتيحت له أكثر من مرة الحياة المستقرة الكريمة وسمي لبعض المناصب ولكنه كان يسرح منها لتهاونه وإهماله وكثرة خمره ولا مبالاته. كأنه محكوم بقدر لا يمحى أو مدفوع على منحدر فلا المنحدر ينتهي ولا هو باذل أي جهد للتوقف قبل الهاوية الأخيرة.. وقد خدم الأمير اسحق بن يوسف بن تاشفين وكتب له كتاب قلائد العقيان، ثم لم يستطع البقاء ففارقه إلى حياة التشرد التي اعتاد وألف.

على أن كل الذي ذكرنا عن الفتح بن خاقان إنما كان الجانب الأسود

من صورته . الجانب الذي يبعد بينه وبين الناس لكن كان يقابل هذه الصورة على الجانب الآخر صورة أخرى له لا أبلغ ولا أروع هي التي جعلته شيئاً مذكوراً في دنيا الأدب والناس والأقلام . وهي الصورة الأدبية فثم إجماع على أنه لم يكن فقط كاتباً بارعاً فصيحاً بليغاً ولكن على أنه كان آية من آيات البلاغة في عصره وبمقاييس ذلك العصر .. ويجعلونه عديل ابن بسام وقسيمه ويصفونه بأنه أقدر من ابن بسام على البلاغة من غير تكلف وكلامه أكثر تعلقاً وتعشقاً بالأنفس . ولولا ما كان يؤخذ عليه من الخلاعة لكان أحد كبار الرجال في الدولة المرابطية لما تميز به من حسن السبك واختيار الكلمات ورصانتها مع جزالة في الأسلوب وبراعة في المنطق . وقال السيد البطليوسي عنه : « لقد استجد الله الكلام لكلامه وجعل النيرات طوع أقلامه فهو يهدي نجومها ويردي برجومها فالنثر من نثره والشعري من شعره والبلغاء له معترفون وبين يديه متصرفون . وليس يباريه مبار ولا يجاريه إلى الغاية مجار إلا وقف حسيراً » .

وهكذا كانت صورتا الفتح بن خاقان : الصورة الحياتية والصورة الأدبية تتناوبان الظهور للناس مرة في شكل أديب رائع ومرة في شكل شيطان قذر سليط . فكأنما كان ابن خاقان زهرة رائعة نابتة في مستنقع . إن خضراء الدمن تغريك خضرتها الغنية المخضلة وتحتها الدمنة العفنة . ولو أن حياة الفتح كانت من نوع كتابته وطريقتها لبلغ الشأو الذي ما بعده شأو ولو أن كتابته كانت بالعكس من نوع حياته ومستواها لكان من سقط الناس ومن الهمل المنكورين لكن الله شاء أن يهبه قلماً في القمة وحياة في القُمَّةُ .

وانتهى الفتح بن خاقان نهاية لا تليق أبداً بروعة بلاغته وإن كانت تليق بحياته وسلوكه ، فقد ذهب إلى مراكش يمدح أمراءها فوجد ذبيحاً بفندق « لبيب » من المدينة . وقد عبث قاتله أو قاتلوه بجثته . ولم يشعر أحد بمقتله إلا بعد

ثلاث ليال . وقيل إن نفراً من حاشية السلطان دبروا قتله لما آلمهم من نقده وقيل إن السلطان نفسه هو الذي دبر قتله بيد أحد غلمانه ... وضاع دمه بين الشائعات ومضى الفتح إلى ربه .

من يسمى : بطرس الأكبر

حتى مطالع القرن الثامن عشر كانت روسيا بلاد الضباب والثلوج. الغابات السوداء فيها تمتد بامتداد النظر وما وراء النظر. ومسالك الطين تغوص فيها القرى والسكان في الأردية الثقيلة المتواضعة يتنقلون وبخاصة في الشمال على الزحافات تجرها الكلاب. والعواصف تدوي كالأعاصير لكل صقع في ذلك السهل المترامي الذي تسيل به أنهار الفولغا والدنيبير والدفينا والذي تحسب ألا نهاية له. حتى موسكو كانت مدينة متواضعة. يفترس التخلف ما فيها ومن فيها. والسكان لحي طويلة ورائحة الفودكا تفاجئك في كل ركن يجتمع فيه الروس. في حدتها الجارحة يحسون الدفء الذي يحرمون منه عشرة أشهر في السنة !

وفي الربع الأول من القرن الثامن عشر وصل الملك إلى ملكها المعروف ببطرس الأكبر. نقول وصل الملك ولم يكن وصوله إليه بالأمر الهين. فقد كان لأبيه الكسيس من زوجته الأولى ثلاثة عشر طفلاً وجاء بطرس من زوجته الثانية. فما كاد يبلغ الرابعة من العمر حتى توفى والده... وكان طبيعياً أن ينشب الصراع الدموي بين هذا الحشد الكبير من الاخوة على العرش الذي تولاه فيودور فلما توفي سنة ١٦٨٢. نشب بين الاخوة الصراع والتآمر وسلسلة القتل. وفي إحدى المناسبات اضطر بطرس للهرب خوفاً على حياته. وأخيراً أجلس إيفان الخامس على العرش على أن يكون بطرس معه تحت وصاية أختهما صوفيا الكسييفنا.

غير أن بطرس لم يحكم بل قضى صباه شبه منفي في إحدى ضواحي موسكو يحيط به رفاق من أشد الفتيان خشونة. وبرزت خلال ذلك موهبته في القيادة. وأيقظ معلمان من معلميه في نفسه الاهتمام ببناء أسطول وإدخال النظم العصرية في الجيش... وتدبر بطرس لنفسه بضعة كتائب قصد بها القصر في موسكو فتمكن من إبعاد الوصية عن الحكم وجعل نفسه حاكم روسيا الأوحد. سنة ١٦٨٩ وخاصة بعد وفاة أخيه إيفان الخامس سنة ١٦٩٦...

كانت روسيا في عهده في منتهى التأخر تجر أذيال التخلف خلف أوروبا قروناً من الزمان في جميع مظاهر الحياة. الأمية تشمل ٩٩ بالمائة من سكانها. الجهل يعشش ويفرخ في قراها. مدنها قليلة والعبودية للأرض تشمل معظم السكان وعدد عبيد الأرض في ازدياد مع نقص في الحقوق المشروعة. لقد فات روسيا قطار عصر النهضة الأوروبية وعصر الإصلاح الديني فرجال الدين شبه أميين. والأدب معدوم وأما الرياضيات والعلوم فكانت طلاسم ينظر إليها نظرة احتقار... كانت تعيش العصور الوسطى في حين كانت أوروبا تعرف عصر نيوتن وباكون والازدهار الفلسفي!

جعل بطرس همه أن يدخل أوروبا إلى روسيا أو أن يدخل روسيا إلى أوروبا بأي ثمن. ولهذا غير اسمه وتنكر وخرج برحلة طويلة الأمد سنة ١٦٩٧ إلى أوروبا الغربية، وجهت سياسته كلها في سنوات حكمه القادمة. أخذ معه حوالي ٢٥٠ شخصاً اختارهم في ما سماه «السفارة الجليلة» وهكذا كان يدعوها. ودار باسم مستعار أنحاء أوروبا واستطاع أن يرى أشياء كثيرة لم يكن ليراها لو لم يغير اسمه.

في أثناء تلك الرحلة علم بمؤامرة حربية انقلابية تدبرها عليه أخته الوصية السابقة فقمع المؤامرة بأشد الوسائل وحشية وصرامة. ثم عاد إلى

رحلته يدرس طرق الصناعة الأوروبية الحديثة . وقد اشتغل عاملا عاديا كنجار مع شركة الهند الشرقية الهولندية واشتغل في أحواض بناء السفن الملكية البريطانية ودرس علم المدفعية في بروسيا وزار المصانع والمدارس والمتاحف وترسانات السفن، بل حضر أيضاً جلسة من جلسات مجلس العموم في بريطانيا . ملأ مذكراته وذاكرته بكل مايستطيع أن تستفيده روسيا من الصناعات والعلوم وتقنيات الإدارة والثقافة الغربية .

حين عاد سنة ١٦٩٨ كانت الخطة في رأسه مكتملة لمختلف الإصلاحات . وكان يحلم أكثر منها بوصول روسيا إلى بحر البلطيق الذي تسيطر عليه السويد في الشمال وإلى البحر الأسود الذي تسيطر عليه الدولة العثمانية في الجنوب . أما في الداخل فقد استقدم عدداً من الخبراء الغربيين إلى روسيا في الوقت الذي أرسل فيه عدة بعثات من الشباب للدراسة في الغرب لينفذ برنامجه الواسع .

كان بطرس ضخم الجثة قوي البنية لا يرحم نفسه في العمل ولا يرحم الآخرين . ورغم انغماسه في الملذات كان حركة متصلة يريد الوصول بسرعة إلى مجاراة أوروبا وبخاصة في مجال القوة العسكرية وقد جرب قواه في معركة في الجنوب مع العثمانيين واحتل بلدة آزوف (ثم خسرها فيما بعد) كما حارب السويد المتحالفة مع الدانمرك وهولندا وسكسونيا وهزمها في معركة بلتاوا الفاصلة سنة ١٧٠٩ وأطل على بحر البلطيق وبنى على شاطئه مدينة بطرسبورغ (التي نعرفها باسم لينينغراد) ونقل إليها عاصمته هاجراً موسكو ومن فيها .

وضع بطرس نظاماً للإدارة الحكومية . وجعل الضرائب عامة . وأنشأ طبقة أشراف جديدة من كبار الموظفين وقادة الجيش تاركاً الطبقة القديمة المهترئة . وبسط الحروف الأبجدية ووحد العملة وأسس عدداً من المستشفيات

ومدارس الطب . ومصالح إطفاء الحرائق التي كانت تلتهم بين آونة وأخرى الغابات والبيوت وشجع الصناعات الخاصة . ونهض بالتجارة مصلحاً الطرق لمسالكها وحرر المرأة من الاستعباد وأمر ببناء المنازل من الحجارة ، كما أمر الروس بارتداء الملابس الأوروبية . وأمر الأشراف بحلق ذقونهم الطويلة (ثم عاد عن هذا الأمر) ووضع الأديرة وممتلكاتها تحت إشراف الحكومة وألغى بطريركية موسكو وأقام مكانها مجمعاً (سنودس) مقدساً رأسه هو بنفسه لتكون الكنيسة تحت نفوذه المباشر وكبرت المدن في عهده وتوسعت الطبقة البورجوازية عدداً وأهمية .

وبنى بطرس أول أسطول روسي ونظم الجيش وفقاً للأساليب الغربية وجهز الفرق بالملابس الموحدة والمدافع والأسلحة النارية الحديثة . واستعمل الطرق الأوروبية في التدريب العسكري ... ومن أطرف الأمور أنه منع التدخين ومنع شرب القهوة وكان شربها في ذلك الوقت ما يزال مريباً ! وبالرغم من الأمية المتفشية فإنه لم يتردد في فتح مدارس علمانية . هاجراً مدارس الأديرة وأسس نظم التعليم وحسنها وصدرت أول جريدة في روسيا أيام حكمه ... وأخيراً اتخذ لقب امبراطور وتلقب بالقيصر وأعلن أن اختيار خلف على العرش يتوقف على إرادته وحده . واختار قبل وفاته سنة ١٧٢٥ زوجته الثانية كاترين وريثة العرش ...

ما كان ممكناً لهذه الإصلاحات جميعاً أن تمر دون ضجة ودون إثارة الناس رأوا فيه صورة الشيطان . والناس دوماً ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ وهكذا أثار بطرس العناصر المحافظة ورجال الدين وانضم ابنه ألكسي للمعارضين فقبض عليه وأمر بتعذيبه . وعذب ثم عذب حتى مات في السجن سنة ١٧١٨ ... على أن الطبقة الأرستقراطية التي أنشأها بنفسه اعتنقت أفكاره واتجهت إلى الغرب تحاول اللحاق به وكسب حضارته وعاداته تدريجياً . ونبغ فيها في القرن التالي أقطاب الأدب والفكر :

بوشكين تولستوي . دوستويفسكي شيكوف .... ودخلت روسيا العصر الحديث من بابه الأعرض ...

هل يستحق يا ترى بطرس لقب بطرس الأكبر ؟

ابن حنبل

نحن في أواخر أيام المأمون سنة ٢١٧ للهجرة . والمأمون الخليفة العباسي في الشام . قدمها من مصر ، حيث كان في جولته يهدئ فيها النفوس ويتفقد أحوال الناس هرباً من بغداد التي ما أحبها ولا أحبته والتي كان يسمع فيها إهانته وهو في قصره من المراكب العابرة على دجلة ... إنهم يتهمونه بقتل أخيه الأمين . في الفتنة التي قامت بينهما وما سامحه الناس في ذلك أبداً رغم محاولته التقرب من العلماء والناس . قالوا كانت له ٩٠٠ عجوز يتجسسن له في البيوت ويأتينه بالأخبار فألغى تكليفهن لأنه مل من كثرة الأخبار السيئة التي يحملنها إليه ...

على أن المؤرخين والعلماء لم يحفظوا هذا للمأمون وإنما حفظوا حبه للعلم والعلماء ورعايته لأهل الفقه والحديث والفلسفة واعتبروا عصره غرة في جبين العهد العباسي . أما في السياسة الداخلية فقد كان يدير في جبينه فكرة نقل الخلافة إلى آل علي . بل عين الإمام علي الرضا ولياً للعهد . وحين توفي ظل يفكر طويلاً في الأمر . وظل حتى يوم وفاته متردداً قبل أن يعهد بالخلافة لأخيه الأمي : المعتصم . على أنه قبل فترة من وفاته حسب أنه وجد الحل . لم لا يترك مذهب السنة والجماعة الذي سار عليه آباؤه ويترك التشيع الذي وجد أنه لا يرضي الفقهاء والعلماء ويتخذ مذهب الاعتزال ؟ إنه بذلك ـــ في رأيه ـــ يخطو بالفكر الإسلامي خطوة إلى الأمام بالجمع بين العقل والنقل والمعتزلة يقولون بالتوحيد والعدل ومنزلة الفاسق بين منزلتي الكفر والإيمان .

وينزلون العقل بالمنزلة الأولى فلم لا يكون هذا المذهب مذهب الجميع ؟
كتب من دمشق إلى عماله في الأمصار وقضاته أن يأخذوا الناس بهذا.
ولكن المسألة تحولت بسرعة إلى محنة. ومحنة عنيفة. ذلك أن تطبيق المذهب العقلي يقضي بأن الله قديم قدماً أزلياً وكل ما استجد بعده فهو من خلقه. ولما كان القرآن غير موجود قبل الوجود الإلهي وقد جاء وهو كلام الله بعد وجوده تعالى فهو إذن مخلوق ... والنتيجة أنه يجري عليه ما يجري على أي مخلوق من حياة وموت. وارتعدت فرائص العلماء والفقهاء والناس لهذه القضية وفجروها في وجه مذهب الاعتزال... وتبلورت كل القضية حول هذه النقطة التي رفضت عقيدة وعملاً ...

وتوفى المأمون في طرسوس، على جبهة الروم، بعد أن عهد إلى أخيه المعتصم بالحكم. ولم يكن المعتصم من الثقافة والفكر بمنزلة أخيه ويكاد لا يجيد كتابة اسمه فرأى أن ما قاله أخوه وطلب أخذ الناس فيه هو الحق ويجب عليه أن يتابع الطريق وهكذا ظهرت محنة خلق القرآن التي بقيت غول الفقهاء أو الناس قرابة سبع عشرة سنة ! وتظاهر الكثيرون رغبة أو رهبة بقبول هذا الرأي. وهرب الكثيرون. واختفى الكثيرون. وامتلأت السجون بالرافضين لا يطلقون حتى يقولوا بخلق القرآن !

قبضة صغيرة من العلماء ظلت على رأيها. قاومت الرأي الرسمي جهاراً وأخيراً بقي واحد تعلقت به العيون والأفئدة ترى ما يقول هو أحمد بن حنبل. وكان من المكانة والعلم والفقه بالمقام الذي لا يدانيه مقام. وأصر المعتصم على إجباره على ما يريد من خلق القرآن وأصر ابن حنبل على الرفض وجاء الجند أخيراً وساقوه إلى غيابة السجن !

في السجن جاؤوا يحاورونه قال : هاتوا لي دليلاً من القرآن أو من سنة رسول الله. وعجزوا فإنهم إنما يعتمدون فقط على المنطق العقلي. وطلب

المعتصم حمله إليه فحمل وجرب معه ألوان الترغيب والترهيب وجاء بعض القضاة والفقهاء يجادلونه فكان لا يزيد على أن يطلب الدليل من القرآن والسنة فيسقط في أيديهم: لا يملكون له جواباً. وأعادوه إلى السجن فقال لبعض السجناء: لا أخاف السجن فداري ليست أرحب منه ولا الموت فإني أشتهي الشهادة ولكني أخشى الضرب فقال السجين: لقد ضربت مئات الأسواط فاحتملتها في سبيل الدنيا وأنت تخاف أسواطاً في سبيل الله. إنما هما سوطان أو ثلاثة ثم لا تحس شيئاً بعد ذلك!

وأمر المعتصم بتعذيب ابن حنبل فمدوه وضربوه وكان قد هزل وضعف في السجن حتى لقد انخلعت كتفه من الضربة الأولى، وتفجر الدم من ظهره. ويقولون إن المعتصم جاء ومعه بعض الفقهاء من جماعته. وقال له: إنما هي كلمة واحدة فقلها وأنا أفك عنك العذاب والسجن. فما زاد على أن يقول: هاتوا آية أو حديثاً. فأمر المعتصم بمعاودة الضرب. وتقدم فقير يدعى بالمروزي فقال لابن حنبل، أما قال تعالى: ولا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة فقال ابن حنبل: انظر أمام باب السجن فإن ثم جموعاً معها الأقلام والدفاتر تريد أن تسجل على ما أقول. فهل أضللهم؟ أقتل نفسي ولا أضلل الناس!

وتركه المعتصم للعذاب. يتناوب عليه فيه الجند والسجانون حتى أشرف على الموت. وأبلغوا المعتصم ذلك فرفع عنه التعذيب ثم رفع عنه القيود وأطلقه يرجع إلى بيته. شريطة أن يسامح المعتصم ويسامح كل من ضربه أو حضر ضربه. وسامح ابن حنبل الجميع بعد أن بقي في السجن ثمانية وعشرين شهراً وأرادوا حين خرج أن يسقوه شيئاً وكان يسرد الصيام فأبى أن يفطر!...

وخاف ابن حنبل أن يعاود المعتصم سجنه. إنها إذن القاضية. لا سيما حين أمر المعتصم بنفيه من بغداد فاختفى طول أيام المعتصم التي دامت تسع سنوات، ثم أيام ابنه الواثق التي دامت ست سنوات ونيف إلى أن جاءت

خلافة المتوكل والذي مال إلى التسامح لا سيما حين سمع جدل جرى بين شيخ دمشقي وبين القائلين بخلق القرآن . قال يناظرهم :

ـــ هل خلق القرآن شيء علمه رسول الله أم جهله ؟

قالوا :

ـــ علمه !

قال :

ـــ أدعا إليه أم سكت عنه .

قالوا :

ـــ سكت عنه .

قال :

ـــ لماذا لم يسعكم ما وسع رسول الله !

وبهت الذي كفر وأمر المتوكل برفع المحنة عن الناس وتركهم يعتقدون ما يشاؤون ... وظهر ابن حنبل للناس . لقد انتصر . وعاش السنوات الأخيرة الست من عمره وله من إكبار الناس وتعظيمهم ما لم ينله ملك أو عظيم ...

على أن أثر الضرب كان باقياً على جسده وكتفه بقيت مخلوعة حتى مات !

كذلك كانت الرجال !

سيد التابعين

يلقبونه بسيد التابعين . وكان في العلم البحر لا ساحل له . وفي التقوى الشأو الذي لا يدرك وفي الفصاحة آية الآيات وفي الزهد القمة ما بعدها قمة ومع ذلك فهو ابن عبد مملوك من سبي ميسان في العراق . وكانت أمه كذلك من السبي . ولكن الله أدرى أين يضع سره . وأين يضع خيره .

إنه الحسن بن يسار البصري . مضى على وجوده في هذه الدنيا ألف وثلاثمائة سنة . أما أبوه فصار مولى لزيد بن ثابت أحد كبار الصحابة وأما أمه فصارت مولاة لأم المؤمنين أم سلمة زوجة الرسول . وهكذا عاش الحسن في وسط الصحابة ونشأ وتعلم حتى كان كما قال عمرو بن العلاء أفصح الناس هو والحجاج بن يوسف الثقفي .

كان سكن الحسن بن يسار في البصرة وإليها نسب . والبصرة فيما بين أواخر القرن الأول للهجرة ومطالع القرن الثاني تموج بالناس : فجيوش محاربة تتجمع للمرابطة على الحدود ، وتجار يتلقون المراكب بالبضائع أو يسوقونها بها وأبنية تمتد . وعلماء عند أساطين الجوامع يدرسون وطلاب علم يلتمسونه عند أواخر التابعين . ورجال يتذهبون للحج وآخرون يعبرون فبعض إلى اليمن وبعض إلى خراسان وضجيج أسواق وإقبال من الدنيا كأنما اجتمعت سرة الإسلام في هذا البلد .

في هذا الوسط الصاخب الحركي كان الحسن البصري جزيرة علم وزهد وتقوى ، يلجأ إليه الناس ويستكين أمامه في المسجد المتعبون فيسمعون

منه من الوعظ والقصص ما لا يسمعون من غيره. دخل المسجد مرة فقعد بجانب حلقة لبعض القصاص (وهم الوعاظ) فاستمع ثم استمع إلى لغو من الكلام وإسرائيليات تروى وادعاء للزهد ولا زهد فقال لصاحبه: والله هؤلاء إلا قوم ملوا العبادة وصعب عليهم العمل وقل ورعهم فوجدوا الكلام أهون عليهم!...

وكثر عليه المجادلون في الدين، وفي البصرة يومذاك خليط من المسلمين والزرادشتيين والصابئة والمانوية ومن كل عقيدة فكانت عدته في الجدل: المنطق. وكان من ذلك علم الكلام. وقال: لما جادلونا بالمنطق أوجدنا لهم علم الكلام... وكان هذا أول الطريق إلى ظهور مذهب الاعتزال فيما بعد!

وكان للحسن مذهبه في الزهد لا يهادن فيه. فهو من شيوخ الزهاد الأولين. وكانت حياته تنطبق على قوله. وقوله طباق حياته. لا يزاحم في رزق ولا يأخذ من أحد أجراً ولا يقبل هدية ولا يقارب أمير البصرة ليحظى عنده ولكن في حاجات الناس وفيما هو الصلاح للحاكم والمحكوم.

وكانت له في الوقت نفسه جوامع الكلم: شهد يوماً خصومة اثنين فقال لهما: يا ابن آدم إنما أنت أيام كلما ذهب يوم ذهب بعضك. وسئل عن الرجل الكامل فقال: هو من يملك نفسه عند الرغبة والرهبة ويمسكها عند الشهوة والغضب!

عاصر الحسن البصري ولاية الحجاج بن يوسف بعض المعاصرة وكانت له معه مواقف ومواقف وكان طبيعياً أن يصطدم الاستبداد الإداري برجل الزهد والخط المستقيم. ولم يكن في المشرق الإسلامي من يستطيع أن يصدع الحجاج بكلمة الحق إلا الحسن. فكان لسان الحسن أفعى تؤرق ليل الحجاج. يسمع عنه أنه نقده في كذا وخطأه في كذا وأنحى عليه باللائمة في واقعة واستنكر عمله في أخرى حتى امتلأ صدر الحجاج حقداً للحسن وطلبه ولكن الجند لم

يجدوه . اختبأ في دار علي بن جدعان سنتين فلما خف عنه الطلب ظهر وعاد إلى ديدنه في مهاجمة السياسة الغاشمة والظلم المستبد فعاد الحجاج يطلبه فاختفى في دار أبي محمد البزاز . وأخيراً أدركه الشرط لاشتداد الحجاج في طلبه فساقوه إليه ولم يكن الحجاج رأى وجهه . وأيقن الناس أنه قاتله لا محالة فسيفه أسرع من لسانه فلما أدخل عليه قال له :

ــ أنت الحسن بن يسار .

قال :

ــ نعم .

ــ أنت القائل عني ما قلت وما بلغني عنك .

قال الحسن : وما بلغك عني ؟

قال الحجاج : قولك : اتخذوا عباد الله خولاً وكتاب الله دغلا ومال الله دولاً يأخذونه من غضب الله وينفقون في سخط الله وللحساب عند البيدر .

قال الحسن :

ــ نعم !

قال الحجاج : وتكني عنا نحن بذلك ؟

قال : نعم !

وغضب الحجاج وقال ولم قلت ذلك ويلك !

قال : أخذ الله ميثاق الفقهاء في الأزمنة كلها ليتبيننه الناس ولا يكتمونه . والساكت عن الحق شيطان أخرس . وأضاف الحسن :

ــ كم بينك أيها الأمير وبين آدم من أب ؟ قال الحجاج كثير . فقال الحسن :

ــ أين هم الآن ؟ ...

فأطرق الحجاج ساعة يفكر ثم نادى : يا جارية . الغالية إلي بالغالية (أي الطيب) .

فخرجت بها فقال : ضمخوا رأس الشيخ ولحيته بالطيب . فلما فرغوا

قال :

ــ انصرف إلى أصحابك فنعم المؤدب أنت !

وانصرف الحسن ولكن ليعاود نقده المر للحجاج . وقد بلغه موته وهو مختف منه بالمسجد فسجد يشكر الله !

وأبرز من حكم العراق بعد ذلك عمر بن هبيرة وقد مر الحسن مرة أمام بابه فإذا هو بالقراء على الباب ينتظرون فقال : ما يجلسكم ها هنا؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء؟ أما والله ما مجالسهم بمجالس الأبرار . تفرقوا فرق الله بين أجسادكم وأرواحكم . قد شمرتم ثيابكم وجززتم شعوركم . فضحتم القراء فضحكم الله . أما والله لو زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم !

واستقدم الوالي عمر بن هبيرة الحسن البصري إليه ومعه ابن سيرين العالم المعروف والشعبي الفقيه الكبير وقال : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إلي في أشياء إن أطعته فيها أغضبت الله وإن عصيته لم آمن بطشه وغضبه . فهل ترون لي فرجاً . فتكلم الشعبي وابن سيرين كلاماً فيه مداراة وتلون الحسن ساكت فقال له الأمير : ما تقول أنت يا أبا سعيد فقال :

أقول يا عمر بن هبيرة : يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظٌ غليظ فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك . يا عمر بن هبيرة إن تتق الله يعصمك من يزيد وإن تطع يزيد لا يعصمك من الله . يا عمر بن هبيرة إن تكن مع الله يردعنك كيد يزيد وإن تكن مع يزيد في معاصيه ردك الله إليه ...

فبكى ابن هبيرة حتى اخضلت لحيته . وزاد في إكرام الحسن على صاحبيه ...

كم ترى في دنيا الناس من هم في مثل شمائل الحسن؟

السلطانة رضية

نحن في دلهي في الهند . وقبل ثمانية قرون ...

المدينة التي تقوم اليوم فيها القصور وتلتف الحدائق كالزمرد أو هي أكثر خضرة . وتتمرد الأبنية عرائس ابتكار وجمال . كانت في ذلك الوقت مجرد قرية ما تزال بقاياها قائمة إلى اليوم ، بفقرها وأوساخها وطرقاتها الطينية وروث البقر الذي يزينها والدكاكين العمياء من الظلمة في أنحائها بجانب دلهي العظيمة كبرى المدن في شمال الهند .

هذه القرية فتحها السلطان قطب الدين أيبك أحد مماليك الدولة الغورية سنة ٥٨٤ ، بعد سنة من فتح القدس بيد صلاح الدين ، وجددها وجعلها عاصمة له ولم يكن له وارث فلما مات ورث عبد له مملوك بدوره اسمه القتمش . جمع القضاة والمفتين والوجوه وكبار الدولة وأعلن أنه السلطان فلما لاحظ أن القاضي يريد الكلام أخرج من تحت مصلاه كتاباً طلب منه أن يقرأه على الناس فإذا فيه تحريره من الرق والعهد له بالحكم . فسكت الجميع . وسار التقمش في الرعية سيرة عدل وخير جمعت القلوب حوله . وكان الهنود يلبسون البياض فجعل للمظلوم منهم أن يلبس الملون من الثياب لينصفه من ظالمه . وجعل على بابه جرساً يقرعه من يتظلم في الليل . هذا إلى إدارة حكيمة ولم يرزق أن يكون أولاده مثله وعبثاً حاول إصلاحهم فخيبوا أمله إلا ابنته (رضية) فقد ورثت صفات أبيها في العدل والشجاعة والفكر الذكي فصرف همه إليها . وعلمها فنون القتال ووكل بها المعلمين والمربين يثقفون ويهذبون . وكان إذا غاب

ولاها الأمور مكانه دون إخوتها فتقوم بها خير القيام وقد تتقى من الخليفة العباسي المستنصر ثوب التشريف ولقب نصير أمير المؤمنين.

ومات القتمش فلم ترثه بالطبع ابنته رضية ولكن ابنه الأكبر ركن الدين فيروز شاه ولم يكن لفيروز شيء من لقبه ركن الدين فقد كان سفاكا ظلاما للناس سيىء التدبير والسمعة وبلغ من شراسته أنه قتل أخاه معز الدين لئلا يطمع في الحكم بدلاً منه. وخافه الناس لا يجرؤون على مناوأته رغم امتلاء قلوبهم حقداً عليه. وأخته رضية تسمع كل يوم خبراً من سيىء أخباره وتتألم حتى إذا طفح بها الكيل لبست الملون شعار المظلومين أيام أبيها ووقفت على سطح القصر تدعو الناس لنصرتها. وسرعان ما أجابتها الجموع فقادتهم ونازلت أخاها وقبضت عليه وحكمت بإعدامه جزاء قتل أخيه! وأعدمته بضربة سيف قدته نصفين!

وتولت الحكم سنة ٦٣٤.

كانت الملكة الحرة في اليمن قد سبقتها كأنثى إلى الملك. ولكن بمعونة الفاطميين وسوف تتبعها بعد حوالي ١٦ سنة شجر الدر في مصر ولكن بوصفها زعيمة المماليك المؤيدين لها. أما رضية فكانت أمة وحدها. حكمت بقوتها الخاصة وبقوة الجماهير التي أيدتها.

بويعت بالملك فاتخذت زي الرجال. لبست لباسهم وبرزت للناس وأعادت سيرة أبيها في العدل والشجاعة وساست الرعية خير سياسة وكان عهدها على قصره من خير العهود في تاريخ الهند. ومع ذلك فقد أخذ الهمس يسري بين الناس: امرأة للملك؟ أما في الناس رجل؟ واستحال الهمس حديثاً ثم صار استياء ثم مؤامرة. كان وراء ذلك كله أخوها الأصغر نصر الدين بهرام مع الوزير نظام الملك وكبار القادة في الجيش. واستفاقت ذات صباح فإذا بقصرها مطوق بالمتآمرين. فلم تستسلم وبعثت إلى أنصارها لكن حاكم أود

الذي هب يدافع عنها هزم أمام المتآمرين وأسر فمات قهراً. وبقيت السلطانة وحيدة فلجأت إلى دهائها وحيلتها. وأغرت بعض الأمراء وأثارت العداوة بين بعضهم الآخر وسحقت بمن معها من الجند بعضهم فإذا بالمتآمرين يذهبون بدداً وتبقى رضية سلطانة دلهي.

على أن الأمر لم يدم لها سوى أربع سنوات وأتيت مرة أخرى من كونها امرأة. ونثر الحاقدون من حولها وأخوها على رأسهم الشائعات والاتهامات! والشائعة كالبالون تضخم على انتقال الأنفاس. وبين لسان وآخر يزداد عليها الفلفل والبهار والمذاق المر. وكان لرضية عبد حبشي اسمه ياقوت تأنس به وتثق بإخلاصه فاعتمدت عليه في مهماتها ومهدت له السبيل كي يكون نجم القصر عندها. وجعلته أمير الأمراء. ولم يجد الناقمون في سيرتها ما يدينون سوى هذا العبد فأطلقوا ألسنتهم فيها وفيه. زعموا أنها إذا أرادت الركوب حملها حتى يضعها على ظهر الفرس وما كانت بحاجة إلى ذلك وهي منذ عهد أبيها فارسة مقاتلة، ولكن الناس يرضيهم سوء الظن ويرون فيه حكاً على جراحهم ورضى عن أنفسهم. وتراكضت الأخبار إلى أمراء الأقاليم فثاروا عليها. وكان أول الثائرين حاكم بتهندا. وسير إليها جيشه فأسرعت إليه بجندها وهي واثقة من النصر ولكن هذا الجند نفسه كان قد امتلأ شائعات وتعبأ ضدها. نسى عقلها وشجاعتها وحسن سياستها وحزمها وما يعرفه عنها من الجد والصرامة ولم تكن أمامه سوى امرأة مهتوكة الشعر! فما كادت رايات الثائر تلوح في الأفق حتى التفتت السلطانة فإذا جيشها قد ذاب. تسلل كله إلى جانب الثائر.

وطوقت السلطانة وسيقت أسيرة إلى دلهي، حيث اجتمع الأمراء فأعلنوا خلعها عن العرش وتنصيب أخيها نصر الدين بهرام شاه بدلاً عنها! هل انتهت قصتها؟ لعلها بدأت...

فإن حاكم بتهندا الثائر خطب رضية لنفسه وتزوجته ولعلها كانت مرغمة على الزواج منه لكن سولت لها نفسها أمراً. سارت معه إلى بتهندا وهناك

ما زالت به إغواء ومداهنة حتى استكان لها. وأسلس لها قياده فصار لها الأمر والنهي وأغرته بأن يسير إلى دلهي فيكون سلطان المملكة لا مجرد أمير تابع له. وراقته الفكرة وجمع جنده وسار وسارت معه إلى دلهي. لكن الجيش ما كاد يعرف بوجودها على رأسه حتى تخلى عنه وعنها. ولم تجد من سبيل سوى الهرب...

وهربت، لكنها رغم حسن تدبيرها، نسيت أنها بلا زاد ولا مأوى ولا تدري أين تهرب وأيان ينتهي بها المطاف. وأتعبها السير وأنهكها الجوع فلجأت إلى بعض الحراثين تسأله ما يسد رمقها فلم تجد عنده سوى كسرة خبز. أكلتها ونامت من التعب في مكانها...

وجاء الفلاح فوجد عجباً. وجد أنها امرأة في ثياب القواد العسكريين. لم يخطر بباله أنها سلطانة أو شخصية هامة. كل ما خطر له أن يقتلها ويبيع ثيابها الغالية. ورضخ رأسها بحجر فلفظت نفسها الأخير وسلب ثيابها ودفنها حيث قتلت. وذهب إلى السوق يبيع الثياب وشك الناس في الثياب والرجل وأخذوه إلى الحاكم فاعترف بالقضية كلها.

وأخرجت جثة السلطانة لتدفن في قبر يليق بالسلاطين. كان ذلك سنة ٦٣٧.

وبعد سنتين قتل أخوها الذي تآمر عليها... أما هي فقد كسبت عطف الناس بموتها الفاجع ولم تمض سنوات حتى صار قبرها مزاراً يتبرك الناس به!

لم تكن رضية في الحياة وصارت رضية بعد الموت!

إيزابيل والتعصب الأعمى

حين يتحدث المتحدثون عن انهيار الأندلس وعن مأساة غرناطة وسقوطها ثم عن من سماهم الاسبان بالموريسكيين وعن فواجعهم وعن ديوان التحقيق أو التفتيش وأقبيته وآلات التعذيب فيه وما سمعت تلك الأقبية من الصراخ والعويل والآلام ... حين يعددون المآسي وفظائع الحقد الإنساني ينسون أنه كان وراء هذا كله تلك السيدة الرقيقة الجسم المتطاولة الوجه التي تسمى الملكة إيزابيلا الأولى ملكة قشتالة !

يذكرون لها أنها تبنت رحلة كريستوف كولومب عبر المحيط الأطلسي وأنها كانت زوجة قديرة بجانب زوجها فرديناند ملك الآراغون ولكن لا يذكرون أن أساس القرارات والقوانين المدمرة للمجتمع الإسلامي في اسبانيا ، إنما كانت هي صاحبتها والدافعة لها . كانت كاثوليكية متعصبة وهذا يعني ـــ من وجهة نظرها ـــ أن كل فكر آخر كفر وهرطقة ويجب أن يزول بالقتل !

ولدت هذه الفتاة سنة ١٤٥١ في بلدة مادريغال بقشتالة الاسبانية ونالت قسطاً حسناً من التعليم الديني الصارم الذي جعلها لا تفهم شيئاً سوى الكاثوليكية . وكل ما عداها كان من صنع الشيطان . ما أدركت يوماً أن عدم التسامح هو أيضاً من صنع الشيطان !

كانت وريثة عرش قشتالة . أكبر ممالك اسبانيا المقسمة بين أربعة ملوك هي عدا قشتالة : غرناطة المسلمة في أقصى الجنوب ومملكة نافار في الشمال ومملكة آراغون في أقصى الشمال الشرقي . وكانت أغنى وريثة في أوروبا . ومن هنا

جاء كبرياؤها واعتدادها برأيها وجاء رفضها لعدة أمراء تقدموا لخطبتها. وكان على عرش قشتالة أخوها لأمها الملك هنري الرابع وكان يرغب في تزويجها من ملك البرتغال ولكنها رفضت فغضب منها وسمى ابنته خوانا وريثة لعرش قشتالة بدلاً من هذه الأميرة المتمردة التي اختارت ولي عهد الآراغون وتزوجت منه!

وما كاد هنري الرابع يقضي حتى طالبت إيزابيلا بعرشه. وعارضتها مؤيدو خوانا. ووقفوا في وجهها. ونشبت حرب أهلية بين الوريثتين دامت حوالي خمس سنوات وانتهت بانتصار إيزابيلا سنة ١٤٧٩. وفي تلك السنة نفسها توفى ملك الآراغون فأصبح فرديناند، زوج إيزابيلا ملك الآراغون واتحدت المملكتان في مملكة واحدة! مما جعل أطماع إيزابيلا تتسع وتحلم دون انقطاع بالاستيلاء على مملكة غرناطة. كان الشعار الذي تسير عليه يتلخص بثلاث كلمات: يجب ألا يبقى على الأرض الاسبانية مسلم! ولم يكن فرديناند الزوج يحمل مثل حماسها وكرهها الأسود لغير الكاثوليك ولكنه كان أضعف منها في المال وفي سعة الأرض والجيش فكانت تعليماتها هي العليا...

وهكذا طوقت أرض غرناطة تأكلها بلداً بعد بلد. وحاربت أبا عبد الله الصغير، ثم أطلقت سراحه ليناوئ الأمير الذي حكم غرناطة، ثم تقدمت بالجيش حتى مشارف المدينة... حتى أخذتها وأخرجت منها أبا عبد الله الصغير إلى بعض المدن الأندلسية ثم أمرت بتسهيل سفره إلى المغرب. وصارت معظم الأرض الاسبانية لها ولزوجها.

وضرب الحظ ضربته الكبرى مع هذه الملكة الشديدة التعصب فإن كريستوف كولومب الذي جاءها على حدود غرناطة يرجو معونتها للإبحار غرباً عبر بحر الظلمات إلى الهند عاد ومعه بعض الهنود الحمر وبعض الثروات وكثير جداً من الأخبار والآمال وبدأ تدفق الذهب الأمريكي إلى اسبانيا... فلم يعد لطموح هذه السيدة حدود. حسبت أن انتصارها على غرناطة بعد النصر على

قريبتها خوانا وأن كشف أمريكا إنما هي هبات سماوية لروحها المتعصبة ورضى إلهي . وكانت منذ أوائل حكمها قد أصدرت مع زوجها أمراً بتأسيس دواوين للتحقيق في عقائد الناس (وهي ماعرفت بمحاكم التفتيش) فحركت هذه الدواوين للعمل. وكان للمحاكم التي نشأت عنها سلطات مطلقة هي سلطة الشرطة والادعاء العام وسلطة المحلفين وسلطة القضاة في وقت واحد وأحكامها مبرمة نهائية ولم يكن أمام المتهم فيها فرصة للدفاع عن نفسه أو دحض الادعاءات الموجهة ضده بل لم يكن القضاة يعرفون أسماء الذين يتهمونهم .

وكان المتهمون يعرضون للتعذيب الشديد، في أقبية تفزع القلوب مناظر آلاتها الرهيبة إلى أن يعترفوا بما يراد لهم أن يعترفوا به ويقدر عدد المسلمين الذين حكمت عليهم هذه المحاكم بالحرق والموت في السنوات العشرين الأولى بعد سقوط غرناطة بحوالي عشرين ألفاً ...

وباركت البابوية عمل إيزابيلا وفرديناند ودخل على الخط البابا اسكندر السادس وكان في السابق أسقفاً في مدينة بلنسية وهو معروف بأنه أكثر بابوات العصر الوسيط انحطاطاً وفسوقاً وقد وضع الخطة الإيزابيلية على شكل متقدم وعلى أساس انتزاع الدين الإسلامي من الموريسكيين بدءاً من الأطفال وانتزاع الأرض وتحريم الكتب العربية ومنع تملك المسلمين وانتزاع اللغة فهم ممنوعون من الحديث بالعربية وانتزاع السلاح فمن وجدت لديه سكينة فجزاؤه الحرق! وانتزاع جميع العادات والتقاليد المميزة للمسلمين كالاستحمام أو الملابس والغطاء أو الذبائح . وصدرت الأوامر بفصل الصغار عن آبائهم لتقوم الكنيسة بتربيتهم . وكان المنفذ لكل هذا ممثل البابا الكاردينال خيمنز دي سيسنروس ! رأس الكنيسة في اسبانيا وقسيس الاعتراف للملكة إيزابيل .

وقد توفيت هذه الملكة سنة ١٥٠٤ وهي توصي «بمتابعة الحرب ضد أعداء الإيمان المسيحي» وكان القصد من محاكم التفتيش هو هذا : القضاء على المسلمين الموجودين في اسبانيا وعلى اليهود والقضاء أيضاً على معارضة الأمراء

الإقطاعيين المعارضين لحكم الملوك. على أن اليهود تلونوا بسرعة وهربوا من البلاد والأمراء ذوي الإقطاع أحنوا رؤوسهم مرغمين أما أقسى الضربات وأعنفها فكانت لأكثر من أربعة ملايين مسلم كانوا في اسبانيا فلم يبق منهم بعد مائة وخمسين سنة أحد.

وعلى الرغم من موتها فقد تابع من جاء بعدها سياستها المقيتة. ومن الذي جاء بعدها؟ ابنة معتوهة سكنت الدير لا تخرج منه وتصدر المراسيم باسمها.

مرسوم بمنع الملابس الإسلامية، مرسوم بمنع الذبائح الإسلامية ثالث ببيع العقارات غير المنقولة. رابع بمنع الكتب العربية. خامس بمنع اقتناء الأسلحة على الموريسكيين. سادس بتحريم الأرث على المسلمين. سابع بمصادرة أملاك الهاربين منهم. ثامن بمعاقبة من يمارس الشعائر الإسلامية. تاسع بمنع الزواج الإسلامي. عاشر بمنع تنقل الموريسكيين من منطقة لأخرى. حادي عشر بمنع الحمامات. ثاني عشر فرض التنصير...

وأخيراً صدر مرسوم بتهجير الموريسكيين المسلمين جميعاً... وأخرجوا من ديارهم.

هل استراحت بذلك عظام إيزابيل في قبرها؟

أغلب الظن أنها لو عادت إلى الحياة لما رضيت إلا بقتلهم! أعرفتم من هي إيزابيل الآن؟

عبد المؤمن الكومي

في المغرب الأقصى، وفي موضع ناءٍ في البرية، كان صانع يعمل في الطين ويصنع منه الآنية للبيع. كان عاقلاً وقوراً وبالقرب منه ينام ابنه عبد المؤمن. تجاه أبيه، وأبوه مشتغل بعمله في الطين والأباريق. يقولون فسمع أبوه دوياً من السماء فرفع رأسه فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار فنزلت كلها مجتمعة على ابنه عبد المؤمن وهو نائم فغطته ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها. فرأته أمه على تلك الحال فصاحت خوفاً على ولدها. جدير به أن يموت من سم هذا النحل الكثيف. أسكتها الأب وهي تقول أخاف عليه فقال الأب إني لأعجب مما يدل عليه ذلك. ثم إنه غسل يديه ولبس ثيابه ووقف ينتظر ما يكون من أمر النحل فطار عنه بأجمعه. فاستيقظ الصبي وما به من ألم وتفقدت أمه جسمه فلم تر به أثراً ولا شكا إليها ألماً وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر فأخبره الأب بما رأى فقال الزاجر: يوشك أن يكون له شأن. يجتمع على طاعته أهل المغرب وهكذا كان...

الفتى هو عبد المؤمن القيسي الكوعي ويلقب بأبي محمد. وكان والده وسطاً في قومه. وهذه القصة قد تكون أسطورة وقد تكون أسطورة أخرى من مثلها قضية ظفر ابن تومرت الفقيه المغربي بكتاب «الجفر» وفيه ما يكون على يده وقصة عبد المؤمن وحليته واسمه وأن ابن تومرت أقام مدة يتطلبه حتى وجده وصحبه وهو إذ ذاك غلام وكان يكرمه ويقدمه على أصحابه وأفضى إليه بسره وانتهى إلى مراكش وصاحبها يومئذٍ أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين

المرابطي ملك الملثمين وجرى له معه فصول وفصول فأخرجه من البلد فتوجه إلى الجبال وحشد واستمال قبيلة المصامدة ، لكنه لم يملك شيئاً من البلاد . عبد المؤمن ملك بعد وفاته بالجيوش التي جهزها ابن تومرت وبالترتيب الذي رتبه . وارتفع بذلك علم الموحدين ! وكان يقول لأصحابه هذا غلاب الدول ... ولئن لم يستخلفه من بعده فقد راعى أصحابه في تقديم إشارة ابن تومرت فتم له الأمر كله . وصار هذا الفتى من قبيلة كومة الصغيرة النازلة على طرف البحر من تلمسان سيد المغرب .

لم يكن اسم ابن تومرت لدى أصحابه كذلك ولكنه تسمى بمحمد بن عبد الله تومرت تيمناً برسول الله وجده اسم وجليد . وقد أعلن حركة التوحيد أو الموحدين للتأكيد على وحدانية الله . وكانت حركة احتجاج فكرية ضد المذهب المالكي السائد والذي يتسم بالتشدد . كما كانت تمثل حركة رفض ضد لين الحياة وارتخائها في عهد المرابطين الأواخر . وقد درس ابن تومرت وهو من أهل السوس في المشرق على الإمام الغزالي الذي كان المرابطون قد أحرقوا كتابه المعروف إحياء علوم الدين ورجع سنة ٥١٥ / ١٠٢١ فعبر المغرب كله بأفكار إصلاحية أخلاقية تدعو للزهد والتقشف وقوة الإيمان وترفض التشبيه والتجسيم السائدين والتعصب المنصوص وتروج للمذهب الأشعري .

وقد والاه زعماء قبائل المصامدة البربر في أقصى المغرب ووضع نفسه على رأس حركة شعبية تدعو للتوحيد ولقب نفسه بالمهدي ، لكنه توفي وشيكاً سنة ٥٢٤ فتولى تلميذه ومساعده عبد المؤمن الحركة . وكان شاباً غني النشاط لقب نفسه باسم خليفة ابن تومرت وبدأ سلسلة أسرة الموحدين .

توسع الموحدون تدريجياً في المغرب . قواهم الصدامية كانت قوية في المغرب ومنذ سنة ٥٤٧ بدأوا الاصطدام مع قوى المرابطين ما بين سنتي ٥٢١ ــ ٥٢٤ وهزموا في هذه السنة هزيمة منكرة توفي من بعدها ابن تومرت قهراً وكتم أصحابه وفاته ثلاث سنوات ، ثم بايعوا عبد المؤمن الذي دحر

المرابطين بين سنتي ٥٣٣ ــ ٥٣٨ فاستولى في عامين اثنين على وهران وتلمسان وفاس وسبتة مطلاً على بحر المجاز وسلا على المحيط الأطلسي.

ثم دخل الموحدون مراكش واتخذوها عاصمة لهم سنة ٥٤٠. أما في اسبانيا فقد كان هناك فراغ سياسي وفراغ قوة بعد أن اضمحل سلطان المرابطين وقامت عليه الثورات بكل مكان وحاولت بعض المجموعات المحلية الصغيرة مثل ملوك الطوائف في القرن الاسبق أن تظهر من جديد وتملأ الفراغ (مثال ذلك بلنسية وقرطبة ومرسية) لكن هذا الفراغ كان أوسع من قواها. فأرسل عبد المؤمن جيش الموحدين إلى اسبانيا فوراً سنة ٥٤٠ فقام باحتلال جميع المناطق المسلمة فيها وهكذا عادت دولة المرابطين للوجود ولكن في مملكة الموحدين قوية واسعة. واتخذت من إشبيلية عاصمة لها في الأندلس، ثم احتلت بسرعة واضحة أفريقية كافة فأخذت جزائر بني حماد سنة ٥٤٧ ثم طردت النورمانديين المحتلين لتونس سنة ٥٥٣، ثم أدخلت طرابلس في حوزتها. وعند ذلك اتخذ عبد المؤمن لنفسه لقب أمير المسلمين (أو المؤمنين) وقد سعى صلاح الدين الأيوبي ــ وكان معاصراً له ــ إلى عقد حلف مع هذه الدولة وطلب منها المساعدة البحرية ضد الفرنجة في المشرق لكن بنية الدولة كانت تعكس الطبيعة الفردية المخلصة لتعاليم ابن تومرت وتقوم على التسلسل الهرمي الدقيق لمجموعة مستشاري الخليفة والمقربين إليه. كما كان بلاط الخليفة مركزاً رائعاً من مراكز الثقافة والعلم وبخاصة الفلسفة الإسلامية التي ارتبطت بالفيلسوفين المعروفين ابن طفيل وابن رشد اللذين عملا مع سلاطين الموحدين.

ولم يعمر عبد المؤمن طويلاً ليرى معارك أخلافه مع الاسبان في الأندلس وبخاصة معركة الأرك سنة ٥٩١ التي سحق فيها الجيش الاسباني فقد مات سنة ٥٥٨، ثم مات ابنه يعقوب يوسف. وكان قائد معركة الأرك هو أبو يوسف يعقوب المنصور.

وحين انتهت أيام عبد المؤمن وأحس قرب الموت خرج من مراكش إلى سلا . فأصابه هناك مرض شديد لم تنفع فيه مساعي الأطباء .

وإذا المنيـــة أنشبت أظفارهـــــا   ألفيت كل تميمـــة لا تنفـــع !

وقد توفي أواخر جمادى الآخرة سنة ٧٥٨ وقيل إنه حمل إلى تنمل ودفن هناك . بعد أن قاد الحركة الموحدية ثلاثاً وثلاثين سنة وأشهر . تولاها وهو شاب أسود الشعر وتركها شيخاً نقي البياض .

وكما أن الوردة تخلف شوكة فقد عهد إلى ولده أبي عبد الله محمد فاضطرب أمره وأجمعوا على خلعه سنة تولى وبويع أخوه أبو يوسف بدلاً منه .

ويتساءل المتسائل عن مؤسسي الدول : هل هم في حاجة إلى سفك كل تلك الدماء ليؤسسوا دولهم ؟ ويتساءل الإنسان بالمقابل : هل كان من الممكن تأسيس دولة جديدة دون دماء ؟

سؤالان يخترقان التاريخ كله . أيهما الصحيح يا ترى ؟

ابن أبي دؤاد

هو أشهر قضاة المعتزلة لا لأنه وضع أمراً جديداً في الاعتزال والمعتزلين أو أضاف شيئاً إلى نظامهم الفكري ولكن لأنه اعتبر رأس المحنة التي نزلت بابن حنبل ولأنه قاد الحركة التي ألزمت الناس والعلماء التزاماً للقول بخلق القرآن. فالشد والجذب من حوله شديدان بعض يجعله في أعلى عليين وبعض ينزله أسفل سافلين! ولكن ما من أحد ينكر أنه كان الشخصية الأولى في الدولة زمن المعتصم بخاصة وابنه الواثق. ولا يختلف الناس إلا حول عظام الناس.

يذكرون أن أصله شامي من قرية بقنسرين قرب حلب. وأبحر أبوه إلى العراق وأخرجه معه وهو حدث فنشأ أحمد في طلب العلم وخاصة الفقه والكلام حتى بلغ ما بلغ. وكان من أصحاب واصل بن عطاء من البصرة فصار إلى الاعتزال. وما كان أفصح ولا أنطق منه وكان إلى هذا شاعراً مجيداً، وقاضياً مهيب السلطان، أمسك يد الخليفة عن البطش مرات ومرات.

برز ابن أبي دواد منذ عهد المأمون دخل عليه مصادفة مع بعض الداخلين فانتبه المأمون لذكائه وعلمه وفتح له بابه. روى بعضهم قال: كنا عند المأمون فذكروا من بايع من الأنصار ليلة العقبة فاختلفوا في ذلك ودخل ابن أبي دواد فعدهم واحداً واحداً بأسمائهم وكناهم وأنسابهم فقال المأمون: إذا استجلس الناس فاضلاً فمثل أحمد. فقال أحمد بل إذا جالس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين الذي يفهم عنه ويكون أعلم بما يقوله منه!

على أن ابن أبي دواد أخذ مكانته الكبرى أيام المعتصم الذي جعله قاضي القضاة ولم يكن في الناس أجرأ على المعتصم أو على البدء بمكانته في كل أمر منه . وله معه قصص كثير .

من ذلك أن الأفشين ، قائد المعتصم ، كان يحسد أبا دلف العجلي على عروبته وشجاعته فاحتال حتى أشهد عليه بجناية قتل فأخذه ببعض أسبابها . فجلس له وأحضره وأحضر السياف لقتله . وبلغ ابن أبي دواد الخبر . فركب في وقته مع من حضر من عدوله . فدخل على الأفشين وقد جيء بأبي دلف ليقتل . فوقف ثم قال : إني رسول أمير المؤمنين إليك وهو يأمرك أن لا تحدث بأبي دلف حدثاً حتى تسلمه إليه . ثم التفت إلى العدول وقال : اشهدوا أني أديت الرسالة إليه عن أمير المؤمنين وأبو دلف حي معافى . فقالوا قد شهدنا . وخرج فلم يقدر الأفشين عليه . وصار ابن أبي دواد إلى المعتصم من وقته وقال يا أمير المؤمنين قد أديت عنك رسالة لم تقلها لي وما أعتد بفعل خير خيراً منها . وإني لأرجو لك الجنة بها . ثم أخبره الخبر فصوب رأيه ووجه من أحضر أبا دلف فأطلقه ووهب له . وعنف الأفشين فيما عزم عليه .

وذات يوم اشتد غضب المعتصم من محمد بن الجهم البرمكي فأمر بضرب عنقه فلما رأى ابن أبي دواد ذلك وأنه لا حيلة له فيه وقد شد رأسه وأقيم في النطع وهزّ له السيف فقال ابن أبي دواد للمعتصم : وكيف تأخذ ماله إذا قتلته قال : ومن يحول بيني وبينه قال : يأبى الله تعالى ذلك . ويأباه رسوله ﷺ ويأباه عدل أمير المؤمنين فإن المال للوارث إذا قتلته حتى تقع البينة على ما فعله . وأمره باستخراج ما اختلسه وهو حي أقرب إليك . فقال : احبسوه حتى يناظر فتأخر أمره على مال حمله . وخلص من القتل .

وغضب المعتصم على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني . وكان أحد ولاته فاستقدمه إليه لعجز لحقه في مال طلب منه ولأسباب أخرى . فجلس المعتصم

لعقوبته . وكان خالد قد طرح نفسه على أحمد ابن أبي دواد فتكلم فيه فلم يجبه المعتصم . فلما جلس للعقوبة حضر أحمد فجلس دون مجلسه المعتاد . فقال له المعتصم يا أبا عبد الله جلست في غير مجلسك فقال : ما ينبغي أن أجلس إلا دون مجلسي هذا فقال له : وكيف ؟ قال لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعي عندك موضع من يشفع في رجل فيشفع قال : فارجع إلى مجلسك قال : مشفعاً أو غير مشفع ؟ قال المعتصم بل مشفعاً فارتفع إلى مجلسه ثم قال : إن الناس لا يعلمون رضى أمير المؤمنين عن خالد إن لم يخلع عليه فأمر بالخلع عليه فقال : يا أمير المؤمنين قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر لا بد أن يقبضوها ، وإن أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلة قال قد أمرت بها . فخرج خالد وعليه الخلع والمال بين يديه والناس في الطرق ينتظرون الإيقاع به . فصاح به رجل الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب فقال له : اسكت سيد العرب والله أحمد بن أبي دواد .

وذكر العارفون بابن أبي دواد أنه كان روحاً كله من رأسه إلى قدمه وقالوا : ما رأينا أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبي دواد . وكان يُسأل الشيء اليسير فيمتنع منه ثم يدخل ابن أبي دواد فيكلمه في أهله وفي أهل الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب فيجيبه إلى كل ما يريد . ولقد كلمه مرة في ألف ألف درهم ليحفر بها نهراً في أقاصي خراسان فقال له : وما على من هذا النهر ؟ فقال له يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعيتك كما يسألك عن النظر في أمر أدناها ولم يزل يرفق به حتى أطلقها .

والواقع ـــ كما قال الحسين بن الضحاك الشاعر ـــ أن ابن أبي دواد كان عند الأدباء لا يحسن اللغة وعند المتكلمين لا يحسن الكلام وعند الفقهاء لا يحسن الفقه وهو عند المعتصم يعرف هذا كله . ذلك أن المعتصم كان أمياً

لا يكاد يجيد كتابة اسمه وقد أوصاه أخوه المأمون على فراش موت قال : «لا يفارقك بن أبي دواد الشركة في المشورة في كل أمرك . فإنه موضع ذلك ولا تتخذن بعدي وزيرا ... » .

وكان المعتصم يحترم المأمون ما فوق الاحترام فجعل ابن أبي دواد قاضي القضاة وعزل يحيى بن أكثم وخص به أحمد حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهراً إلا برأيه . ولم يكن المعتصم يفهم قصة خلق القرآن الفكرية ولا يهتم بها . وإنما كانت حدتها في عهده نتيجة انقياده لرأي ابن أبي دواد . وإنما سجن ابن حنبل وعذب برأيه أيضاً ...

ولما توفى المعتصم وشيكاً بعد تسع سنوات من الخلافة وجاء ابنه الواثق لم تتغير حال ابن أبي دواد . لكن الواثق استوزر محمد بن عبد الملك الزيات وأمر ألا يراه أحد من الناس إلا وقف له . وكبر الأمر على ابن أبي دواد وحار ماذا يفعل ؟ ثم فتقت له الحيلة . فكان إذا رأى ابن الزيات مقبلاً قام واستقبل القبلة يصلي ... وكانت بينه وبين ابن الزيات منافسات وشحناء وإحن لا تنتهي . حتى قبض على ابن الزيات ووضع في الفرن الذي أعده لأعدائه والمملوء بالمسامير ... فمات .

لم تمض على ذلك سوى أربعين أو خمسين يوماً حتى فلج ابن أبي دواد في مطلع خلافة المتوكل وذهب شقه الأيمن . فتقلد القضاء ابنه ... ثم لم تمض خمس سنوات حتى غضب المتوكل من الأب وابنه وصادر أملاكهما وصرف الابن عن القضاء وأخذ من الولد ١٢٠ ألف دينار وجواهر بأربعين ألفاً ونفاه من سر من رأى العاصمة إلى بغداد ... وهناك مات ابن أبي دواد بعد سنوات أربع . وتوفى ابنه قبله بعشرين يوماً ...

بعضهم يرى في فالجه وفقد ابنه عقوبة إلهية ... أليس الله هو الحكم وهو الديان الأعظم !

تشارلز ديكنز والفقر !

كل الذين مروا بالدراسة الثانوية يعرفون هذا الاسم . ويعرفون أنه كتب « قصة مدينتين » . طائعين أو مرغمين يعرفون هذا ويعرفون أنه من كتاب إنكلترا الكبار المعدودين فهل عرفوا كفاح هذا الكاتب مع الفقر ! مع أيام الجوع والعين التي تشتهي الرغيف ؟ أغلب الظن أن شهرة الرجل في أواخر حياته تغطي على أيامه الأولى وتحجبها ... والفقر ليس عيباً ولكن الرضى به هو العيب . وديكنز خلق دون إرادته في كوخ متواضع ، بعضه من التنك ، في قرية بضواحي بورتسموث جنوب إنكلترا سنة ١٨١٢ . خلق فقيراً ولا ذنب له في فقر أهله . وكان أبوه مجرد كاتب في البحرية نقل مع عائلته ولم يكن تشارلز يبلغ العام إلى لندن . ثم لم يلبث أن نقل مرة أخرى إلى ميناء تشاتم ونزل بها في كوخ حقير فيما كانت الأسرة تزداد عدداً ودخلها المحدود يذهب بدداً بين أب مسرف متأنق يحب اللهو وأم ساذجة لا تحسن التدبير !

بقي تشارلز أمياً حتى التاسعة من العمر فأسرته لا تملك نفقة إرساله إلى المدرسة . ولم يكن يكفيه أن يصحبه أبوه في جولاته الريفية ويروي له القصص والحكايا أو يمثل أمامه الأدوار الهزلية واتفق أن قبل عميد القسس في القرية أن يقبله في مدرسته فقضى فيها سنتين . والغريب أنه عرف بوجود بعض الصحف القديمة على سطح المدرسة فالتهمها قراءة وخيالاً ...

لكن الأسرة نقلت مع عميدها مرة أخرى إلى لندن وكان قد أرهقته الديون فلاحقه الدائنون واستطاعوا الاستيلاء على مرتبه الشهري لسداد

ديونهم . وحاولت الأم فتح مدرسة للفتيات في الغرفتين اللتين نزلوا فيها ففشلت الفشل الذريع . وعاد تشارلز الذي قام بتوزيع إعلانات المدرسة بخفي حنين ! واشتدت أزمة الديون على الأسرة فحجز الدائنون على أثاث المنزل وساقوا عميدها إلى سجن المارشارلسي المخصص للمدينين المماطلين ! وكان على تشارلز وهو لما يزل في الحادية عشرة من العمر أن يعيل الأسرة ويرعى الصغار ويتردد إلى السوق ويحاسب الدائنين ويزور والده في السجن من وقت لآخر ...

أما أحلامه في التعليم فقد تبخرت كما تبخر معها حلم طفولي آخر هو أن يصبح ذات يوم ملاكاً وأن يكون له القصر المسمى (تل كاد) التاريخي الذي طالما شاقه أن يراه كلما مر أمامه مع أبيه في نزهاتهما الخلوية . وأتيح للصبي أن يجد عملاً أحسن أجراً في مصنع متواضع مظلم لإنتاج الدهان الأسود لبعض أقرباء أمه فصار يقضي يومه حتى الليل أمام الزجاجات السوداء يملؤها ويلصق عليها بطاقة المصنع ونوع الدهان ويحتمل خلال ذلك سخافات زملائه في الحديث الرخيص وقلة الذوق . ولم تفارقه مرارة ترك الدراسة . في هذا العمل اليدوي الحقير ولا استطاع الانسجام مع زملائه الغليظي الطباع والقلوب . فانصرف إلى عمله يفرغ فيه جهده ونقمته ... ولاحظ صاحب المصنع جديته ونشاطه وإتقانه لف الزجاجات فضاعف أجره الذي لم يكن يزيد على ستة شلنات في الأسبوع .

أما الأم فقد كان القانون يجيز لها أن تسكن مع زوجها في السجن ومع أولادها . بأجر زهيد للمسكن وانتقلت إلى زوجها . ورفض ديكنز فبقي وحده يسعى خارج السجن وانتقل إلى مسكن قريب من مكان قريب منه يفطر مع أسرته أو يبقى وقته الفارغ معهم حتى ينتهي وقت الزيارة .

حتى هنا كان الأفق الجهم يرافق الأسرة ويرهقها عنتاً وبؤساً ويأساً . والمعيل الصغير يجر عبثاً مركبة الأسرة كلها دون طائل كبير ... حتى برقت بارقة

أمل. ورث الأب إرثاً صغيراً فتح له باب الفرج والخروج من السجن بعد تسديد الديون... لكن ديكنز الصغير لم يستطع تحقيق حلمه بالتعلم. بقي في مصنع الدهان الأسود لم يتركه إلا حين اصطدمت أمه بقريبها صاحب المصنع فسرح ابنها. وأقنع الابن أباه بأن يلحقه بأكاديمية ولنغتن هاوس... وكانت بالنسبة للابن نكبة لأن مديرها كان ذا عقلية فظة. لا يشتم الطلاب فقط ولكن يسدد إليهم اللكمات ويهوي على ظهورهم أحياناً بعصاً غليظة كالسيف... تقصف العظام! ومع ذلك فإن ديكنز اعتبر دخوله إليها وهو في الـ ١٤ من العمر أعظم سعادة عرفها في حياته وقام فيها بنشاط في التمثيل وتأليف المسرحيات المضحكة وأصدر صحيفة مدرسية كان يكتبها على أوراق كراريسه ويوزعها بنفسه! لكن سعادته لم تدم طويلاً فقد طار الأرث الضئيل سريعاً وعادوا فقراء واضطر ديكنز لترك الدراسة والبحث عن عمل مرة أخرى...

واستطاع بعد لأي أن يجد لنفسه عملاً في مكتب بعض المحامين براتب بسيط (١٣ شلناً وستة بنسات) أسبوعياً اعتماداً على ما أتقنه من القراءة والكتابة واللغة اللاتينية ونجح في عمله بدليل زيادة أجره إلى ١٥ شلناً! وكان أبوه بعد أن نفذ ماله قد تعلم فن الاختزال فأعجب ديكنز بالخطة واشترى كتاباً قديماً في هذا الفن ودرسه بنجاح كبير حتى صار من أبرز المختزلين في لندن. وعين مختزلاً لدى قاضي القضاة. ومحرراً برلمانياً في بعض الصحف وصار راتبه الأسبوعي خمسة جنيهات...

كل هذا ولم تظهر لديكنز موهبة خاصة أو تميز بإبداع. كان من جملة الملايين الذين يكافحون للخبز اليومي. والتحق بصحيفة مورنتغ كرونيكل فنشر فيها بعض القصص الصغيرة عن حياة الريف ولندن ولشد ما كان فرحه حين لقيت إعجاب وتشجيع القراء. كان ينشرها باسم مستعار ثم نشر سلسلة منها زاد صاحب الصحيفة له في أجره جنيهين حين رأى الإقبال الشديد على

قراءتها . وطبع المجموعة الأولى منها فراجت رواجاً منقطع النظير . وكان في الرابعة والعشرين يومذاك سنة ١٨٣٦ . حين اكتشف أنه قصصي محبوب . وأن هذا هو قدره !

تسابق الناشرون للتعاقد معه . تعاقد مع دار (تشابمان أن هول) فنشر لديها مذكرات بيكويك فباع من الطبعة الأولى فقط ٤٠٠ نسخة ولكن الحلقة الخامسة عشرة باعت أربعين ألف نسخة وهو رقم مذهل يومذاك . وفي سنة ١٨٣٨ بدأ نشر سلسلة أخرى هي قصة أوليفر تويست ثم توالى نشر قصصه . كتب خمس روايات . صار دماغه مصنع قصص مطولة رائعة . وكتب ساعة السيد همفري ورواية دكان التحف القديمة . وبلغ من الاقبال عليها أن جموع القراء كانت تنتظر الساعات وصول السفينة التي تحمل الحلقة الجديدة إلى الميناء !

ودعى الرجل إلى أمريكا . فصدم . لم تعجبه رغم الحفاوة البالغة التي لقيها هناك وحين كتب عنها كتب بنقد لاذع شديد . وقام بعد عودته إلى إنكلترا برحلة إلى أوروبا مع أسرته . وحين عاد اتجه لكتابة المسرحية فكتب (بن جونسون) وتولى تحرير صحيفة ديلي نيوز وبذل رغم سوء صحته الكثير لتحقيق شعاره وهو مكافحة الشر والعمل لخير الفقراء وسعادة المجموع . ثم مل ذلك وأصدر مجلة الكلمات المنزلية وخلال ذلك كتب قصة دافيد كوبرفيلد وقصصاً أخرى عديدة ... واشترى القصر التاريخي الذي طالما حلم به قصر تل كاد واتخذه مسكناً ...

وخلال جولاته في أنحاء إنكلترا بعد ذلك كتب قصة مدينتين وقصصاً أخرى ... وفي سنة ١٨٧٠ كان قد بدأ في وضع رواية جديدة في قصره حين أغمي عليه على المائدة . ودعى الأطباء لإسعافه ولكنه ظل على إغمائه ... وكان الإغماء الأخير !

هل تجمعت كل سنين شقائه فانحطت عليه مرة واحدة وخنقت الآلة المبدعة في أعلى جمجمته ؟

المستنصر الفاطمي

ثلاثة عشر على الأقل اتخذوا هذا اللقب في التاريخ الإسلامي أهمهم ثلاثة خلفاء: أحدهما عباسي في المشرق والثاني أموي في المغرب والثالث فاطمي في مصر ... ولهذا الثالث ــ وهو حفيد الحاكم بأمر الله ــ تاريخ مع الحياة عجيب. يقول المؤرخون عنه إنه جرى على أيامه ما لم يجر على أحد من أهل بيته ممن تقدمه ولا تأخره!. والواقع أنها عدة مصادفات اجتمعت فرفعته أعلى عليين كما هبطت به أسفل سافلين ورغم طول خلافته فهي لم تنفعه كما لم تضره في شيء!

ولي الأمر ولم يكن قد جاوز السابعة من العمر وبقي فيه خليفة ستين سنة وهي مدة ما جلسها على السدة خليفة في الإسلام لا في أهل بيته الفاطميين ولا العباسيين. قام بأمره أول أمره وزير أبيه أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي، ثم تغلبت أمه على الدولة فكانت تصطنع الوزراء وتوليهم ومن استوحشت منه أمرت بقتله فيقتل. وبرز اليهود في عهده ذلك أنها قبل ولادة المستنصر كانت جارية سوداء لأبي سعد التستري اليهودي فأطلقت يده في التجارات والأعمال وبلغ درجة في الدولة علية لا سيما بعد وفاة الجرجرائي. فلم يبق للوزير الفلاحي الذي خلفه أمر ولا نهي معه سوى الاسم. حتى أغرى الوزير الجند فقتلوه. وهو في موكبه إلى القصر في مهرجان عظيم اعترضه ثلاثة من الجند الترك لأنه أنقص أرزاقهم فضربوه حتى مات وأخذوا ما وصلهم من أعضائه وأحرقوا الجثة وألقي عليها من التراب تل. وجمع أهله ما بقي منه في

تابوت وزروه بالستور ووضعوا أمامه الشموع فتعلق لهبها بالستور وراحت النار بالتابوت كله ...

وحقدت أم الخليفة السوداء على الوزير الفلاحي لقتل أبي سعد فصرفته من الوزارة ومازالت به حتى اعتقلته في خزانة البنود (أي السجن) ثم قتل. وجاء الوزير أبو محمد الحسن اليازوري فاستقرت الوزارة في عهده ثماني سنوات. حتى سنة ٤٥٠ ...

كان المستنصر يوم تولى اليازوري في الثامنة عشرة ولكن أمه هي التي لها الأمر والنهي. وأخذت أحوال الدولة تضطرب في الشام من جهة وفي أفريقية من جهة أخرى. وتمكن المرداسيون بعد الحمدانيين في شمال الشام. وأما أفريقية التي عهد بها المعز الفاطمي لبني زيري فقد انقطعت عن الفاطميين وأرسل لها الخليفة العباسي من بغداد اللواء الأسود والخلع عن طريق القسطنطينية ولم تصل إليها هذه البعثة العباسية لأن البيزنطيين كرمى للفاطميين صادروها وأرسلوا الرسول سنة ٤٤٣ إلى المستنصر الذي جرس الرسول على جمل وأحرق العهد واللواء والهدنة! ... لكن دولة الزيريين كانت قد استقلت عن الفواطم فما رجعت إليهم أبداً وإن انتقموا منها بتسيير بني هلال إليها وتخريبها ... وكان هذا أول الوهن. لكنه وهن غطاه جماعة المستنصر بنصرين هامين في العراق واليمن.

حاول داعي الدعاة الفاطمي مؤيد الدين أن يعوض عن خسارة أفريقية وتونس بالمسير إلى بغداد فدبر الأمر سنة ٤٤٨ أحسن تدبير وأوسعه وحمل من الأموال وقاد من الجند الكميات الضخمة ومشى بها إلى حلب يريد وادي الفرات. ورأى أمور الخلافة العباسية مضطربة ففضل التآمر على القتال وكان في بغداد قائد للبويهيين ذو شأن اسمه أبو الحارث البساسيري وقعت وحشة بينه وبين الخليفة القائم العباسي عرف بمسيرة الفاطميين نحو بغداد فكتب يعرض

التفاهم معهم . وما أسرع ما لباه داعي الدعاة بالمال والتأييد وتعهد البساسيري برد موجة السلاجقة الذين فتحوا إيران وشرقي آسيا الصغرى عن مصر والشام . وفيما هرب القائم من بغداد أعلن البساسيري خلافة المستنصر الفاطمي في بغداد على المنابر . وحسب الناس أن الدولة العباسية انقضت . لكن ما هي إلا عشرة أشهر حتى جاء السلاجقة بقيادة طغرل بك وما للبساسيري في ردهم إمكان فهرب ثم قبضوا عليه وأعدموه ... وعاد الخليفة القائم العباسي خليفة في بغداد ... كان النصر نصراً خلباً ... والفرحة الفاطمية ما تمت « خدها الغراب وطار » ... طارت مع رأس البساسيري الذي حمل على رأس رمح إلى بغداد !

على أن الفاطميين كانوا قد توجهوا في الوقت نفسه إلى اليمن ووجدوا بساسيرياً ثانياً هناك هو علي بن محمد الصليحي الذي لم يلق مصير البساسيري بفضل قوته وسياسته ومع أن عهده لم يدم طويلاً إلا إن زوجته السيدة الحرة التي حكمت ستين سنة بعده ، وماتت في الثالثة والتسعين من العمر هي التي سندت الدعوة الفاطمية في اليمن وحضرموت وشرقي أفريقية والهند وبجهودها بقيت هذه الدعوة في هذه المواضع إلى اليوم . كان الفاطميون يؤمنون بها التجارة مع المحيط الهندي من جهة والدعوة الدينية لمذهبهم من جهة أخرى ... وحين زالت هذه الدولة الصليحية بقيت منها الدعوة السرية وبقي الدعاة إلى اليوم ...

كانت علاقة المستنصر مع اليمن نصراً . وكان يتدخل في أمورهم الداخلية كلما استشاروه . ولقد زوج الملكة الحرة بقوة تأثيره ... على أن هذا النصر انتقص منه أن نفوذ الفاطميين على الحرمين انتهى سنة ٤٤٩ وذكر اسم الخليفة المقتدي العباسي على المنابر ...

وهكذا كانت أحوال المستنصر بين مد وجزر نصر هنا يعقبه نكسة هناك وفرحة مرة بفتح تعقبها أو تعاصرها انقطاع أمر معها أو بعدها حتى جاءته

الطامة الكبرى .

كان النيل ينقص وينقص في المنسوب منذ سنة ٤٤٦ . وحدث في هذه السنة والتي تليها وباء وغلاء أهلك الزرع والنسل وزاد عليه التكاليف الباهظة التي تكلفتها الحملة العراقية الفاشلة . وقبض المستنصر على وزيره البازوري بسبب وشاية نقلوها إليه أنه يكاتب السلاجقة وسيره إلى تنيس مع أهله وهناك ضربت عنقه !

وتمادى الوهن في الدولة واصطدم الجند السودانيون بالأتراك وكانت أم الخليفة بجانب أبناء جنسها السود الذين تكاثروا جداً في هذه الفترة . واضطربت أمور الدولة اضطراباً شنيعاً لدرجة أنه تولى الوزارة خلالها ٥٣ وزيراً تراوحت وزارتهم بين يوم واحد وعدة أشهر وولي بعضهم الوزارة ١٤ مرة . وجرى الأمر نفسه في منصب قاضي القضاة في الفترة نفسها فقد وليه ٥٣ قاضياً تولى بعضهم المنصب نفسه ١٢ مرة واستمرت هذه الفترة ١٤ سنة ، لكن أشنع ما جرى في السنوات السبع الأخيرة نقص النيل سبع سنوات متوالية واستفحل الغلاء ثم جاع الناس واشتد الوباء . ثم بدأوا الهرب من مصر زرافات ووحداناً وبيع الرغيف الواحد بخمسين ديناراً وأكلت الجيف . وكان الناس يكمن بعضهم لبعض ويصطادون المتفرد بالكلاليب ويأكلونه . وكان المستنصر في هذه الشدة التي عرفت باسمه يركب وحده وكل من معه من الخواص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها لأنها أكلت . وكانوا إذا مشوا يتساقطون من الجوع . وكان المستنصر استعار من صاحب ديوان الإنشاء دابته ليركبها صاحب مظلته ولجأ المستنصر إلى الجامع فكانت إحدى الجارات تأتيه يوماً برغيف ويوماً بصحن طعام . وآخر الأمر هربت أم المستنصر وبناته إلى بغداد من فرط الجوع سنة ٤٦٢ ونهب ما في القصور الفاطمية نهباً من الذخائر والتحف والسيوف والثياب . وتفرق أهل مصر وتشتتوا في الشام فلم تفرج الأزمة إلا سنة ٤٦٦ وإلا بمجيء قائد فاطمي من أصل أرمني هو الأفضل

الجمالي تولى تدبير الأمور ...

لكن المستنصر الخليفة بقي مع هذا الوزير الجديد كالمحجور عليه وكذلك في أيام ابنه بدر الجمالي حتى توفي سنة ٤٨٧ .

ما عرف التاريخ الإسلامي خليفة تقلبت به الظروف في صعود وهبوط كهذا الخليفة الذي قضى حياته الطويلة بين أم جارية تأمر ووزراء لا يستقرون ووزير أرمني مسح كل نفوذه ....

ألا يستحق مثل هذا الرجل الرثاء؟

من قصة الطيران المستحيل

محاولة الطيران في الفضاء الأوسع، على الزرقة والغيم محاولة أغـرت الإنسان دوماً. في أساطير الإغريق القديمة جعلوا أجنحته من الشمع ما لبثت أن أذابتها الشمس فهوى. وفي الأيام الأندلسية. فكر عباس بن فرناس الأندلسي المعروف أن يطير. ما خطر في باله إلا أن يجعل لنفسه ثياباً من ريش الطير وأجنحة كأجنحته. وكانت غلطته التي دفع حياته ثمناً لها أنه نسي أن الطير يهبط حين يهبط على زمكه فارشاً ريشه في مؤخره ذيلاً فوقع عباس صريع محاولته... ومنذ تسعين سنة تماماً سنة ١٩٠٣ ظهر مقال لعالم شهير أثبت فيه إثباتاً قاطعاً استحالة الطيران على البشر... وصدقه الناس. لكن ما إن مضت ثلاثة أشهر فقط حتى حقق هذا المستحيل. عاملان من بائعي الدراجات حققا المعجزة القديمة ونجحا. هذان العاملان هما الشقيقان: رايت.

فإذا ركبت اليوم على جناح طائرة بين الهواء المكيف والمقعد الوثير والمضيفة تذهب وتجيء لخدمتك ما لم تخدم به هارون الرشيد. لتصل في ساعات إلى حيث تريد. فتذكر أنك تدين لهذين الشقيقين بما أنت فيه من نعيم.

هما أخوان ولدا سنة ١٨٦٧ و سنة ١٨٧١ لقسيس في ولاية أوهايو ثم حط بالأسرة المقام بعد تنقل في ريتشمند ثم في مدينة دايتون مدينتهم الأولى... ولم يكن البيت سوى كوخ خشي ذي سبع غرف صغيرة! بعضها فوق بعض واتخذ القسيس مكتبة في الطابق الأسفل فيها بعض دوائر المعارف وبعض كتب

التراجم والتواريخ وبعض القصص والأساطير بالإضافة إلى الكتاب المقدس وكان للأخوين هواية الطيران ومن لهما بها؟ وهي حلم ولما كا أحد الأخوين مهتماً بالطباعة فقد عمل حتى أوجد لنفسه مطبعة صغيرة لبعض الأوراق والنشرات. وأصدر مجلة أسبوعية راجت فشجعه ذلك على تحويلها إلى جريدة يومية ... ولكن هذه القفزة كانت أوسع من مدى ساقيه فهوت الجريدة وهوى معها وأفلس!

بعد فترة سنوات نجد الأخوين يعملان في صنع الدراجات. كانت الدراجة ابتكاراً حديثاً وعملياً فراجت شركتهما ونجحت فلم تأت سنة ١٨٩٢ حتى كان للشركة مبنى خاص فسيح غمر السوق بهذه الآلة العملية الشعبية والرخيصة في وقت معاً. وأتيح لهما من الأرباح ما فتحا معه فروعاً للإطارات والجرارات والآلات الكاتبة والحاسبة. صار الاخوان من أصحاب الأموال... واتفق أن نشرت إحدى المجلات مقالاً عن آلة للطيران فاستيقظت في الأخوين هوايتهما القديمة. وتذكرا هدية جاءتهما وهما صغيران لطائرة من الخيزران والورق والفلين وخيوط المطاط. فلماذا لا يجربان الهواية القديمة؟ وزاد في حماستهما أنهما قرأا بعد قليل مصرع صاحب المقال أثناء تجربته لطائرة صنعها بنفسه. وبدأ الأخوان البحث المشترك...

كان بإمكانهما الحصول على التقارير والدراسات والمراجع وقد اتفق رأيهما في النهاية على أن مشكلة الطيران الأساسية هي ضرورة التوصل إلى طريقة لحفظ توازن الطائرة في الجو. واستغرقا يبحثان وذات يوم قال الأخ لأخيه وهو يقلب صندوقاً من الورق المقوى.

ـــ وجدتها!

وصنعا على الفور طائرة طولها متر ونصف المتر، ووصلا جناحيها بخيوط تمكنهما من تحريكها وتغيير وضعها بما يتفق مع الضغط الجوي وزوداها

بذيل يعينها على الارتفاع. وجربا الآلة الجديدة في ظاهرة مدينة دايتون. ونجحت التجربة. أمكن حفظ توازنها بالخيوط وتحريك الخيوط... وفي سنة ١٩٠٠ اتصل الأخوان بمهندس ذي خبرة واسعة في الطيران، ثم وضعا تصميماً لطائرة أخرى أضخم من الأولى جرباها على ساحل كارولينا الشمالية بعد دراسة سرعة الريح وتقلبات الجو... جعلا هيكلها إطاراً مستطيلاً من خشب الحور وغطياه بالتيل الفرنسي الأبيض وزوداها بجناحين طول كل منهما قرابة ستة أمتار وقابلان للتحرك وربطا الدفة بالمقدمة وجعلا لها زلاقات في موضع العجلات لتهبط بسلام على رمال الشاطىء!

ونجحت التجربة النجاح الباهر مما جعل الأخوين يكررانها في السنة التالية على جهاز طيران أضخم طول كل من الجناحين سبعة أمتار ووزنه ٩٨ رطلاً (قرابة ٥٠ كغ) ونجحا مرة أخرى في الصعود بالطائرة والهبوط بها (فارغة بالطبع) وإنزالها بسلام منزلقة على الرمال.

ونصبا في أعلى شركتهما جهازاً هوائياً يجربان على تياراته ويختبران شكل الأجنحة وأحجامها وكشفت تجاربهما عن أخطاء كثيرة في تصميمات الآخرين ووضعا بيانات ما تزال يجري العمل على أساسها حتى اليوم... واستبد بهما هوس الطيران فإذا بهما يقومان خلال سنتين بأكثر من ألف تجربة في الطيران الانزلاقي. ثم حولا الذيل إلى دفة متحركة وسجلا هذا الابتكار لسر توازن الطائرة اختراعاً لهما.

وانتقل الأخوان إلى خطوة أخرى في الطيران. صنعا طائرة تستطيع الارتفاع في الجو والتحليق. كان وزنها حوالي مائة كيلو وقوتها اثني عشر حصاناً وزوداها بمروحة خاصة من ابتكارهما في المقدمة وبلغ طول كل من جناحيها حوالي ١٤ متراً ومجموع وزنها براكبها ٣٥٠ كيلوغراماً وتمت التجربة سنة ١٩٠٣. عبرت الطائرة أول الأمر على خط حديدي بأعلى التلال وحلقت فترة لم تزد على ثلاث ثوان ونصف الثانية ثم هبطت. وفي الشهر التالي أعيدت

التجربة ركب الطائرة أحد الأخوين فبقي في الجو ١٢ ثانية رغم سرعة الرياح وفي التجربة الثالثة استمر التحليق ٥٤ ثانية ، لكنها أصيبت عند الهبوط بصدع حال دون متابعة التجارب تلك السنة !

كانت تلك معجزة آلية هندسية أهملتها الصحف لأن أحداً لم يصدقها إن لم تشنع على الأخوين فيها . ولكنهما لم يأبها لذلك وانصرفا إلى تحسين آلية الجهاز الذي يجربانه واستطاعا البقاء في الجو خمس دقائق كاملات . ورآها الناس وهي ترتفع وتطير بين الدهشة والإعجاب ثم تهبط بسلام . وحين حسنا آليتها مرة أخرى وجرباها بقيت الطائرة في الجو نصف ساعة . وبلغ إعجاب المشاهدين أشده حين عرفوا أنها قطعت حوالي خمسين كم في طيرانها . إذ ذاك خرست الألسن الساخرة وبدأت الصحف الأوروبية تكيل المديح للأخوين المبدعين : رايت . أما صحف أمريكا فلم تشعر بما أنجزا إلا بعد ثلاث سنوات .

وتبنى الجيش الأمريكي تجربة الطيران هذه . وكان الاتفاق أن يكون معدل الطيران ٦٠ كم في الساعة ولكنهما زاداها إلى ٦٥ و٦٧ .

وفي سنة ١٩٠٩ أنشىء في دايتون أول مصنع لإنتاج الطائرات وأنشئت شركة مماثلة في فرنسا وألمانيا وغيرها ...

وبعد ثمانين سنة من طائرة الأخوين رايت صار تحتنا للطيران هذا الجيش الضخم من الطائرات النفاثة ... من الطائرات السابقة للصوت ...

من كان يتصور ؟

في سبع سنوات كانت الطائرة حلماً مستحيلاً فصارت مصانع وآلة نقل وقتل !

كلمة أخيرة

وبعد ...

هل الإنسان ملاك أم شيطان ؟

إن الله ما صاغ طينته وسوى نباته إلا وقد أودع في تركيبه ما شاء من كل شيء في الخير والشر . من الفضيلة والرذيلة . من الرحمة والقسوة . من الجبروت والمسكنة خلقه إنساناً !

على أن المشكلة أن القضية بالنسبة لهذا الإنسان نسبية . لا لأن الشر مكمل للخير وشرط له . ولولا هذا ما وجد ذاك ، ولكن لأن الحياة صراع لا نهائي بين آلاف المشاعر الإنسانية . والناس إنما يحكمون من الزاوية التي منها ينظرون . تتواثب الجن من عيونهم إن أبصروا المصلبين ظلماً على الطرقات في حين يتشفى آخرون ويرقصون حول الجثث المدلاة . ويرتجف بعضهم للنفاق أو للظلم أو للخيانة ويعظون ويصلون ويرى بعضهم في ذلك كله ملح الأرض . وتقدس الأمم محرريها وتبني لهم هياكل المجد فيما ترى أمم أخرى أنهم ثوار خونة يستحقون الإعدام . وينظر المتصوف إلى فنائه في الله على أنه منتهى السؤل فيما يعتقد آخرون أنه أبشع الكفر . ويعتبر فريق حائط السجن جناحاً من السعير وليسوا بالقلائل أولئك الذين يعتبرونه أفضل المصير للمنافسين ... حتى أبطال الحروب والغلاب تضج الطبول أمامهم وتخفق الأعلام والمباخر في جانب من الأرض في حين تهطل اللعنات مطراً عليهم في جانب آخر ...

فمن تراه يفصل بين الخير والشر ؟ أحسب أن راحة الضمير هي المرجع والميزان . أليس هذا يا ترى كان أشقى البشر هم أولئك الذين باعوا ضمائرهم للشيطان ؟

أم أنهم أيضاً لا يدرون ما باعوا ؟

المحتوى

رجال وشياطين / شاكر مصطفى . ـ دمشق : دار طلاس ، ١٩٩٦ . ـ
٣١٨ص ؛ ٢٤ سم .
(سلسلة أوراق من التاريخ ؛ ٨)

١ ـ ٩٢٠ ع م ص ط ر ٢ ـ العنوان ٣ ـ مصطفى
مكتبة الأسد

رقم الإيداع ـ ٨ / ١ / ١٩٩٦ رقم الإصدار ٦٩٤

رقم : ٢٥٠٧٨
تاريخ : ١٩٩٥/٢/١١

هذه السلسلة

هي مجرد أوراق متناثرة، كأوراق الخريف لا يجمعها إلا أنَّ من تتحدث عنهم مرُّوا في خاطر الزمن. ثم طواهم الغيب طيَّ السِّجلِّ للكتب. وهي لا تزعم أنها تحمل عِلْماً للمختصين فمدى أطول أوراقها صفحات ثلاث أو أربع. ولا أنها تجترح كشوفاً وأسراراً ما سبقها إليها سابق. فكلها سِيَرٌ لطيوف عبرت الماضي وتركت وراءها الغبار. لكنها تزعم، بلى، إنها طرائف من هنا وهناك وقصص شاردة هي حصيلة عمر من الدراسات ذابت فيها العيون وضاعت على أحرفها الليالي والأقمار وفيها ما فيها من الزاد الثقافي، كَرْماً على درب.

ولقد تكون كتبت ليأنس بها من يحب المعرفة التاريخية أو من يشدو بعض الراحة هرباً إلى عالم الآخرين. لكنها من وراء هذا وذاك تحمل رسالة، إنها دعوة للقراءة السريعة المفيدة. ففي عالم السرعة وزحام المشاغل والوجبات الخفيفة. هذه وجبات ثقافية أسرع وأخف وأمتع!

أتراها تنجح في حمل هذه الرسالة؟